إملي نصرالله

الإقلاع عكس الزمن

نوفل

امِلي نَصرالله

الإقْلاعُ عكْسَ الزَّمَنْ

رواية

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2012 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الثالثة عشرة، 2017

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2012
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
twitter.com/NaufalBooks instagram.com/HachetteAntoine facebook.com/HachetteAntoine www.hachette-antoine.com
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-022-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-438-1

إهداء

إلى رُوحكَ الطيِّبَة
يا أبي...

1

بدأت «المشكلة» في القنصلية الكندية في بيروت؛ كان اليوم الثاني من شهر أيلول عام 1975.

الموعد مسجّل على ورقة، والورقة في يده، يُحكم قبضته عليها، ويتحسَّسها بين اللحظة واللحظة، خوفَ أن تطير منه، تنزلق أو تذوب من الحرارة المشتعلة في باطن كفه.

الموعد مُسجَّل. حفظه عن ظهر قلبه، لكثرة ما ردّده: «الساعة الحادية عشرة قبل الظهر»... وها الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا خمس دقائق، و«رضوان» يهمّ بوضع قدمه داخل صندوق عجيب، يُلبّي النداء بضغطةِ زرّ... «شُبَّيْك.. لُبَّيْك» ليس في الأساطير، بل هنا، في الواقع، في بيروت الحديثة، التي لم يزرها منذ سنين.

حاول أن يتذكّر أيّة سنة قام بآخر زيارة إلى هذه المدينة الدائمة التحوّل، فخانته الذاكرة! إنّما تذكّر جيّدًا أنّ هذا الابتكار العجيب لم يكن معروفًا في حينه: تضغط زرًّا، فتنتقل من الأرض إلى جوار السماء؟!

وفكَّر في أنّ هذا ليس زرًّا، إن هو إلّا خاتم الجنّ... ولم يجرؤ على أن يلمسه، بل ترك المهمّة لرفيق الرحلة، «سمعان الأبرص».

وسمعان، مثله، جاء بناءً على موعد، وله في القنصلية أوراق.

2

«يا عون الله!»

قالها «رضوان» بطريقته العفوية، ونقل الخطوة الثانية، ثمّ انغلق الباب وانطلقَ الصندوق بسرعة الصاروخ: «يا عون الله!»...

كان قلبه يدقّ دقّات غير مألوفة. همس لذاته: «ما بالك يا رجل؟ سباع الغاب لا تخيفك... ما بالك خائف من هذه المقابلة؟

وضحكتْ منه ذاته وهي تردّ عليه: «خوفك من المقابلة مؤجَّل، والخوف الحاليّ هو بسبب هذا الصاروخ...».

صحيح. ركبتاه ترتجفان. التجربة جديدة: «يا رب نجّنا من التجارب!» قالها، والتفت إلى سمعان، فأبصره هادئًا كتمثال.

وتساءل: من أين أتته الشجاعة؟ وهو يعرفه جبانًا، يرتعد من نقلة الحَجَل. يعرفه جيّدًا، خبره في أثناء رحلة صيد ليلية... لم يصدّق آنذاك أنّ الصبيّ يعود إلى أهله من دون أن يُصاب بصرعة. ومن يومها، بدأ يروي عن سمعان الروايات، ويتندّر بحكاياته في جلسات الأنس فوق مصاطب الضيعة.

وها سمعان أمامه: فتًى، من عمر أصغر أولاده، يقف في الصندوق العجيب، ولا يَرفّ له جفن، بل يبدو هنا وكأنّه في صدر داره.

وفكّر رضوان مرّة أخرى في أنّ هناك أناسًا يبدون شجاعتهم في الغابات الموحشة، في ليالي الظلمة، والعواصف؛ يقابلهم أناس لم يخبروا حياة البراري، ودجّنتهم المدينة، حتّى أصبحوا أبناءها بالرضاعة، وسمعان من الفئة الثانية. ارتاح لهذه المعادلة، ولانفتاح الباب بلا إنذار. وسمع صوت سمعان ينتشله من تأمّلاته: – عمّي رضوان، ننزل هنا.

تبعه رضوان قفزًا، وكأنّما الصندوق الملعون ودّعه بلبطة على قفاه:

– أهكذا تودّعون ضيوفكم، يا أهالي بيروت؟

سؤاله هذا بقي مكتومًا طيّ جدران الصدر. وسمعان تقدّم ووقف في الصف الطويل، ودعا رضوان ليقف أمامه:

– ننتظر دَوْرنا، عم رضوان.

انفرجتْ شفتا رضوان عن مشروع سؤال، ولكنّهما لمْ تلبثا أن التحمتا بناءً على قرار داخلي:

– سمعان يفهم في هذه الأمور أكثر منّي.

وراح يقطع الوقت بتأمُّل الوجوه الغريبة حوله، وأقفية الرؤوس المصطفّة أمامه، ثمّ لم يلبث أن سمع نداءً وكأنّه نداء الحبيب:

– رضوان أبو يوسف!

رفع صوته وصاح:

– حاضر، هون. نعم، يا عمي، أنا هون!

الجواب انطلق عفوًا، ولم ينتظر إشارة سمعان، خرج من الصفّ، وهرول نحو الزاوية، حيث يجلس صاحب النداء، خلف جدار زجاجي، له فتحة صغيرة للحوار مع الخارج.

3

– حضرتك رضوان أبو يوسف؟

ردَّ بحماسة:

– نعم، أنا أبو نبيل.

سأله الصوت بلهجة مؤنِّبة.

– أبو يوسف، أم أبو نبيل؟

– الاثنان... أبو يوسف اسم العائلة، وأبو نبيل لقبي. ابني الأكبر اسمه نبيل، الله يخلّي أولادك ويخلّيه...

وصل إلى هذا الحدّ وصمت، إذ لم يَلْقَ من محاوره أيّ تشجيع؛ فالرجل لم يرفع رأسه عن الصفحة أمامه، بل فاجأه بسؤال آخر:

– مستعدّ لمواجهة القنصل؟

نفخ رضوان صدره:

– من كلّ بدّ. حاضر ومستعدّ.

– تفضّل، ادخل من هذا الباب، إلى اليسار.

– كثر الله خيرك. الله يديمك.

وفي طريقه إلى الباب الأيسر، لم ينسَ أن يبحث عن سمعان، فأبصره مراوحًا في مكانه، وتلقّى منه بسمة مشجّعة ليمضي.

– وحدي؟

سأله رضوان ببراءة طفل، فأجاب:

– نعم، السكرتيرة تساعدك.

– مثلما الله يريد... توكّلنا على الله.

قالها بصوتٍ عالٍ، وكأنّما الناس من حوله تلاشوا، وبقي هو، وحده، أمام المشكلة المعقَّدة والباب الموصد.

4

وفُتح الباب على مصراعيه، فذعر رضوان.

انفرجت الدفّتان وكأنّما شدّتهما يد ساحرة؛ دفّة إلى اليمين ودفّة إلى اليسار، ومن الداخل، أطلّ شابّ أشقر، تأمّله لحظات قبل أن يشير إليه ليدخل.

تساءل رضوان:

– أوَيكون هذا القنصل؟

وندم، إذ لم يسأل عن ألوان القنصل وأشكاله، حتّى لا يقع في خطأ فادح. لكن اليد تلحّ عليه، ويتمتم صاحبها كلمات مبهمة، دخلت أُذني رضوان، من دون أن تسجّل معنى.

عاد الشاب الأشقر يومئ إليه، فتقدّم، برغم الارتباك الذي اعتراه، تقدّم بخطًى ثابتة. وفي الداخل، راحت ضربات قلبه تتسارع، ومعها ارتفعتْ سرعة تقريع الضمير: – ويحك يا رجل! أنظر إليه، إنه مثلك، إنسان مثلك لا هو أسد، ولا ضبع. وأنت، لا تخيفك السباع و...

لم يترك له الشاب الأشقر مجالًا لمتابعة تسلسل أفكاره؛ أمسك آلة معدنية وراح يُلَوِّح بها، حول رأس رضوان، نزولًا إلى جانبيه، وتحت إبطيه، ثمّ مرّرها بين ساقيه.

(ماذا يفعل الرجل؟)

شعر بالدموع تغلي في أعماق عينيه، وتمنّى لو كان سمعان إلى جانبه، لو كان هنا، لشرح له ما الذي يفعله هذا الرجل، وإذا كان هو القنصل نفسه، وهل هو عاقل أم مجنون، وهل هذا السلام على الطريقة الكندية؟! وأيّة بلاد هذه التي دعوه ليسافر إليها؟

أدار له الرجل ظهره، بعدما أومأ إليه ليتبعه، فأطاع صاغرًا، وهو يفكر: اللعبة لم تتمّ. ما زالت هناك مفاجآت. يا ربّ عونك!

ولم يكمل الجملة، أطلّت من الباب بوجه مشرق، صبيّة، أنيقة، رشيقة، مثل قلب النهار. ابتسم لها ابتسامة إعجاب، ومدَّ يده ليصافحها، فمدّت الصبيّة يدها، وسلّمت عليه، وخاطبته بالعربية.

– بنت عرب، الستّ؟

سألها، وهو يقصد أن يقول لها: «يا أخت روحي! يا منقذتي! يا رحمة هبطت عليّ خلّصيني».

أجابته باختصار:

أنا سكرتيرة القنصل. هل تتكلم الإنكليزية، أو الفرنسية؟

– محسوبك بالعربي ومش مخلّص.

ابتلعتْ ابتسامتها، وقالت:

– ولا يهمّك. سأكون الترجمان بينك وبين القنصل، تفضَّلْ معي.

– مشكورة سلفًا، يا بنت الحلال.

صدى الكلمة الأخيرة، تلقّفتها أذن الرجل الغامض، خلف المكتب. لم يقف لأبي نبيل، ولم يمدّ يده ليصافحه، بل أومأ إليه ليجلس.

ورضوان لم يفاجأ بهذا التصرّف؛ عليهم أن يخاطبوه بلغة البكم، ما دام يجهل اللغات؛ لا يتكلّم الإنكليزية ولا الفرنسية، ولكن هذا الملاك الحارس إلى جانبه. هذه الصبيّة هبطتْ عليه من السماء. ملاك، وأيّ ملاك؟

5

– القنصل يسألك، سيد رضوان، ما غاية الرحلة إلى كندا؟

القنصل مهتمّ به إذن. وهو أساء فهمه حين لم يستقبله بحرارة ولم يتحرّك عن الكرسيّ:

– قولي له، لأزور الشباب.

– من هم الشباب، سيد رضوان؟

– أولادي، نبيل، الكبير، الله يخلّي أولاد الناس ويخلّيه، وحسّان صاحب أكبر مطعم في «شارلتون» وجميل عنده صالون حلاقة للستّات، ولمياء، متزوّجة ابن مختار البلد، ونوال معلّمة في الجامعة.

– يقول القنصل الله يحفظهم، من كم سنة في كندا؟

– قولي له، يا بنتي، من عشرين سنة، سافر نبيل في أيّام الحصيدة، وكان عمره سبع عشرة سنة؛ اشتغل في عدّة وظائف، ولمّا الله وفّقه، صار يأخذ إخوته الواحد بعد الآخر... قولي له، يا بنتي، كانوا يعينوني في الرزقات، لكن من حين دخلوا المدارس، ما عادت الأرزاق تكفي...

– القنصل يسألك: ما هي المدّة التي ستقضيها في كندا؟

– الله يوسّع مطارحه... الأولاد قالوا ستّة أشهر. زيارة، أقوم بها مع أمّ نبيل، نشاهدهم، نتعرّف على أحفادنا. قولك بيحكوا عربي، الأحفاد؟

– القنصل لا يعرف ذلك، يا سيّد رضوان. لكنّه يسألك: ما هي كمّية النقود التي تنقلها؟

– من خير الله وخيره، فيه مال... الشباب مفضلين.

– القنصل، يا سيد رضوان، يسأل عن الرقم، الكمّية؟

– معنا ألف دولار. حين الوصول الشباب يتكفّلون بكلّ نفقة.

– طيّب، المقابلة انتهت. جواز سفرك حاضر. وهذا جواز سفر الستّ أم نبيل. ختمهما القنصل ويقول لك: «رحلة سعيدة».

– الله يسعده ويسعدك، ويسعد جميع الناس.

6

تناول رضوان جوازَي السفر، وانهارتْ عن كتفيه أثقال الكون.

قفز بخفّة طفل لعوب، فودّع القنصل، مصافحة، غيرَ آبه لإشارة التعجّب التي ارتسمت فوق جبين الرجل.

وصافح السكرتيرة بحرارة، متمنّيًا لها كلّ خير الدنيا، ثمّ هرول إلى الخارج.

7

– أين سمعان؟

كاد يطلق صرخة مُدوّية حين لم يبصره في الصفّ. هل تركه سمعان، ومضى؟ لا. هذا مستحيل! ماذا يفعل لو حدث ذلك؟ أين يذهب، وهو لا يدري كيف يتحرّك؟ رمى حمله على كتفَي سمعان.

وأطلّ سمعان من غرفة جانبية، حاملًا أوراقًا... وانفرجت أسارير رضوان وهو يطلق البشارة عاليًا:

– أخذنا «البازبورت» وخلصنا من مقابلة القنصل... أمّا شو ابن حلال! الله يخليه لأهله.

كان سمعان منهمكًا في إنهاء معاملاته، فقاد رضوان إلى مقعد قريب، وطلب إليه أن ينتظره، ريثما ينتهي، ليخرجا معًا فيما بعد.

8

صحيح أنّ الخطوة الأولى بدأت في القنصلية الكندية في بيروت، إنّما لكلّ بداية، بداية أخرى. وقد جاءت البداية الأولى مع رسالة مضمونة مُعَنْوَنَة باسم «رضوان أبو يوسف».

والرسالة من ابنه البكر، نبيل، يقول فيها:

والديّ الحبيبين،

بعد السلام وتقبيل أياديكم، أفيدكم بأنّي اجتمعت مع إخوتي وقرّ الرأي على أن تقوما بزيارتنا، في كندا، لمدّة ستة أشهر، قابلة للتجديد، حتّى نراكما، وتتعرّفا على أحفادكما في هذه البلاد. وقد راسلنا القنصل الكندي في بيروت، بهذا الخصوص وبعثنا الأوراق كاملة؛ بقي عليكما الحضور إلى القنصلية، غبّ الطلب، للتأشير على «الباسبورت» وتعيين موعد السفر.

طيّه «شاك» بقيمة ألف دولار وبطاقتا سفر. أعلمونا بموعد مغادرتكما البلاد، ونحن نكون في استقبالكما.

واسلموا لولدكم المحبّ

نبيل

9

الرسالة سقطتْ على رأس رضوان وزوجته سقوط الصاعقة. السفر لم يكن يخطر لهما في بال.

السفر للشباب. أمّا الكهول والعجائز فيبقون في الخلفية، يعيشون الانتظار. انتظار الرسائل، وعودة الأحباب.

العجائز قلّما يسافرون.

يتّكئون على كتف الأفق، عند الغروب، يتأمّلون الشمس، تعبر الخطّ المرسوم منذ ملايين السنين؛ تجتازه في رحلتها اليومية، من الشرق، إلى

الغرب، من الشرق إلى الغرب...

إلى الغرب يسافر رضوان والستّ أمّ نبيل، إلى الغرب!

من هنا سرّ تسميتهم للهجرة: الاغتراب... الغربة... في الخارج هم غرباء.

هنا هم في ديارهم. ديار الأجداد والآباء، وفي المستقبل، ديار الأولاد و«الأحفاد».

– ولكن أين «الأحفاد» يا رضوان؟ أين الأولاد؟

يسأل الرجل نفسه، وهو غير مصدّق، وكأنّهم غادروه في تلك اللحظة، وليس قبل عشرين سنة.

وترد عليه ذاته الخفية:

– سافروا... رحلوا، وأنت ودّعتهم عند طرف الضيعة. جبنت، ولم تنزل إلى بيروت. أمّ نبيل رافقتهم واحدًا واحدًا، حتّى حدود البحر. وأنت بقيت هنا، منغرسًا مثل الوتد، في صلب الأرض. أنت، يومها جبنت يا رجل.

حنى رضوان رأسه، وكأنّما السنون تتجمّع حتّى تحشد جيوشها، وتغيّر عليه... تشنّ هجومًا انتقاميًّا مفاجئًا، وهو أعزل. أعزل حتّى من الكلمات.

أزاح الكرسيّ بإحدى قدميه حتّى طرف السقيفة، ثمّ جلس رأسه بين يديه، وراح يُسرّح بصره في المناظر المحيطة به:

هذا حرج الحمى... وتلك البيوت المشرورة فوق التلّة؛ بيوت «الخلوات» القرية الوادعة، جارة «جورة السنديان». وهناك، في أعباب الشخروب المُمْعن تصعيدًا صوب «حرمون»، آثارٌ باقية منذ مئات السنين، تُشير إلى أنّ هذا الجزء من الكون، مغروس في قلب التاريخ. وتلك «تلّة الشيخ» تشمخ فوقها صنوبرات يافعات، وخلفها شيخ الجبال. يتلفّت بأنفه، وكأنّه إشارة تحدٍّ لكلّ ما يحيط به، «حرمون»!

– من كَحَل عينيه بالنور المتدفَّق من فوقْ ذُراك، كيف يقدر أن ينساك؟

أمال بصره قليلًا، فبدا له حرف من بقايا قرميد الجيران، وجدار يكاد ينهار، جدار الجارة أمّ سعيد:

– كم مرّة نبَّهتها! كم مرّة قلت لها: «يا أمّ سعيد، الجدار خطر على أولاد الحارة. حجارته مخلَّعة، من نسمة هواء تطير»!

وأمّ سعيد ظلّت تدير الأذن الصمّاء وتتابع مسيرها.

ذات يوم أحرجها، فأخرجها عن الصمت:
– وكيف تريدني أن أهدم الجدار؟ ألا ترى أنّه يَسْند العريشة؟!
– شيبة النحس! العريشة أغلى من الأولاد؟!

10

والآن، ها هو مسافر، وسوف يترك خلفه القرميد، الذي تحوّل إلى ما يشبه عشّ النحلة، بفضل غارة جويّة، قام بها الطيران الإسرائيلي، استحكمت بالمنزل ولم توفّر أشجار الحديقة. لكن الله لطف، وأنقذت العائلة.

والله، سبحانه وتعالى، لم يرد، له الرحيل الباكر، فأنقذه من شظية كادت تمسح جبينه.

والآن، يسافر، ويترك هذا الجدار الموشك على الانهيار. فكَّر مليًّا، ووصل إلى حلّ:

لن يتحرّك من هنا قبل أن يتعاون مع شباب الحيّ، على هدم الجدار... ولو غصبًا عن أمّ سعيد! سوف يحمِّسهم ليهاجموا الجدار بالمهدّات، والمعاول في ليلة بلا ضوء قمر... ولتخضع أمّ سعيد للأمر الواقع، ورأي الأكثرية.

قبل أن ينتهي من قراره، كان صوت أمّ نبيل يزغرد في أذنيه:
– قهوتك حاضرة.

ردَّدَ هامسًا:
– هاتيها وتعالي نشربها معًا.

في أقلّ من رمشة عين، كانت إلى جانبه، تحمل صينيّة النحاس الحلبيّة، وفوقها الركوة و«فناجين الشفة» ومن حولها يعبق أريج القهوة المطيّبة بحبّ الهال.

– أراك ساهيًا يا رجل؟ شو القصّة؟

بادرته زوجته بالسؤال. وفوجئتْ لجرأتها!

هي، عادة، تنتظر أسئلته، فتردّ عليها. طلباته، فتلبّيها. حركاته، فترافقها. أمّا أن تتجرّأ وتخترق الحصارة، بسؤال، فهذا قلّما حصل... خصوصًا إذا كان شاردًا كما يبدو لها الآن.

رفع عينيه إلى وجهها، وراح يتأمّلها، وكأنّه يبصرها للمرّة الأولى. ولمس في وجهها الرضى والطمأنينة، وفي عينيها الطيبة والمحبّة، وقرأ في أعماقها

انتظارًا لجوابه: – كنت أفكّر يا أمّ نبيل... فقط أفكّر!

أجابته:

– طبعًا، كنت تفكّر في السفرة. أنا من حين وصلت الرسالة، ما عادت عيني ذاقت النوم.

– مشتاقة للشباب... هذا حقّك، يا مَرَا!

فردّت والحنين يعصر قلبها:

– للشباب والصبايا... يا حبّات قلبي؛ قولك بعيش حتّى تبصرهم عيني؟

– بتعيشي. الله كريم... الله سبحانه وتعالى.

11

وكرم الله تدفّق على رضوان عبر رسالة البنين، لكنّه شعر بأنّ هناك حلقة مفقودة في مكان ما...

راح يسائل نفسه ما عساها تكون تلك الحلقة؟ ثمّ لم يلبث أن وجدها: إنّها إحساس داخلي تملَّكه منذ رحل الأبناء؛ يشعر بأنّه مقطوع، هنا، مع زوجته في أرذل أيّام العمر.

والشباب حملوا النشاط، عصب الحياة؛ وأمل التجدّد، وهاجروا.

لو كان واحد منهم حاضرًا... واحد فقط لحمل عنه عناء الإعداد للرحلة. وهو، لا يعرف من أين يبدأ!

12

كان يهرب من المنزل، كلّما حزم واحد من الشباب، أمره على السفر. كان يهرب إلى الحقل، إلى بساتين الزيتون، وكروم العنب! يتذرّع بألف حجّة، حتّى لا يبقى في البيت، ويشهد الإعداد للرحيل.

ولهذا بقي جاهلًا تلك الخطوات التي يخطوها المرء في مسار الرحيل.

ويذكر، فيما يذكر، ليلة غادرهم كبير أولاده، نبيل.

رافقته أمّه إلى بيروت، وبقي أبوه في الدار!

«ماذا تسمّي الدافع الذي سمّرك مكانك، سوى الجبن؟ اعترف، يا رجل، وتلذّذ بتعذيب نفسك... جبان!»

قال يومها لأمّ نبيل:

– أنت متعلّمة، تعرفين كيف تدبّرين أمورك في المدينة؛ وأنا يضايقني السفر... تضايقني بيروت. لا أعرف كيف أتحرّك في شوارعها المزدحمة بالناس، والعربات.

لا تزال بيروت تضايقه حتى الساعة!

وتعود به الذاكرة إلى تلك الليلة الأولى، حين انسلخ بكر أولاده عن صدره، وانفرطتْ أولى حبّات المسبحة.

شعر، يومها، بأنّ الدار أقفرت، وحلّت الظلمة فوق دروب القرية وساحاتها، وهدأت الحركة، حتّى الرياح استكانت، ولجأت إلى سراديب خفيّة.

وهو، لجأ إلى فراشه باكرًا، حزين القلب، محطّم الأضلاع.

حاول أن ينام، بعدما أحرق عشرين سيجارة لفّ...

ولكن، أنّى له أن ينام!

الوسادة شوك يخزه.

والفراش لوح ثلج.

والقلب يخفق خفقات يعجز عن وصفها.

لكن النوم غلبه في الهزيع الأخير من ليلته تلك.

لم يكن نومًا بل نوعًا من الخدر الأسود، الذي يطرح المرء في غيبوبة، ويغرقه في بحر من الكوابيس. غاب عن الوعي.

هذا أصحّ وصف لما حصل له! وحين صحا في الصباح، كانت الوسادة مبلّلة بالماء.

وسادته شربت، طوال الليل، من دموع عينيه، في غفلة عنه، وعن وعيه.

بكى، في اللاوعي، وسالت الدموع أقنية.

نهض، وسار بخطًى متثاقلة؛ فحمل الوسادة بين يديه، ولقحها في الشمس، ثم ارتدى ثيابه، وخرج إلى الحقل...

13

وها أمّ نبيل مشتاقة إلى السفر، وهو يقتله حنينه إلى كلّ لمحة من وجوههم الحبيبة... ولكنّه لن يبكي.

يواجه الواقع بقوّة، بكلّ ما في نفسه من عنفوان ورجولة.

لن يجبن أو يتخلّف، فالعمر يلوي، والشمس تميل إلى الغروب. وإذا لم يقبض على هذه الفرصة، فقد لا يعوّضه عمره من فقدها.

قطع عليه تداعي أفكاره صوت زوجته من داخل البيت:

– سمعت أنّ «سمعان الأبرص» مسافر إلى كندا. اذهب واسأله لعلَّنا نسافر برفقته.

فكرة عظيمة!

أمّ نبيل تأتيه بأفكار عمليّة تريحه.

كيف لم يخطر في باله أنّ الأستاذ سمعان مسافر، وفي الاتّجاه نفسه؟ أخبره بذلك المختار حين ذهب إليه يطلب شهادة إقامة.

والأستاذ سمعان يقيم في بيروت: يعرف مداخل المدينة ومخارجها، وأهمّ من هذا كلّه، يعرف كيف يحكي مع القنصل.

أجاب زوجته بحماسة:

– اقتراح عظيم يا أمّ نبيل! سمعان شاطر وابن حلال... سأقصده لنتحدّث في الأمر.

14

هرول بين الأزقّة، يطأ الأرض، ولا يريد أن يطأها، خشية أن يؤذي حبّات التراب.

كان يمشي فوق هذه الدروب، فلا يكترث، ولا يخالجه هذا الشعور المتأجّج في أحشائه، حتّى يكاد يذيبه.

فجأة، أحسّ بأنّ هناك أمواجًا من الحنان الغريب، تتدفّق من صدره، وتعبر عينيه، فتسيل دموعه! يشعر بأنّه متعلّق بكلّ ما يرى وما يسمع: الشجرة المتحوِّلة من نضارة الصيف، إلى صفرة الخريف... حجارة المساكن الرمادية، والتي يكاد يعرف عددها... وجوه الأطفال، السارحين بين المنعطفات والأزقّة... حتّى ذرّات الغبار المتطايرة حوله، لتحطّ على صفحة حذائه، تبدو له عزيزة، مثل حبّات التبر!

رفع عينيه إلى فوق، إلى الفضاء الموشّح ببواكير غيوم نقيّة البياض؛ وظلّ نظره معلّقًا هناك، برهة من الزمن. بقي معلّقًا بطرف غمامة تجدّ في سعيها نحو الشمال.

هذه المناظر المألوفة؛ وتلك الدروب المغروسة في صدره، المرسومة في شبكتَي عينيه، وشغاف قلبه، يسعى الآن إلى مغادرتها.

وها هو ذاهب، يبحث عن رفيق لدربه.

ذاهب، بكامل إرادته ووعيه.

هو مسافر!

صرخ في وجه أفكاره:

– لكنّني سأعود. ذاهب لفترة قصيرة جدًّا وأعود... ولا ضرورة لهذا الحزن كلّه... لا حاجة إلى هذا الارتباك والقلق.

قال الكلمة الأخيرة، ويده تدقّ باب سمعان...

والأستاذ سمعان رحّب به، وعاد ليشرب معه فنجانًا من القهوة.

– سمعنا أنّك مسافر يا أستاذ؟

– أجل، عمّ رضوان... حين تصل الأوراق، نذهب معًا إلى بيروت.

كلمات بسيطة، رفعت الحِمل الثقيل عن منكبَيه، وشرعت أمامه بوّابة الأمل:

– الله يديمك، يا ابني. الله يديم الشباب!

15

انقضى أسبوع، ورسالة القنصل تنتقل فوق كفَّي رضوان؛ يقلبها، يطويها، يناولها إلى زوجته، ثمّ يسترجعها منها، وهو يتذكّر ما ترجمه له سمعان: – أحضر حالًا إلى دائرة القنصل الكندي في بيروت. الموعد الساعة الحادية عشرة من اليوم الثاني من أيلول.

وشاء الحظّ أن يكون موعد سمعان في النهار ذاته.

– تيسَّرت الأمور يا أمّ نبيل!

قالها بنغمة راقصة...

– تيسَّرت... والقنصل يكلّفني لأنوب عنك في الحضور.

16

وها قد نجح في المهمّة، وخرج يحمل جوازَيْ سفر مزوّدين بالتأشيرة! سار إلى جانب سمعان، كتفه على كتفه، خشية أن يفقده إن هو ابتعد عنه خطوة،

فيضيع في تموّج الجماهير، وفي هذا اللغط الغريب على أذنيه! ويضيع في خليط من أزياء يرتديها الرجال والنساء، فيبدون فيها أشبه بالمهرّجين.

ضحك في ضميره، وبقيت الدهشة مرسومة فوق جبينه، وفي رفيف أهدابه.

ثمّ توارت الضحكة، وحلّ مكانها القلق حين وصلا إلى حاجز يقف عنده شباب مسلّحون.

– يا سمعان!

انطلق نداؤه عفويًّا، ووضع كفَّه فوق كتف رفيقه.

أدرك سمعان ما يدور في خلد رضوان فطمأنه بصوت منخفض:

– لا تخف عم أبو نبيل... الشباب هنا للحراسة.

قال رضوان:

– يا عمّي، أنا لا يخيفني السلاح. خوفي من نظرات عيونهم. بعلمي قالوا: «جوْلتيْن، وانتهت الحرب»! تبقى بيروت بلد المفاجآت!

17

كانا يقصدان شركة الطيران، كي يحجزا للسفر. وكان على رضوان أن يتبع رفيقه، بصمت واستسلام.

لا بدّ له من هذا الحجز، السفر بات أكيدًا. اقتربت الفأس من أصل الشجرة، والشجرة لا تقوى على الهرب.

ثمّ قلب صفحة أفكاره إلى الوجه المضيء، فأبصر وجوه أولاده وأحفاده تطلّ عليه من خلف سني الهجر، والاغتراب، ومن الصور الملوّنة، والمأخوذة في مختلف الأحجام.

18

مكتب الطيران يزدحم بالناس. كلّهم يريد السفر.

يقفون في الصفّ، معظمهم من الشباب. يحملون أوراقهم وينتظرون. بحثتْ عينا رضوان عن رأس أشيب، مثل رأسه: فارتدّتا خائبتين. المهاجرون شباب.

شعر فجأة بأنّ ما كان يسمعه من الراديو، ومن القادمين من بيروت يتحقّق أمام عينيه: في بيروت بداية حرب. انتهت الجولة الثانية أو الثالثة، لا فرق.

الشباب لا يهاجرون هربًا من السلام والاستقرار!

ولا يبدو أنّهم مسافرون للزيارة.

قرأ الحرب في وجوههم القلقة، في عيونهم الزائغة... وشعر بأنّه اشتاق فجأة إلى أولاده، وأنّه لم يعد يطيق البعد عنهم. فليسرعوا بحجز مكان له، كي يسافر. فليسرعوا!!.

طال وقوفه في صفّ الانتظار؛ كان سمعان أمامه، مثل درع، يصدّ عنه هجمات القلق. وسمعان قام عنه بكلّ ما يلزم.

حجز مقاعد لثلاثة ركّاب على الطائرة التي تغادر بيروت بعد أسبوع من تاريخه.

19

– الحمد لله يا مَرَا رجعنا بالسلامة.

بادرها بالسلام، وهو يترجّل من سيارة التاكسي!

كانت تنتظره على الباب الخارجي، المحاذي للطريق، حاملة في عينيها كلّ الأسئلة القلقة.

– كلّ شيء جاهز... حضّري حالك... السفر بعد أسبوع!

السفر دائمًا مفاجأة! ومع أنّها كانت تتوق منه أخبارًا كهذه، إلّا أنّها لم تستطع أن تتعوّد الفكرة، وأخذت تتمتم وكأنّها في غيبوبة:

– بعد أسبوع؟ بعد أسبوع!

ثمّ قفزت بخفّة صبيّة في العشرين وهي ترندح:

– يا حبّات قلبي، انتظروني.

20

اختاروا له السفر بالطائرة.

وهو، كان يفضّل البحر.

لا لأنّه جرّب السفر في البحر من قبل، إنّما لأجل الفكرة. من قديم الزمان وهم يسافرون في البحر.

إخوته، سافروا قبل الحرب العالمية الأولى: يوسف، سعد، وعدلا.

سافروا، وكان له من العمر ثماني سنوات. لا يذكر وجوههم أمّا أسماءهم فيحفظها من بقايا حكايات متناثرة ردّدَتها له أمّه قبل أن تفارق هذا العالم.

كانوا في مطلع الشباب.

الدنيا قلّة وقهر، والأرض تُنبت القندول والقبّار.

ورحلوا.

خلال الحرب العالميّة توفّي الوالدان، وهم لم يعودوا يذكرون البلاد ولا الأخوة والأحباب.

ابنه نبيل سافر في البحر، ثمّ حسّان.

ولمّا جاء دور جميل، أصبح السفر بالطائرة أسهل.

وتبقى للبحر هيبته في الذاكرة:

«يا بحر هَدّي الموجْ، فيك حبابنا».

كسرة ميجنا تردّدها أمّهات «جورة السنديان» من صميم الأعماق؛ وكأنّما الأحباب أبدًا يتجوّلون فوق أمواج البحر. وكأنّهم مسافرون أبدًا، ولا يحطّون فوق أرض: «يا بحر هَدّي الموجْ، فيك حبابنا».

21

الطائرة تتهادى وكأنّها سفينة عائمة في بحر الوجود.

مقعده قرب النافذة، والنافذة تصله بالكون... بأرقى ما تراه العين من هذا الكون الرحب.

ارتعش قلبه لدى تفكيره في أنّه معلّق بين الأرض والسماء... ماذا لو طرأ عطل على أحد المحرّكات؟

مسح الفكرة من خاطره واستدعى إيمانه:

اتّكالي عليك، يا مدبّر الأكوان. ثمّ أدار وجهه يتفقّد رفيقته فألفاها نائمة.

طيبة أمّ نبيل!

يصل القلق إلى أطراف جفنيها، ويرتدّ أمام ما يجول في عينيها من إيمان وطمأنينة وهدوء.

تنام في الطائرة!

وهو عينه أبدًا ساهرة!

ويعود يستعرض شريط الصور المختزنة في الذاكرة؛ يتلذّذ باستعادة كلّ ما مرّ معه منذ استيقظ في الصباح.

22

احتشدوا لوداعه.

كان هو المهاجر هذه المرّة.

أصدقاء العمر.

النساء والرجال.

الكهول والأطفال...

قصدوا داره مع الفجر. بعضهم حمّله الشوق والسلامات، وآخرون أحضروا صُررًا تختلف أحجامها ومحتوياتها: الصعتر المدقوق مع السمسم والسمّاق، الصنوبر، الزبيب، التين المجفّف، الكشك...

لم يرفض طلبًا لواحد منهم. امتلأت الحقائب حتّى كادت تنفجر، ولم يردّ طلباتهم.

هو يعرف ماذا تعني حفنة صعتر مقطوفة من براري «الجورة» دقَّتها زنود المحبّة، وغرست فيها الأمّهات نور العين وحبّات القلب.

يعرف ماذا تحمل نكهة الصنوبر، المتمرّد فوق التلال الشرقية، إلى الغيّاب في تلك البلاد المجهولة.

والتين... وحبّات الزبيب المحتفظة بنكهة الصيف وشمسه السخيّة.

وكان قد انتهى من توضيب الحقائب ووداع الجيران والأقارب، حين أبصر «روزينا المجنونة» تقف في الباب، وفي يدها صرّة.

منظر «روزينا» كان يضحكه، ويُسَلِّيه.

لكم تعمّد مداعبتها ليسمع منها الكلام اللامعقول، وأحيانًا، الشتائم تنصبّ فوق رأسه، ورؤوس الذين يزيدون العيار على المرأة، ويخرجونها عن صمتها، ليدخلوا معها في حوار طريف.

لكنّه الآن لا يبتسم، ولا يشعر بأيّة رغبة في مداعبة «روزينا».

حاول أن يخمّن ما الذي وضعته المرأة داخل الصرَّة، ولمن ترسل هديّتها، وهي التي لا قريب لها تذكره بهدية، بل تعيش متوحّدة متوحّشة في كوخ يشبه

الصومعة، معتزلة العالم وسكّانه؛ وإذا خرجت إليه، فلكي تخضّ هدوءه، وتبذر فيه بذور القلق والغرابة.

– شو حاملة يا روزينا؟

سألها بكلّ جدّية، ثمّ أردف:

– صعتر أم يانسون؟

لم تردّ عليه المرأة. خطتْ في اتّجاهه خطوتين، ثمّ جمعت راحتيها، حول الصرَّة وهي تقدّمها إليها:

– حفنة تراب؛ لملمتها من «كرم المطلّ». خذها للشباب يا أبو نبيل. قلت: الشباب بيكونوا اشتاقوا لرائحة تراب «الجورة».

23

مجنونة هذه المرأة! حقًّا إنّها مجنونة!

تلفَّتَ حوله، ليُشْهِد أحدهم على غرابة الحديث، لكنّ مودّعيه كانوا مشغولين مع أمّ نبيل، في غرفة الضيوف. وهو وحده مع الحقائب في هذا الركن.

هل قدّرت «روزينا» أنه وحده، فاختارت المكان والزمان لتحاصره هكذا! أم هي مصادفة؟ مجرّد مصادفة...

ولكن قلبه راح يدقّ نغمًا مختلفًا عن أنغام الفكر.

أحسّه يكاد ينعصر، وكأنَّ كلام روزينا رؤوس حراب اخترقت ضلوعه، وأصابت منه أرقّ الحواشي.

حفنة تراب!

يحملها من «جورة السنديان» إلى «شارلتون»؟ يقدّمها هديّة إلى أولاده؟

ماذا يكون ردّ فعلهم؟

ماذا تراهم يقولون؟

رفع عينيه إلى المرأة، فأبصرها ثابتة في مكانها، تنتظره ليفتح الحقيبة، ويضمّ هديّتها إلى بقيّة الهدايا المحتشدة في الداخل.

وهذا ما فعله. كأنّها سلّطت عليه سحرًا أخرجه من ذاته وعطّل المنطق، واشتعل فتيل العاطفة وحدها. أيّ سلطة لهذه المرأة؟

كان يحسبها مجنونة! وأهالي القرية صنّفوها من زمان، في خانة الخارجين، على كلّ عقل ومنطق.

حاول أن ينقذ نفسه بكلمات ملأ بها الجوّ الثقيل، المتجمّد بينه وبين عينيها:

– هديّتك أغلى هديّة، يا روزينا. عسى نرجع بالسلامة، وأحمل إليك هديّة حرزانة، من الشباب!

– كلّ ما أتمنّاه، هو سلامتكم، يا أبو نبيل.

قالت كلمتها وأدارت ظهرها، وكأنّها أتمّت مهمّتها.

لم تتوقّف لتودّع أمّ نبيل، ولم تأبه لثرثرة الأولاد الواقفين في صحن الدار، الشهود الدائمين على كلّ حدث يعبر حياة القرية.

أدارت ظهرها، وانطلقت مسرعة، مثلها دائمًا، لا تلتفت يمينًا أو شمالًا. وظلّ هو يلاحقها بنظره، حتى غيّبها المنعطف الملتوي باتجاه كوخها.

أقفل الحقيبة، ووقف لحظات، يتأمل، ويفكر. وتوصّل إلى قرار بينه وبين ذاته:

– لن أخبر أحدًا، حتى ولا أم نبيل، بما حملتْ روزينا إليّ.

أحسّ، في قرارة نفسه، حيث يتلاشى كل زيف، أن ما فعلته المرأة، يدلّ على حكمة تفوق حكمة العقلاء.

حفنة تراب!

كم تحتوي من رموز، حفنة تراب روزيتا!

24

زمّور السيّارة أعاد أبو نبيل إلى الواقع. انطلق نداؤه من السيّارة الرابضة على باب الدار، وكأنّه ستار ينزل بين فصلين من مسرحيّة.

وعادت الحركة التي هدأت قبل دقائق.

المودّعون انتشروا بين الباب وسياج الحديقة، وتحلّقت جماعة منهم حول السيّارة.

الأولاد هجموا ينقلون الحقائب والأمتعة. وأمّ نبيل تنتقل من كتف جارة إلى كتف صديقة، مودّعة؛ تلملم دموعها، وتتمتم كلمات تقليدية لا واعية.

وبقي هو محافظًا على قوّة أعصابه، يبتسم، حتّى لا يبكي. يتشاغل بأمور جانبية، تلهيه عن المشهد الدراماتيكي. وظلّ كذلك، حتّى أخذ مكانه في صدر السيارة، بجانب أم نبيل؛ وجلس سمعان قرب السائق.

– مع ألف سلامة يا جيران!

صوت أمّ سعيد، يعلو فوق كلّ صوت؛ يقول، بلسان الجميع، أدعية تقليدية، طالما تردّدت في هذه الساحة.

– مع ألف سلامة!

أصداء الصوت تترجّع في أذنيه، والدنيا أصبحت غيمة... نزل الضباب ستارًا يحجب نظره عن كلّ ما في الخارج، وهطلت الدموع.

مسحها خلسة وهو يبتلع غصّة صدمت بلعومه... ولكي يتخلص منها، راح يُذَكّر نفسه بما ينتظره على الوجه الآخر من الكرة الأرضية، ويستدعي إليه الوجوه الحبيبة المغروسة هناك.

25

السيّارة تلتهم الدروب، وعيناه تقفزان في كلّ اتّجاه، تحاولان اختزان صورة من كلّ كرم، وجلّ وحِمى. والصور المتدفّقة أمام عينيه ملوّنة، موشّاة بشعاعات حيية من شمس أيلول الصباحية.

مرّت دقائق، اجتازت خلالها السيّارة خراج «جورة السنديان» ودخلت حدود القرى المجاورة؛ ثمّ أطلّت عليه بيوت «حاصبيا» البلدة العريقة؛ ذات المباني الأعتق من الذاكرة. بيوتها المطمئنّة، سطوح القرميد الأحمر، المرتاحة فوق الأرض، وكأنّها مقيمة هناك إلى الأبد.

كم له في هذه البلدة من أصدقاء، لم يتّسع وقته ليمرّ بهم ويودّعهم.

قال لرفّ حمام يحلّق فوق المساكن:

– نلتقي حين أعود... إن شاء الله.

وحين اخترقت السيّارة سوق حاصبيا، رفع يديه الاثنتين، مسلّمًا على كلّ وجه ألفه، محيّيًا كلّ عين ترمقه بتساؤل أخرس:

– إلى أين؟

– إلى كندا. نعم. أنا مسافر إلى كندا.

ودّ لو يمدّ رأسه من السيّارة، وينشر الخبر، ليعرف الجميع:

– أنا مسافر إلى «شارلتون»... زيارة قصيرة للشباب، ثمّ أعود. مع أمّ نبيل، رفيقة العمر، أعود.

ردّد العبارة ذاتها، حين مرّت السيارة بمجموعة من الشباب المتمركزين بأسلحتهم عند مفرق الحاصباني.

ابتسم الشباب، مدركين الموقف، وقالوا بصوت واحد:
«خَطْره... وسلامة!»

26

يتابع وعيه شريط الصور:
نهر الحاصباني، وشلالّه الفضّي، يتوارى عن عينيه في لحظة!
كم كانت له جلسات، هنا فوق المصاطب العائمة على الماء!
كم ليلة أنس، وجلسة سمر طوتها الذاكرة في سجلّات الماضي!
عصر قلبه الألم، وهو يبصر المتنزّه خاليًا، والمصاطب مهدّمة. لقد تعرّضت منابع الخير، وبساتين الرمّان والزيتون والتفّاح والسفرجل، لكلّ ألوان القصف والدمار.
في آخر غارة شنّتها الطائرات الإسرائيلية، استخدمت قنابل محرقة، يسمّونها «نابالم»! وبعدها القنابل «العنقودية»...
يا خجل عناقيد العنب من التسمية! قنبلة نابالم، أحرقت بستان أخيه الأصغر، نعمان؛ وخسر، إلى جانب محصول البستان، مزرعة البقر والغنم؛ ولولا عناية الله، لخسر حياته، إذ وصل الحريق إلى قميصه وطرف سرواله.
والقنابل العناقيد، كم راح ضحيتّها من أطفال!
كم أخرست من أناشيد كان يطلقها الرعاة، ونایاتهم بين البساتين والتلال!..
كان ذلك أيّام العزّ وهدوء البال!
وهو، تطير به السيّارة، وتبعده عن هذه المطارح الغالية، المقيمة في شغاف قلبه.

27

ويعود يعزّي نفسه، بأنّ غيبته لن تطول؛ وسفر شخص واحد لن يقدّم أو يؤخّر.
ثمّ يرتدّ على أفكاره:
– أجل. غياب شخص يقدّم ويؤخّر... وغياب الشخص، قد يجرّ سواه. وهذا ما حصل لأبنائه. في البدء سافر نبيل، وقال هو: أعتاض ببقاء الآخرين. ثمّ راح نبيل. يدعوهم الواحد بعد الآخر، وهم يلبّون الدعوة غصبًا عنه، وغصبًا عن إرادتهم.

كان هناك شبح غير منظور يتهدّدهم، ويتهدّد مستقبلهم، ويُغْريهم بأنّ الغربة للرجال، والمغامرة يمكن أن تُصلح الأحوال. يغيبون بضع سنوات، يعودون بعدها، ليُصلحوا الأراضي ويجدّدوا البيوت.

بضع سنوات!

وها الرقم أصبح عشرين سنة!

والعمر يمرّ... العمر يمرّ...

والبيوت لا تزال على حالها، بل إنّ عدد الخرب يزداد سنة بعد سنة، وترتفع نسبة الأراضي البائرة.

والشباب يتابعون خطّ الهجرة.

إنّها مأساة!

وهو يدرك معناه. هو، وأمّ نبيل، وأمّ سعيد وجميع الجيران والأصحاب، الذين هجموا يودّعونه في الصباح.

حتّى روزينا تغلغلت، في عزلتها، إلى أعماق المشكلة، ومدّت يدها إلى الأرض، تلملم منها حفنة تراب، تبعثها هدية إلى الشباب، وكأنها الاستغاثة الأخيرة لأرض تحترق.

28

هل تحترق أرضنا فعلًا؟

ماذا جرى للوطن؟

عاد يطرح الأسئلة على نفسه، حالما ترجّل من السيّارة، وسار برفقة سمعان وأمّ نبيل، بين الحشود المتراصّة فوق أرض المطار.

مطار بيروت الدولي!

الشبكة التي تصل وطنه بالعالم.

المطار الدائم الحركة.

منه يسافر الناس إلى أقصى حدود الكون...

ومن بوّابته، غادر ثلاثة من الأبناء. والآن، ها هي أرض المطار تغصّ بزحمة الشباب.

شعر بأنّ هؤلاء الفتيان، يشبهون الفتيان الذين وقفوا أمامه، وخلفه في الصفّ، داخل القنصلية الكندية، بل إنّ وجه الواحد يتكرّر في عشرات، بل

مئات الوجوه.

إنّهم يتساوون في الطول، واللون، والقلق القافز من العيون.

– شو قولك، يا سمعان؟ كلّ هالناس مسافرين؟

لم يقوَ على أن يلجم السؤال.

وسمعان المقيم في بيروت، قد يكون عنده الجواب المطمئن.. أجابه:

– نعم. معظمهم عمّ رضوان. الذين داخل البوّابة مسافرون. والواقفون خارجها، قدموا للوداع.

– يا بارك الله! يا بارك الله!

كان يودّ أن يطرح على سمعان، سؤالًا آخر، يخفّف من قلق مفاجئ اعتراه وسرى في عروقه، ناشرًا قشعريرة باردة:

– هل هذه ظاهرة جديدة، أم أنّ الحالة هكذا دائمًا؟

وكأنّما سمعان قرأ فكره، أو أنّه أحسّ بالغريزة أنّ جوابه ظلّ ناقصًا فتابع:

– الحالة غير مرضية، عمّ رضوان... انتهت «جولتان» من الحرب، لكن هناك تكهّنات...

– وماذا تقول التكهّنات؟ ماذا يقول الناس في بيروت؟

– معظم الأحاديث تدور على الحرب المقبلة. الناس متشائمون، والقادر على السفر لا يتأخّر.

29

وهو قادر على السفر. لكنّه لم يختَر الرحلة، ولا الوقت. هكذا شاء الشباب. هذه إرادتهم.

مرّ بمكتب الطيران، وبرجال الأمن، وانتهى في قاعة المسافرين.

وهناك، لم يصدّق ما أبصرت عيناه: الناس يفترشون الأرض، ينامون فوق الحقائب والأكياس والحرامات.

التفت حوله، يبحث عن مقعد ترتاح عليه أمّ نبيل، ولكن أين يجد ذلك المقعد؟ أين يجد المرء مسندًا لرأسه؟

إنه أشبه بيوم الحشر! المشهد أثار دموعه.

في حياته كلّها، لم يبصر الناس مستسلمين إلى هذا الحدّ، وكأنّهم يطرحون حملهم كلّه، على القدر.

وقدره هو، طائرة، تقلع بعد دقائق، تنقذه من هول ما يرى.

وما الذي يراه؟

لو كان يجيد القراءة، لربّما قرأ الصحف، وفهم منها أكثر!

لو كان يجيد القراءة، لما اكتفى بثرثرة الراديو، ولا ضايق سمعان بطرح الأسئلة. لو...

كلمة «لو» جاءت متأخّرة. صوت المذيع يعلو فوق كلّ ضجّة، يعلن عن إقلاع طائرته إلى لندن.

30

– كم تبدّل الكون، يا سمعان؟

قالها رضوان من فوق رأس زوجته.

كان سمعان قد انتهى من قراءة الصحيفة، ووضعها في جيب المقعد أمامه، وراح يستعد للغداء. وطلب من رضوان أن يفتح الطاولة الصغيرة أمامه، وهذا ما فعلته أمّ نبيل، وتابع: – إنه وقت الغداء.

– كم تبدّل الكون، يا سمعان!

لم يقدر رضوان أن يخفي دهشته ممّا يرى ويسمع. بل إنّ علائم الدهشة ظلّت مرسومة فوق جبينه، وفي عينيه، منذ تسلّق سّلم الطائرة وربط الحزام، كما أمروه، واستسلم للربّان وحكم القدر.

وها أنّهم يحضرون له الغداء!

حدث سوف يخبر عنه الجيران. في «جورة السنديان» لو كُتِبَ له أن يَعُود بالسلامة.

يقول لهم كلّ ما يجول في خاطره الآن:

– يا عمّي، نعيش في عالم عجيب غريب! متى كان الإنسان يحلم بأن يطير، ويسبق نسور الفضاء؟ ولا يطير مثل طيور الفضاء فحسب، بل يجلس إبّان الطيران، مرتاحًا، وتقوم بخدمته فتيات حسناوات، لطيفات، يأمرهنّ فيلبّين الأوامر!

ماذا يخطر في باله كي يطلب الآن؟

لا شيء!

فارقته الشهوات، وفارقته الرغبة في طلب أي حاجة.

كان مكتفيًا بأن يجلس هكذا، مرتاحًا في مقعده، معلّقًا بين الأرض والسماء، يطلق بصره من النافذة، فيحسّ أنّه يلامس الأكوان برؤوس أصابعه. ثمّ، علاوة على هذا كلّه، يأتونه بغداء لذيذ، تسبقه صينية مشروبات! أيّ عالم عجيب هو عالم اليوم!..

ما الذي ينتظره من غرائب الأمور؟

تناول الصينية من يد المضيفة، وثبّتها على الطاولة أمامه وطلب من أمّ نبيل أن تقتدي به، ثم غرقا في الصمت وكأنّهما يمارسان طقسًا من طقوس العبادة.

31

هكذا بدا المظهر من الخارج.

أمّا في الداخل، فدنياه قائمة قاعدة، وكأنّما في صدره مرجل يغلي ويفور.

وهو يشعر بالنشوة حينًا، وبالدهشة في معظم الأحيان.

عاد طفلًا يدخل دنيا الكبار، يواجه عالمًا انفتح أمامه، تلقائيًّا، ودعاه، إلى الفرجة.

في حياته الممتدّة على مساحة سبعين عامًا، لم يبصر من الوجود، سوى تلك الرقعة الضيّقة «جورة السنديان» خراجها، والقرى المحيطة بها. أبعد رحلة قام بها إلى بيروت؛ وكان الخوف يلازمه كظلّه كلّما حملته رحلة قسرية إلى المدينة العجيبة، التي تضايقه بصخبها، وعجقتها، وسرعة الحركة في شوارعها، ثمّ لغة أهلها.

ولم يسمح مرّة لخياله، بأن يرحل أبعد من الأرض. أن يقفز مثلًا، إلى تلك الأعالي من القبّة الزرقاء، حيث تجتاز الفضاء وتشقّ سكينته، مجنّحة عالية، تلمع مثل نجمة لا «تُطال»، ويصله منها ذلك الصدى الغامض.

«الجورة» ليست على خطّ الطائرات؛ وظلّت الطائرة لغزًا مبهمًا لا يجوز على رصفه، في جملة ما يحتشد في باله من صور وما تحجز الذاكرة من أحداث.

وفجأة تحوّل كل شيء، وانتهى الحوار الصامت، بينه وبين الحمامة الوديعة.

ذات يوم...

32

يذكره الآن.

يذكره جيدًا.

كان يومًا عاديًّا، من أيّام أيلول.

وكان قد أعدّ نفسه لرحلة صيد...

واحدة من رحلاته الكثيرة التي يغزو بها سفوح جبل الشيخ.

حشد حوله رفاق الرحلة: كلبته السلوقية «ستيلا»، «السرْكَّة»، أنثى الحجل الخداعة، المسجونة في قفصها؛ يحملها معه، لتُغري الذّكور بصوتها السائل رقّة وحنانًا... ثمّ «الجِفْت»، رفيق الدروب الموحشة.

كلّ شيء كان مثلما عهده منذ نصف قرن: الدرب الوعرة، المتعرّجة، يسلكها مع حماره الأغبر؛ وهذه أيضًا لم تتبدّل. تُصعِّد بين شِعاب ضيّقة، خطّطتها الحمير منذ اقتناها البشر.

والأغبر ينقل فوق ظهره الخرج المنتفخ بحمل السلال الفارغة. كَرْم «العَقبة» مُثقل بالجني هذا الموسم. طمأن أمّ نبيل بأنّه لن يلبث أن يعود محمَّلًا بخيرات الكروم.

وهناك، عند سفح، من سفوح جبل الشيخ، حيث تمدّ أناملك فتلامس الغمام، راح رضوان يبني «اليَقْلوم» متراسه وقلعة النضال.

وفي زاوية تحيط بها الصخور النخرة، وتنفتح بين الصخرة والصخرة عيون الرصد، أخذ يشقع أغصان البطم والشيح، ويعرّش فوقها قضبان الكرمة.

من هذا «اليَقْلوم» يواجه الحجال، وهي تتسابق للوصول إلى «السرْكَّة» المسجونة في قفصها، تُناجي فرسان الأحلام المجهولين، تُغني الوحشة، والوحدة، والضياع، وتمتدّ أنغامها دروبًا تُضلّل الذكور المساكين.

ضحك في سرّه، حين خطرت «السركة» وحيلتها في باله، ولم تَفُتْه المقارنة بينها، وبين بنات جنسها من النساء؛ هكذا يفعلن... وكاد يلعن جنسهنّ، لو لم يتذكّر أم نبيل! هي بقربه، طوال حياتها بقربه، مثال الإخلاص والمحبّة والتضحية، لا. ذكرُها مقدّس. لا يجرؤ على أن يذكر اسمها مع الأسماء التي سمح لنفسه باستدعائها.

أمّ نبيل أميرة بين النساء.

أمّ الشباب والصبايا.
كيف يشرد الفكر.
أيّ عالم داخل الإنسان!

33

عاد يسمع قأقأة «السركَّة» ترسلها من قفصها المعلّق بغصن تينة دهريّة على كتف الكرم مقابل «اليَقْلوم» المتراس.

تكوم على ذاته، وبذل جهدًا ليُبقي رأسه في مستوى الثقب، ومنه صوّب «الجفت» وجلس ينتظر.

الهدوء ينتشر حوله. هدوء مخمليّ مبرقع بشعاع الشمس.

لا صوت يُسمع في الجوار، سوى أنغامها. راحتْ ترسلها على مداها، فتردّد صدى أنغمها الأودية، وتنطلق تموّجات النداء الولهان، فتصطدم بسمع الطيور الحرّة، المتنقلة بين الكروم وتلال الصنوبر، فإذا بطيور الحجل تأتيه من كلّ صوب. وينتظر حتّى يصبح السرب كلّه في متناول ناره، فيُصليها، ويدوّي انفجار، وكأنّه أوّل انفجار في التاريخ، يهزّ خَدَر السكينة، وتفرّ الطيور مذعورة، فيخرّ منها قليل الحظّ، وتقفز «ستيلا» بخفّة النمر، وتنقل الطرائد إليه. ويتمتع بعدّها: واحد، اثنان، ثلاثة.

أصاب ثلاثة حجال دفعة واحدة. وخرس صوت «السركَّة».

أعطاها فرصة لتُحاسب ضميرها، وتحاول إدراك ما جرى حولها، فقام يقطف العنب، ويعبئه في السلّة الأولى. ثمّ أخذ «المُعْقَيلة»، عصا الزعرور التي يُنيخ بواسطتها أغصان التين، لينتقي الثمار العسلية، ويرصفها في السلّة الثانية.

مضت بضع دقائق من الصمت والجني السريع. امتلأت السلّتان، الحجال الثلاثة أصبحت في «الجَرَبَنْديَّة» المعلَّقة في عنق شجرة التين، وهو يعود إلى «اليَقْلوم»، ويقوم بمحاولة جديدة لصيد المزيد من الحجال...

انتظر حتّى نسيت سجينةُ القفص، والغباء، والخداع، فعلتَها، وعادت ترنّم بصوت متردّد في البدء، ثمّ لم تلبث أن انطلقت على سجيّتها، وكأنّها تروي للهضاب والتلال، أعظم حكاية كانت هي بطلتها الأولى.

انتظر دقائق فلم يُطِل عليه طائر.

وبدأ يفكر في أنّ جنس الذكور متفوّق على جنس الإناث، من ناحية الذكاء والفطنة. حين تذكّر ابنته «نوال»: لقد وصلت في العلوم إلى ما لم يتوصّل إليه أخوتها الشباب، واضطرّته إلى أن يبدّل الكثير من نظريّاته السابقة في النساء. صارت نوال أستاذة جامعة، وهناك، في كندا، الله وحده يعلم، إلى أين يوصلها طموحها...

قريبًا يلتقيها، ويعرف بنفسه المدى الذي بلغته. فراق عشر سنين يُسدل غشاء على عينيه الآن، ويحول دون الرؤية النقية. يعجز عن أن يتذكّر، أو يتخيّل بصفاء، ملامح وجهها، حركاتها بسمتها وسرعة خاطرها...

تبًّا للزمن! لعنة الله على الغربة! لو نسي ماضيه كلّه، فلن ينسى كيف انتهت رحلته ذلك النهار.

ذكور الحجل تردّدت في الإقبال صوبه. لم تعد تنطلي عليها الحيلة، ليوم واحد على الأقلّ. وأنثاها تستغيث، حتّى تكاد تفجّر حنجرتها، والشمس حميتْ، وراحتْ شعاعاتها تتكسّر فوق ذريرات الهواء الجافّ، وتنفرش حرارتها على مساحة جسده؛ فيحسّ أنّه يرتدي جلده من بعض عطائها.

قام إلى «الأغبر» يجرّه، ويُحَمِّله السلّتين؛ ثمّ نادى «ستيلا» فجاءته مهرولة، تلوّح بذنبها، علامة النصر والفرح. وكان يشعر في قرارة نفسه، بمثل شعورها حين قاد «الأغبر» وبدأ طريق الانحدار.

وفجأة سمع دويًّا، خاله لأوّل وهلة رعدًا، لو لم تكن السماء، صافية، خالية من أيّ أثر للغيوم.

ارتفع الدويّ الراعد فكاد يصمّ أذنيه، ثمّ...

يا ربّ!

ماذا يرى؟!.

سرب طائرات، بحجم النسور، تعبر الجوّ كالبرق، وتنقضّ انقضاض الصواعق على «جورة السنديان» قريته الغالية!

وقف يتأمّل المشهد من تلك الشرفة، وهو لا يصدّق... أبصر ثلاث طائرات تنخفض إلى مستوى السطوح الواطئة، وأربعًا منها تشكل لها غطاء جويًّا... (هذا هو التعبير الذي سمعه في الراديو: غطاء جوّي) هكذا قصفوا نبع الحاصباني، وها هم اليوم يقصفون «الجورة». ثمّ توارى الدويّ خلف جدار

القصف العنيف. إنّهم يقصفون المنازل، بيوت التراب المسالمة، وسطوح القرميد الحمراء المرصّعة صدر القرية. يقصفون، وتنعقد سحب الدخان في الجوّ؛ وترتفع الطائرات المعتدية، فيزوغ بصره خلفها، حتّى تغيب وراء الأفق الجنوبي.

كان يسمع بعدوانهم، وهجمات الإرهاب التي يشنّونها على القرى الجنوبيّة كان يسمع فقط. مرّة واحدة، شاهد الدخان يتصاعد من وراء التلّة الجنوبية، عندما قصفوا «شْوَيَّا»، و«عين قِنْيا» وجوارهما، واليوم وصلوا إلى «الجورة». اختفت الطائرات، وظلّ دويّ الانفجارات رفيق دربه، حتّى وصل بقلبه الواجف إلى البيت.

لم يلتقِ أحدًا في الطريق.

أبصر الدخان يتصاعد من عدّة منازل، بينها دار القرميد المواجهة.

– أين أمّ نبيل؟

كان هذا أوّل سؤال خطر له. وراح يخبط على الباب. لم تكن هناك، لا هي ولا الجيران. لجأ الجميع إلى الطابق الأرضيّ من منزل جارهم «جميل الدوري»، المنزل الوحيد في الحيّ المؤلّف من طبقتين.

أنزل الحمل عن ظهر الحمار، وطرحه في أرض الليوان، ثمّ قفز إلى بيت جميل. وهناك طالعه مشهد لن ينساه عمره: أبصر أهل الحيّ متكومين في ركن مظلم: النساء والرجال، العجّز والأطفال... وقد تجمّدت وجوههم، وجحظت عيونهم، وعُقلت ألسنتهم، عدا حناجر الأطفال التي راحت تطلق صرخات مجنونة.

لم يطرح السلام عليهم كالعادة. لم يقل كلمة. مدّ يده إلى أمّ نبيل، رفعها من مكانها فوق البلاط، وقادها إلى البيت وهم يتمتم:

– الحمد لله على السلامة! الحمد لله على السلامة!

مضت ساعات قبل أن يتجرّأ الناس على أن يعودوا إلى منازلهم. ورافقت عودتهم هذه ذكرى مؤلمة، لم تعد تغيب عن الأذهان، لا في الليل ولا في النهار.

وهكذا تبدّل كلّ شيء، وفقدت الأيّام طعمها الأوّل، وانتهى الحوار الصامت بينه وبني الحمامة الوديعة، حين أبصرها تتخلّى عن وداعتها، وتتحوّل إلى صقر،

يشنُّ غارات صاعقة، فيهدم المنازل الآمنة، ويقتل السكّان المجذرين في الأرض، مثل أشجار الزيتون.

مضى عليه وقت طويل، قبل أن يقتنع بأنّه يمكنه أن يفرّق بين طائرات تنقل الناس والبضائع، وطائرات تحمل الدمار وتفتك بالبشر.

هو اقتنع. أمّا أمّ نبيل فظلّت حتّى الساعة تتكمّش بذراعه، كلّما هدر في أذنيها دويّ، وهي تردّد:

– يا رب غفرانك، يا رب رحمتك!

تخجل بأن تعرّي خوفها الآن، وهي تستريح فوق هذا المقعد الوثير، حولها الصبايا مثل حوريات الجنّة، وبقربها سمعان، يشرح لها كلّ جديد، حتى كاد يقنعها بأنّها لا تطير، بل تجلس في صالون مضافة أرضية.

34

الحورية تعود، تجمع الأطباق الفارغة، وتنشر بسمتها، فيرافقها رضوان بنظراته، وهو يشعر بأنّها تبتسم من أجله وحده، وتغلّ شعاعات البسمة إلى أعماق ذاته، تفرش الدفء والطمأنينة: – يا سبحان الخالق! شو هالجمال!

قالها لسمعان، بلا خجل. وكانت المضيفة الحسناء، قد أصبحت في الجناح الآخر، توزع الخدمات، مع البسمات، على سواه من المسافرين.

فالتفت إليه سمعان وقال:

– بعد بتشوف كثير عم بو نبيل. الرحلة بأوَّلها...

35

لكنّ رحلة الطائرة المقلعة من بيروت إلى لندن، شارفت على النهاية. أعلن ذلك الصوت الآتي من مكان خفيّ:

– سيّداتي سادتي، بعد دقائق، نهبط في مطار «هيثرو»... من فضلكم اربطوا الأحزمة، وابقوا في مقاعدكم، واطفئوا السجائر. نتمنّى لكم إقامة طيّبة في لندن!

أذناه مثل جهاز الرادار، تلتقطان كلّ إشارة، ولا تفوتهما نغمة. لذا شعر رضوان ببعض الانزعاج من العبارة الأخيرة، فطيّر سؤالًا هامسًا إلى سمعان: – هل سنبقى في لندن؟

وطمأنه سمعان ببسمة:

– عبارة تقال عمّ رضوان. بعض المسافرين تنتهي رحلتهم في لندن، والآخرون ينتقلون إلى طائرات أخرى، تحملهم إلى البلدان التي يقصدون...

ثمّ أردف:

– «الآخرون»، يعني نحن.

– طمأنتني، يا ابني... الواحد لازم «يكون حاضر ناظر»، ولا يترك كلمة تفوته، وإلّا...

– وإلّا شو؟

سألت أم نبيل، بقلق، بعدما طال صمتها وإصغاؤها.

– وإلّا... بتروح عليه! شو بتقول يا سمعان؟

قالها وأطلق ضحكة ساخرة، رقص لها شارباه، وقد عادت إليه طمأنينة النفس، حين لامست عجلات الطائرة أرض المطار، وراحت تكرج فوق المدرّج، حرّة جريئة، ذكّرته بحرّية الحجل فوق سفوح حرمون.

ولكن، هل حجل حرمون لا يزال حرًّا؟

وهل هذه الطائرة حرَّة مثلما يخالها، أم هناك قيود وحدود؟

36

يطرح المرء تساؤلاته، مع كلّ غرزة قدم تدفعه في الدروب الجديدة.

ودروب رضوان تمتدّ إلى ما لا تحدّه رؤيته. ودربه الحاضر، غير معبّد، يدخل به بين أدغال الحضارة الغربية، إلى دنيا لم يألفها، دنيا العالم الجديد.

انتقل مع زوجته إلى الطائرة الثانية التي ستعبر المحيط الأطلسي. انتقلا على كفّ سمعان، الذي يعرف كيف يقرأ الإشارات المنبئة بمواعيد إقلاع الطائرات.

لم يكن لديهم وقت ليرتاحوا، أو يتفرّجوا على معالم مطار «هيثرو».

سمعان القائد، وهما يتبعانه. يعرف كيف يخاطب المضيفات باللغة الإنكليزية!

انتقلا معه إلى شبّاك التذاكر، ليتأكّدوا من حجز مقاعدهم، ثمّ سار الثلاثة باتّجاه الطائرة، ودخلوا ثغرًا انفتح مثل شدقَي حيوان أسطوريّ منقرض، وراح

يبتلع الناس ويخيفهم... يقذفهم إلى الداخل، مع إشارة من مضيفتين وقفتا مثل ملاكين حارسين: واحدة إلى يمين المدخل، والثانية إلى يساره.

كم تخفّف بسمة ملاك، مثل هذين الملاكين، عن النفس من هموم!

تعجّب رضوان كيف تسير الأمور بسهولة. لم يخف، مثلما خاف في السفارة، ولم يستغرب، بل كان منقادًا مع القطيع المنساق إلى قدره.

ولم يُقَدّر حجم الطائرة إلّا بعدما صار في داخلها، وأخذ مقعده في صف متوسّط:

– هذه طائرة أم جبل يا سمعان؟

– طائرة، عم رضوان... طائرة «جمبو».

– شو قلت؟ جنبو؟!

– هذا اسمها، «جمبو»، تتّسع لأربعمائة راكب عدا الفراطة. ونحن في الطابق الأرضيّ منها... هناك طابق علوي.

– يا بارك الله! شو يعني، بعد في ناس فوقنا؟

– فوقنا فيه ناس كثير...

– وأنا كنت مفكّر، ما في أعلى منّا غير وجه ربّك العليّ القدير.

ثمّ التفت يطمئن أم نبيل:

– انبسطي، يا أمّ نبيل، انبسطي. مسافرة إلى كندا في بناية من طابقين. ونحن، كلّ عمرنا في الجورة، ساكنين في طابق واحد. لمين يصير هالعز؟!

ردّت أمّ نبيل بحماسة:

– الله يوفّق الذين كانوا السبب... ويتمّم الرحلة على خير.

– الله يسمع منك، يا مَرَا.

قالها رضوان، وهو يتابع بنظره تحرّكات رفيقه سمعان. رآه يثبّت الحزام حول وسطه، فدعا أمّ نبيل لتقتدي به، ثمّ ربط هو حزامه، وجلس مستبشرًا، يتأمّل الحركات المكثّفة حوله، ثمّ لم يلبث أن سمع هدير المحرّكات.

الجبل يستعدّ للإقلاع.

هذا البناء الجبار، سوف يرتفع، مع حمله الثقيل، وكأنه عصفور دوري، لا ثقل عليه سوى ريش الجناحين.

أغلقت الأبواب، وتحرك الجبل، ثم، بعد دقائق، كان الإقلاع، وسط الهدير الخارجي، وهمهمة الأصوات الخافتة في الداخل.

ومثلما يستوي النسر، حين يبلغ أقصى مداه من الأعالي، تركّزت الطائرة، وسط فضاء ضبابي، ثمّ راحت تشقّ حجب السماء، وترتفع وتخترق كثافة الأبيض، الرمادي الغامض، جبال الغيوم العملاقة.

عيناه منشغلتان بمراقبة خطّ الإقلاع الوهميّ: الطائرة تسير في خطّ معيّن، بلا شكّ، ولكن، من يستطيع أن يبصر هذا الخطّ، أو يحدّد معالمه؟

ومثلما يفكّر الطفل، أخذ رضوان يفكّر قلقًا: كيف تهتدي الطائرة إلى مسارها، ولا طريق معبّدة أمامها، ولا دليل؟!

ثمّ راح يغوص أبعد، في أعماقه، ويقلّب ثنايا الذاكرة، لعلَّه يكتشف السرّ. وترك الأصداء تطنّ من حوله، وترطن بلغات شتى. ولمّا لم يجد الجواب عاد إلى سمعان: – شغلة تحيّر الفكر.

– ما سبب الحيرة، عم رضوان؟

– السبب، يا ابني، هذه «الجنبو». كيف تعرف طريقها في الضباب؟

شجّعه سمعان ببسمة طيبة:

– الأمر يصعب على تفكيرنا، إذ نجهل أصول الطيران. أمّا الربّان والمهندس والخبراء فيجدون الأمر في غاية السهولة.

– طبعًا الأمر سهل عليهم. إنّما أريد أن أعرف: ألا يحدث أن تخرج الطائرة عن الخطّ المرسوم لها؟

– أحيانًا يحدث. لكنّ مسيرها غير مقيَّد بطريق معبّدة. كلّه يتمّ بضغط أزرار، وتحريك آلات يضبطها الربّان.

– ايه، يا سمعان! المسألة ليست سهلة، الربّان أيضًا عنده هموم.

كلامك عين الصواب، عم رضوان. همنا في عنقه، وسلامتنا في يده. لازم يكون عقله جبل، هذا الربّان.

– أنت قلت. الربّان لا يجوز أن يخطئ، وإذا جاز له الخطأ على الأرض، فلا يجوز في... السماء.

– صحيح. صحيح...

37

هزّ رضوان رأسه، مكتفيًا بهذا القدر من المعرفة، ولم يشأ أن يغوص أكثر في دهاليز الدنيا الجديدة.

لم تكن له الرغبة في مواجهة تعقيداتها، فعاد إلى عالمه الداخلي، يتكوّم في دفئه، ويحتمي فيه من صقيع الخارج، ومن هيمنة الكون الشاسع، الذي يقلّص حجم الإنسان، ويجعله يحسّ بأنّه أصغر من نملة.

قال لنفسه:

– هنا الإنسان نملة. الناس يتجمّعون، ويسيرون جماعات، كالنمال ويسرون مجهولين في دنيا تجهلهم، ولا تكترث لهم.

وفي قريته، الإنسان لا يزال كبيرًا، يحسبون له كلّ حساب. من طفولته حتّى يبلغ سنّ العجز، يبقى مكانه محفوظًا في صدور مواطنيه؛ وحتّى الموت، أحيانًا، يعجز عن ردم ذلك المكان.

والإنسان، في قريته، يعيش ضمن دائرة عالمه الصغير. معتزًّا، مكرَّمًا، محميًّا.

وهو خرج من الدائرة.

أخرجوه من الحمى، ودفعوه دفعًا إلى دائرة العالم الخارجي.

وتذكّر خروجًا مماثلًا، في مطلع حياته.

38

كان طفلًا، لم يخرج من دفء الأحضان، حين هجمت الحرب…

اليوم يسمّونها «الحرب العالميّة الأولى». أمّا يومها فكانت الحرب، أي المجاعة، والتشرّد والمرض، وهجر الحضن الدافئ.

أبوه وأمّه لم يصمدا أمام الأهوال. خرّا من الدورة الأولى.

سحقتهما الحرب، وخلّفاه مع ثلاثة من أخوته. كبيرهم لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

أمّا أخوته الثلاثة المغتربون، فظلُّوا أسماء في الذاكرة: علا، سعد، ويوسف.

يحاول أن يعيد رسم وجوههم، فيعصاه الخيال:

– ما النفع يا رضوان؟ ما النفع؟ هم لم يكترثوا لكم. حين كنت مع أخوتك مثل الصيصان، تخلّوا عنكم ولم يسألوا… أم تراهم سألوا، وضاعت الرسائل؟

ما الفرق؟ في كلا الحالين، انقطعت أخبارهم ودخل الأخوة الأربعة عالم اليتم من أوسع أبوابه: تسكّعوا في الطرق، تشرّدوا في الليالي واشتغلوا تحت أيدي الناس.

تقاذفتهم سواعد أثرياء الحرب، واستغلّت طفولتهم وبؤسهم وتشرّدهم، فكانوا يخدمون باللقمة.

آه ما أغلى ثمن اللقمة!

وبرغم ذلك كلّه، كبروا، غرسوا طفولتهم على ضفَّتي الحاصباني، وكانت مياهه السخيّة تغذّي جذورهم وترويها، تمامًا مثلما تروي جذور الحور، والدلب والصفصاف... ومثلما تتدفّق على بساتين الخير، حيث غرس الرمّان والسفرجل والتفّاح والزيتون.

وحين أزهرت المراهقة في عيونهم الجميلة، لم يبتعدوا عن ضرع الحاصباني. فارس صار شريكًا لملاك كبير، يسوس الرزقات، مقابل حصوله على ربع الغلّة.

أي أنّ فارس توظّف مرابعًا.

وفريدة، الله وفّقها بنصيب وتزوّجت باكرًا.

وهو، رضوان، استلم مع «نعمان»، أخيه الأصغر، إدارة مطحنة ماء تخصّ «فايز بك الحاصباني».

«برّاك» مطحنة.

هذه كانت وظيفته. ونعمان كان يساعده: ينزل عدول القمح والبرغل عن ظهور الدواب، يطحنها أو يجرشها، ثمّ يساعد الزبائن بتحميلها. والزبائن كانوا يأتونه من قرى الجوار، الممتدّة من راشيا وادي التيم، حتّى مرجعيون. كان غذاء المنطقة بأسرها، من سفوح جبل الشيخ إلى أقصى حدود جبل عامل يمرّ تحت ساعديه وساعدي نعمان أخيه.

والعمل الذي لم يخلُ من قسوة، كان يجود عليهما بكثير من النعم: تحصيل اللقمة، وما يفيض عنها. التعرّف على الناس، ومصادفتهم. المطحنة كانت مقرّ العمل، ومركز اللقاء بين أهالي القرى، ففيها يسهرون ويسمرون، أحيانًا، ويتبادلون الأخبار.

بسمة عريضة تنفرش في أعماقه، حين يذكر تلك الأيّام: أيّام كان البال مرتاحًا، والقلب راضيًا، والمعدة لا تشكو من الجوع... وكان هو في عزّ الشباب.

لم يكن زبائنه كلّهم من الرجال.

مع ما تتطلّبه الرحلات من مشقّة، كانت تأتيه، من حين إلى آخر، فتيات باهرات الحُسن، يخفّفن من وحشة الجوّ، وحرمان القلب. ويكتفي هو، من اللقاء، بغمزة عين أو بسمة ذات مغزى، تنشر الخجل وردًا فوق خدّي الصبية! وكان يتجرّأ، أحيانًا، بكلمة غزل أو طرفة تقرّبه من الحلوة العابرة، تاركة خلفها نثارًا من اللهفة والذكريات والوعود بلقاء خاطف قريب.

39

هكذا كان عالمه، إلى أن جاءته، في أحد الأيام، صبيّة ولا كل الصبايا، فارعة القوام، رشيقة المشية، لطيفة، جميلة وخجولة!

– كم كنتِ جميلة، أيّام الصبَا، يا أمّ نبيل!

التفت إلى المرأة المالئة المقعد بجانبه، والمتسرسلة مع إغفاءة هانئة، وتابع:

– كنت جميلة وما زلتِ...

ولكن، في ذلك الصباح... (يستوي في مقعده، يخرس الأصوات من حوله، يطرد المشاهد والوجوه، حتّى يستوعب صورتها آنذاك، بحواسّه جميعها) الوجه مشرق مثل وردة مخملية في صباح ربيعي! والعينان فراشتان مرحتان، يلوّنهما الأخضر والعسلي، وتمور فيها الفرحة الممتزجة بالطيبة! ترفَّان حوله، تغلّان بين أهداب عينيه، تسطوان على مقاومته...

لم يجرؤ على أن يقترب منها، ويحادثها مثلما يفعل مع سائر الفتيات... وهي كانت محاطة بجماعة من قريتها.

من أيّة قرية؟

لم يكن بحاجة إلى السؤال. يعرفهم. زبائنه، ويعرفهم. من «جورة السنديان»، القرية الناشرة بيوتها بين تلال الصنوبر والزيتون...

– ابنة من تكون؟

يسأل كبير الجماعة، بطريقة عابرة، ليبدو سؤاله عفويًا، بعيدًا عن كل غاية.

ويرد الرجل:

– هذه «ريّا» ابنة توفيق أبو نجم. إخوتها سافروا إلى النيورك، وبقيت وحدها مع والديها. أرسلها أبوها برفقتنا لتتعوّد العمل.

– يعني هي «رجّال» البيت.

تعمّد العفوية في لهجته.

فهزّ محدّثه رأسه:

– يا ابني، المهجر يبتلع الرجال. وتبقى النساء حارسات الديار والأرزاق. الحكّام طفّشوا شبابنا، والناس تبيع أملاكها لتدفع «الناولون» وتخلّص أولادها من جور الحكّام... كلّ عائلة غرست في المهجر شتلة أو أكثر، والحبل على الجرّار...

كلام الرجل أصاب منه الأعماق.

لكلّ عائلة شتلة أو أكثر، وعائلته هو غرست في الغربة ثلاث شتلات.

أين صارت الغرسات؟

لو يأتيه من يخبره يومًا!

لو يأتيه من ينبئه عن أخوته!

40

ويعود ينبش صورتها الجميلة، من أعماق الذاكرة؛ رآها ترفع العدل بيديها، مقابل شقيقه نعمان، لتحمّله فوق ظهر الدابة، فهرع لمساعدتها: – زنود الصبايا ما خلقت لحمل الأثقال... خلّي عنّك.

وتجيبه رنّة صوتها العذب:

– الشغل مش عيب. بنات بلدنا اخوات الرجال.

قال لها:

– لا شك في ذلك، وأنت خير مثال! الله معك.

ساقت الحمار، وسارت مع الركب، وظلّ مسمّرًا في مكانه، عيناه تشيّعانها، وقلبه يدقّ بسرعة، والتساؤل يغلي بين أضلعه: "أتراها تعود؟ هل تبصرها عيناه قريبًا؟"

حين عاد إلى معالجة حجر الرحى، كان وجهها يدور في رأسه، يزيغ بصره، ورنّة صوتها تعلو فوق كلّ صخب:

– الشغل مش عيب!

إذن لن تُعيب عليه مهنته المتواضعة. وإذا حاول التقرّب منها لن تتهرّب.

ولكن ماذا يعرف عن أهلها؟ ماذا يعرف عن أبيها؟ هل يستقبله الرجل في بيته، إذا زاره، أم يطرده شرّ طرد، وشفتاه تتمتمان:

– برّاك مطحنة؟! ناقص زوّج بنتي لبرّاك مطحنة!

41

أبوها ملّاك، مثل جميع الناس، في جورة السنديان، مثل كلّ الزبائن الذين ينقلون خيرات حقولهم إلى مطحنته. وقيمة الإنسان، في هذا المجتمع، بما يملك من أرض.

ورضوان كانت له أملاك، باعها «فارس»، حين اشتدّت عليهم الضائقة، بعد الحرب، وكادوا يموتون جوعًا.

إنّه الآن يتوق إلى أن يعود ملّاكًا، يغرس جذعه، مثلما يغرس نصب الزيتون، في السهول والأرض الطيّبة.

لو كان يملك أرضًا، لتبع «ريّا» إلى بيتها، إلى قلب الدار، فجلس مع أبيها وحادثه كلام الندّ للندّ.

لو كان من أصحاب الأملاك…

ويدور حجر الرحى دورات سريعة، وترتفع قرقعته، تعيده إلى صوابه، فيهرع إلى تلبية طلبات الزبائن.

ولكن وجهها لم يعد يفارقه بعد ذلك النهار. وظلّ هو على نار، ينتظر رجوعها يومًا، برفقة أهالي «جورة السنديان».

42

انتظر رضوان وطال انتظاره.

كان لقاؤهما نقطة تحوّل، بدّلت أيامه، وغرست فيها الألوان.

صار يتحرّك، يتحدّث ويعمل وكأنّه في حضرتها. وكأنّما عيناها تراقبان حركاته، وتحصيان عليه أنفاسه.

تساءل بينه وبين نفسه:

– أويكون هذا الحبّ؟

هذا الشعور الذي يجرفك من مكانك، ويقذف بك إلى مطارح الحلم والأوهام، فتصارع، وكأنّك فارس في حلبة المجهول! تصارع الحقيقة حينًا والوهم أحيانًا، وتقف على حدود العالمين، ولا تدري، أتتقدّم أم تتراجع؟ وهل تغلب الحقيقة الوهم، أم تكون الغلبة للأمواج السرابية؟

43

أويكون هذا الحبّ؟

كاد يطرح السؤال على الرجل الذي حدّثه ذات يوم عن ريّا. لقد عاد مع جماعة من «جورة السنديان»، ولم تكن ريّا بين النساء!

– أين هي؟

همس سؤاله في أذن الرجل، بعدما أحسّ منه أنسًا وملاطفة، واطمأنّ إلى طيب عنصره.

– أين رفيقة الرحلة الماضية؟

– تقصد ريّا؟ سأله الرجل بهدوء؟

– أجل.

لم يستطع أن يتلفّظ باسمها أمام مواطنها. خشي أن تخونه الحروف فتخرج ملتهبة، تلفح عيني محدّثه.

سمع الرجل يقول له:

– العائلة صغيرة. والطحنة تكفيهم شهرين.

ثمّ أردف:

لماذا لا تزورنا في «الجورة» يا رضوان؟

فرفع رضوان نظرات الدهشة إلى وجه محدّثه: هل هو جادّ في دعوته؟ أم يحاول اختباره ونبش أسراره؟

ماذا يقصد بسؤاله هذا؟

ازداد حذر رضوان، حتّى لا تخرج منه كلمة واحدة، تسيء إلى ريّا، وتفسّر ما في فكره، تفسيرًا خاطئًا، فابتلع الكلمات، وتركها تتساقط غصّة في حلقه.

وعاد الرجل يحثّه:

– أهالي «الجورة» أصدقاؤك. لازم تزورنا. تنزل ضيفًا في داري. دار «رامز سرحان» دارك. فقط اسأل عن «أبو ناجي».

– دياركم عامرة، يا عم «أبو ناجي».

– كان جوابه تقليديًّا. وبقي في صدره ابتهال كي يطيل الرجل الحديث، ويقوده إلى نهاية يتمنّاها.

اقترب منه «أبو ناجي» وهمس في أذنه:

– سوف أعرفك على «توفيق أبو نجم» والد ريّا. إنه من أطيب الناس في قريتنا.

تراجع قليلًا، ثمّ جمد مكانه، ونظرات الرجل متشبّثة به، تحيط بكلّ مشاعره.

ماذا يقول له؟

بماذا يجيبه؟

وهل يطلب أكثر من هذا؟

لا يبدو على محدّثه أنّه من محترفي الثرثرة. ودعوته مخلصة. بل إنه يمدّ إليه يد الصداقة. يد فلّاح غرس بين شقوقها كلّ طيب الأرض، وعطر التراب الخيّر.

– تبقى بخير عم أبو ناجي.

44

كلّ ما في طريقه إليها كان مغروسًا بالخير والوعود.

النهار من تلك الأيام الخريفية المنعشة. الشمس أوقفت حرائقها الصيفية، ورضيت أن تتبرقع بالغيوم المتفرّقة بين الزوايا، مفسحة لانفراجات زرقاء، تبهج النفس؛ وضفّتا نهر الحاصباني على طول الطريق، ترتديان ثوبًا قشيبًا، مطرّزًا بخيوط الذهب، مزخرفًا بالياقوت والزمرّد.

ألوان الخريف الرائعة!

و«طيور أيلول» تتناجى فوق أغصان الشجر، أو تتجمّع أسرابًا، تتبادل أسرار الرحيل.

ورحلته باتّجاه الشرق.

لم تغب عن ناظريه قمم جبل الشيخ، على مدى ساعة، قضاها فوق ظهر فرس، اكتراها من أحد معارفه.

الطريق إلى ريّا باتّجاه مشرق الشمس. ووجهها كان شمسًا أنارت حياته وأسعدته. بل إنّ الشمس كادت تتراجع أمام طلّعتها، يوم زفّوها إليه: «**بِطَلْعِتِكْ يا جَوْهَره**

الشمسُ رِجْعِتْ للوَرا»...

مطلع حداء أطلقه الشباب يوم فرحته...

التفت إلى المرأة المطمئنّة بجانبه، فوق مقعد الطائرة:

– جوهرة نادرة، أنت يا أمّ نبيل. في ماضيك وحاضرك، جوهرة، وأية جوهرة!

45

وأبو ناجي استقبله بحرارة، وعامله معاملة ابن عائد من الاغتراب؛ أجلسه في صدر الدار، أحضر الضيافة، فرش له غرفة الضيوف. ورافقه في اليوم التالي إلى دار «توفيق أبو نجم».

أبوها رجل مهيب الطلّة، جذّاب الشخصية، كريم النفس. أحبّه رضوان من الوهلة الأولى.

وأمّها تبدو طيّبة، وإن كانت متحفّظة في حديثها وتصرّفاتها.

وربّا لم تختبئ أو تفرّ من دربه، بل قدّمت للضيفين شراب الورد، ثمّ توارتْ... كما تقضي تقاليد «الجورة».

ولم يكن هناك مجال لإخفاء القصد من الزيارة؛ عبّر عنه أبو ناجي بكلمات بسيطة:

– شيخ توفيق، نحن قاصدينك. رضوان أبو يوسف ليس غريبًا عنك. أهالي الجورة يعرفونه: شاب طيّب ونشيط: وهو الآن بين يديك، يريد أن يتشرّف بالانتساب إلى عائلتكم الكريمة.

كان أبوها يصغي، وبصره مركّز على نقطة أمامه، ليستوعب كلّ ما يقال. ولمّا انتهى محدّثه رفع نظره إلى رضوان وسأله:

– أين التقيت ابنتي؟

سؤال في غاية البساطة؛ لكنّه مسّ رضوان مثل سلك مكهرب فاحمرّت وجنتاه وتلعثم لسانه. فخرجت كلماته تأتأة:

– ف... في المطحنة، يوم ذهبتْ مع «أبو ناجي» وأهالي الضيعة.

عاد الأب يسأل:

– وهل هذا يكفي لتطلب يدها؟

– البركة فيكم يا عم. أرجو أن أكون عند حسن الظنّ...

– أمهلني لأستشير البنت وأمها.

مع هذه العبارة، هبَّ أبو ناجي مودّعًا، فتبعه، وقد لمح علامات طيبة في عيني الشيخ توفيق.

لم يكن ينقص رضوان التهذيب، ولا وسامة الشكل. وكان مرهف الحسّ يُداري الآخرين، يُدرك بالحدس أين تبدأ حدوده معهم، وأين تنتهي، يقيس كلماته بدقّة. وهذا كلّه لم يحصِّله في المدرسة، التي لم يدخلها عمره، بل من معلّمته الكبرى: الحياة، من الصراع المتواصل، والعيش مع الطبيعة، وتأمّل سلوك البشر.

كانت له موهبة سرعة الفهم، والإدراك بالحدس، من دون اللجوء إلى كلمات.

وحين أصبحا خارج الدار، التفت إليه أبو ناجي وقال:

– أتوسّم خيرًا في هذه الزيارة يا رضوان، يا ابني، الشيخ توفيق من خيرة الأوادم، وكلّ ما يهمّه إنسان كريم الخلق، وهذا متوفّر لك والحمد لله. أبْشِر خيرًا، وسأبقى رسول السلام بينكما. وأحكي عنك ما قصّرت عنه في جلستنا الأولى.

قال رضوان ببساطة:

– أرجوك، بلا بهار وكمّون. الصراحة أساس الزواج السعيد.

– سوف أحكي بالذي فيك.

46

وصفات رضوان الطيبة رجّحت الكفّة لصالحه. جاءه أبو ناجي بعد أسبوع حاملًا البشارة:

– مبروك: الله يتمم الفرحة.

غمر رضوان الرجل بساعديه، وترك آثار الطحين على ثيابه، ثمّ راح ينفضها بارتباك. ولم يدر ما يفعل، فأسرع إلى الركوة، وضعها على النار، ودعا صديقه ليشربا القهوة معًا، ويتابعا الحديث.

قال أبو ناجي:

– عليك أن تقوم بزيارة ثانية لأهل الفتاة.

فسأل بلهفة:

– أريد أن أعرف رأي ريّا، هل هي مقتنعة؟

– تعرف هذا حين تلتقيها.

47

والتقاها عدّة مرّات في أثناء فترة الخطبة، التي سبقت الزواج. وعرف أنّها تكنّ له شعورًا مماثلًا، ومنذ لقائهما الأوّل أيضًا. لكن الفتاة لا تخطو خطوة المبادرة.

وظلّ تساؤُل يرفّ كالفراشة في أعماقه، ويمنعه الحياد من التحدّث عنه:

إنّه يعرف الفوارق الطبقية والاقتصادية التي تقف حواجز بين الناس، وتصل إلى درجة الرفض والتعصّب، خصوصًا في القرى الصغيرة؛ وتزداد حدّتها في وجوه الغرباء أمثاله... وهو غريب ومكانته الاقتصادية لا تؤهّله ليكون صهرًا لهذا البيت الكريم. وإذا تعالت ريّا على هذه الأمور، فكيف يرضى أبواها؟

وظلّ تساؤله هذا معلّقًا بلا جواب، بينما قلقه يتلاشى، في حرارة الاستقبال، كلّما زار ريّا وأهلها... ولم يلبث أن صار يشعر بأنّه واحد من أفراد الأسرة!

48

كان قد نسي القلق القديم، حين التقى تلك المرأة الغريبة، التي اعترضت سبيله ذات مساء، وهو عائد من زيارة خطيبته: ودّع ريّا ووالديها، وركب فرسه منطلقًا باتّجاه الغرب، وعند طرف القرية أبصر امرأة تتدثّر بعباءة تخفي جسدها كلّه ما عدا الرأس، وتقف في منتصف الطريق.

امرأة، لم يسبق له أن أبصر وجهها من قبل، فارعة القوام، بيضاء البشرة، غريبة النظرات:

– مساء الخير، يا شاب!

بادرته بالتحيّة، فردّ مستغربًا:

– مساء الخير.

لي معك بعض كلام...اسمي «روزينا».

– تشرفنا، ست روزينا، خير ان شالله.

– أبارك لك بالخطبة. حظّك كبير. شو الاسم من غير شرّ؟

– عبدك رضوان. رضوان أبو يوسف.

– مبروك يا رضوان! جئت في الوقت المناسب.

– لم أفهم، يا ست روزينا!
– لو طلبت يد ريّا قبل سنتين لردّوك خائبًا.
حديثها يثير فضوله... ماذا جرى قبل سنتين؟
وطلب إليها أن تتابع كلامها، فردَّت بسرعة:
– حكيت اللازم، وريّا تخبرك الباقي.
ميزان الفضول يقفز إلى أقصى مداه:
– لا... أنتِ بدأتِ. أرجوكِ، تابعي. ماذا جرى قبل سنتين؟
كانت تريد أن تتابع القصّة، وإلّا لما اعترضت طريقة بأسلوبها العجيب:
– قبل سنتين، يا أخ رضوان، تزوجتْ «الماس»، شقيقة ريّا.
– وما الغرابة في ذلك.
– زوّجوها برجل أرمل، جاء من أميركا، حاملًا ثروته وأربع أولاد. كانت الماس في الثامنة عشرة من عمرها، وهو في الأربعين. وقامت قيامة إخوتها المغتربين؛ أرسلوا إلى أبيهم كلامًا قاسيًا، هدّدوا بقطع علاقتهم به، إذا زوّج أختهم بالأرمل الكهل.
كان رضوان يصغي إلى القصّة، متوقّعًا أن تكون مقدمة لأمر هامّ، يخصّ ريّا.
لكنّ محدثته سكتت فجأة.
فهزها بسؤاله:
– لم أفهم جيّدًا، يا ست روزينا، ما هي علاقة ريّا بهذه القصة؟
– بسلامة معرفتك، يا سيد رضوان، الشيخ توفيق إنسان طيّب. والناس أمثاله، يخطئون، مثل كل البشر؛ وهو عنيد، لم يرض أن يتراجع عن خطأه. لكنّه ندم فيما بعد، وأقسم اليمين، على أن يترك لابنته الثانية، ريّا، حرّية اختيار الزوج، مهما كانت حاله...
– تقصدين...
– أقصد أن أقول، حظّك من السماء، وقد جئت في وقتك. ألف مبروك.
تصاعدت الأسئلة، مثل أمواج البحر، وراحت تتراكم في ذهنه، وتتسابق للخروج. لكن روزينا اختفت، وكأنّما الأرض انشقّت وابتلعتها.
فنادى بصوت خافت:
– روزينا. ست روزينا، أين أنت؟

لم تردّ عليه.

كان يعرف أنّها لم تذهب بعيدًا، لكنّها لن تجيب نداءه.

قالتْ ما عندها، وتوارت.

هل يعود إلى دار خطيبته، ليستفهم مَنْ تكون روزينا هذه؟

وهل هي عرّافة القرية؟

أهي عاقلة، أم مجنونة؟

ومن زرعها في طريقه؟

أسئلة، مثل رؤوس الحراب، نبتتْ له مع خيمة الظلام. وليس هناك من يجيب... فقرر ألّا يعود إلى ريّا، وراح يستعيد الحوار في ذهنه، ولم يلبث أن شعر بالراحة: ريّا، إذن، تحبّه. لم تُجبَر على القبول به. وأبوها رضي به صهرًا لأجل صفاته.

ولكن، من يؤكّد له أن رواية زوزينا حقيقية؟

لم يكن هناك من يردّ عليه، وفكّر في أنّ الغد سوف يكشف له الكثير من الأسرار التي يجهلها. فالآخرون، يظلّون جزرًا مغلقة، ومعزولة حتّى يدقّ بالمجذاف على طرف الشاطئ، وعندها تتفتّح أبواب الجزيرة، وتنجلي الأسرار، ونروح ندخل في عوالم الآخرين، مثلما نفتح لهم عالمنا، ويمتزج العالمان، ويكون الزواج، لا بين الرجل والمرأة، بل بين عالمين متباعدين، بين حالة، وحالة أخرى.

ظلّ يجترّ أفكاره، ومن البعيد، يتهادى إليه عواء بنات آوى بين كروم العنب والتين... وحوله ترفّ أسراب الحباحب، ترشده بنورها الضئيل. وعند الأفق شبح امرأة ترتدي الليل عباءة تخفي معالم جسدها.

49

تخطفه الذكريات من زمانه ومكانه. تحمله على ساعدين مخمليّين دافئين كساعدي أمّ، وترميانه في أحضان الماضي الأمين. يستريح في ذلك الحضن، بلا احتجاج. ينعم بالنوم الهنيء، باجترار الذكريات العذبة.

والأيّام تغربل وتنخل وتنسف الأحداث، ويبقى منها، في زوايا الذاكرة، الحبّات الدسمة، التي تملأ القلب فرحًا وغبطة.

50

تلفّت رضوان حوله، فإذا كلّ شيء على حاله، قبل أن يغوص في إغفاءته اللذيذة تلك:

أم نبيل نائمة، وتشخر قليلًا.

سمعان شبع قراءة صحف ومجلّات واتّكأ على نافذة الطائرة، بين الغافي والصاحي.

وبقيّة الركّاب يتلهّون بالحديث، والشرب والتدخين. وهو، تجرّه الذكريات سرًّا؛ تذرّ عطرها في أنفه، وتفرش جمالها أمام عينيه؛ بل تمدّ أصابعها، وتغمض عينيه، وتعيده إليها.

– كم سنة، يا رضوان، مضت على تلك الأيام؟

– ما يقارب النصف قرن.

كيف لا تهرب تلك الأحداث، من الذاكرة، بعد كل ما مرَّ عليه من تجارب الأيّام؟!

وكيف لا تتلاشى الذكريات؟!

تشبَّث بالمقعد، ليؤمّن جلسته، وسافر في إغماضة العينين! كم كنت أسافر في عينيك، يا أم نبيل!

وكانت عيناها خميلتين، من الخمائل المغروسة حول ضفتي الحاصباني، تغور فيهما مياه دافئة، سرقت لونها من زيتون «جورة السنديان» وشهد النحل في قفرانها.

51

كان لا بدّ له من أن يسأل ريّا عن روزينا، حين عاد إلى زيارتها، في المرة التالية، من تكون المرأة؟

– روزينا؟!

جواب ريّا سؤال ودهشة؟

وتابعت:

– أين التقيت روزينا؟

لم يعدّ بينه وبين ريّا أسرار. فتح قلبه، وروى لها ما سمعه من المرأة. وكان يسجّل بدقّة ردود فعل خطيبته؛ لم تغضب ريّا، ولم تنفعل، لكنّها علّقت يومها

بعبارة لن ينساها: – المجنونة... تجلس مثل الرصد على مدخل الضيعة، تستقبل القادم وتودّع الراحل.

– هل أغضبْتُك يا ريّا؟

سألها، وقلبه يرتعش، مخافة أن يكون سبب ما يضايقها. فردّت فورًا.

– أبدًا. كنت ستعرف آجلًا أم عاجلًا... منّي أنا، على الأقلّ. لم نعد نذكر الموضوع على مسمع من أبي. لقد عاش الألم وتقريع الضمير، وتبدّلت شخصيّته تمامًا، حتى بتُّ أنا وأمي نخاف على صحّته. كان أبي مرحًا، يحبّ الناس والمجتمع، شغوفًا بالأرض. اليوم تخلّى عن هذا كلّه، وبات ينفق وقته في عزلة كئيبة، صامتة. وإذا تحدّث إلينا، فبلهجة متكسّرة، هي غير لهجته السابقة.

وهكذا، باختصار، أدخلته ريّا إلى أعماق حياتها العائلية.

شكرها على ذلك، وصار يبذل جهدًا كبيرًا، ليتقرّب من والدها الشيخ، فيقدّم له المساعدة في الكروم والبساتين. وفي إحدى الجلسات الهادئة، سأله الشيخ توفيق: – لماذا لا تأتي، يا رضوان، يا عمّي، وتسكن معنا؟ الأرزاق بحاجة إلى سواعد فتية، مثل ساعديك، وأنا أيّامي مولّية!

فوجئ بالطلب.

كان يبني في ذهنه عشًّا صغيرًا، في بستان قريب من المطحنة، يعيش فيه مع ريّا، بعيدًا عن مداخلات الآخرين. لذا لم يعرف بماذا يجيب. وسمع شفتيه تتمتمان: – سوف نرى.

ولمّا سأل ريّا رأيها، كان جوابها بسيطًا:

– تسكن حيث تريد أنت، لا حيث يريد أبي.

وهكذا، رفض التقدمة السخيّة وحمل عروسه، وانتقلا إلى عشّ الأحلام.

52

كم كانت هانئة، أيّامه تلك!

العمل تضاعف. وجه ريّا جلب البركة إلى داره... الكوخ الشبيه بالعرزال، المتّكئ على جذع شجرة الجوز.

وكانت أهمّ بوادر البركة، ولادة نبيل، ابنهما البكر.

ثمّ جاءت لمياء.

وكانت الستّ أم راجي، والدة ريّا، تحضر كلّ ولادة وتبقى إلى جانب ابنتها، لتجتاز مرحلة النفاس، قبل أن تعود إلى دارها.

وكان أخوتها، في المهجر، مرتاحين لزواج ريّا بشابّ تحبّه، فعادوا يراسلون والديهم، وعادت العلاقات إلى مجراها الأوّل.

لكن هذا كلّه لم يبدّل من حالة الأب، الذي راح همّه يكبر مع الأيام، ويتشبّث به؛ فضمر جسمه، وبدا عليه الهرم والوهن، ثمّ لم يلبث أن مرض لعدّة أيّام، قبل أن يفارق الحياة.

حدث كل شيء بسرعة لم يتوقّعها رضوان.

وفجأة، وجد نفسه وسط ما يحدث، ملزمًا بعدّة أمور؛ فهو الرجل الوحيد القادر على إدارة الأملاك بعد رحيل أبو راجي، كما أكّدت ذلك والدة ريّا وهي تغمره وتبثّه لوعتها: – لم يَبْقَ لنا غيرك، يا رضوان. أنت وريّا تقومان مقام الشباب الغائبين. يا ابني، اترك المطحنة لأخيك. وتعال اسكن في دارك، هنا. الأرزاق بحاجة إليك.

كان يفضّل الحياة الحرّة، مع ريّا، ولو في كوخ؛ ولكن المرأة تستنجد به، وهو يحبّ الأرض.

المطحنة مهمّة يرتزق منها، أمّا الأرض، فهي ولعه ولهفة قلبه.

وكأنّما دعوة المرأة كانت نداء الأرض إلى ساعديه القويين.

53

نصف قرن من عمره، غرسه في تراب «جورة السنديان».

تحت كلّ حبّة تراب، قطرة من عرق جسمه، وشعاع من نور عينيه. وتضاعفت غلّات الأرض.

حوّل الحقول البائرة إلى بساتين زيتون وتفّاح. غرس كروم العنب، في جلال القندول والوزال، ممّا دفع أم راجي إلى أن تحكي عنه في مجالسها بفخر: – صهري وسند ظهري... عمّر وثمّر.

كدّ ساعديه وعرق جبينه أكسباه حياته الجديدة ومكانته المتميّزة، بين أهالي «الجورة».

لم يكن إصلاح الأراضي سهلًا، خصوصًا وأنّها منتشرة في كلّ جهات الأرض المحيطة بالقرية، فراح يستعين بكلّ ذرّة نشاط وخبرة، ومقدرة على الابتكار.

وفي هذه الأثناء، كاد الأولاد يكبرون، وكلّما مرّت سنة، أو سنتان، أطلّ مولود جديد، حتّى أصبح عددهم عدد أصابع يده.

أقسم رضوان على أن يعوّض أولاده من حياة عرفها هو في طفولته، فأرسلهم إلى المدرسة، ووفّر لهم حياة ناعمة، بعيدة عن العمل المضني في الحقول. فلمّا أنهوا علومهم في القرية، بعثهم إلى مدرسة «الأستاذ لبيب» في مرجعيون، حيث تمكّنوا من إكمال دراستهم الثانوية.

وبعد ذلك؟

يتوقّف، عند الغصّة في حياته.

تلك المرحلة لم تكن سهلة. اكتشف أنّ العلم الذي تلقّوه في المدرسة، رفع جدارًا بينهم وبين الأرض.

ماذا تفيد شهادة «البكالوريا» في بستان الزيتون أو كرم العنب؟ بل ماذا تفيد هذه الشهادة مجتمع «الجورة» الباقي على حاله منذ عشرات السنين؟!

كان يحسب أنّه اختار لهم الدرب الأصلح، ليعودوا إلى الأرض، إلى القرية، أقوياء، ممتلئين خبرة وعلمًا وثقة بالنفس...

«حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر»، هكذا ببساطة.

وفيما كان هو يخطّط لأولاده مستقبلهم، كانت أعينهم تسافر إلى أبعد من حدود القرية، وأرضها الطيبة.

نبيل كان أوّل من فاتحه بموضوع الهجرة. حاول رضوان أن يقنعه ليبقى بقربه، ويساعده في خريف عمره. لكنّ كلامه هُدر عبثًا. نبيل مصمّم على السفر... وهكذا قبل معه بالسفر، بعدما أخذ منه وعدًا بأنّ الغياب لن يطول أكثر من بضع سنوات.

وفي الغربة، لم تكن الحياة سهلة، خصوصًا في الفترة الأولى، إذ كانت ترده الرسائل حاملة أرقّ العواطف، وحرقة القلب، وآثار الدموع.

لكنّ الأحوال تبدّلت بعدما استقرّ نبيل، وفتح شغلًا لحسابه، فصار يطلب أخوته، ليساعدوه، أو ليتابعوا دراستهم في معاهد كندا.

وكان هو يقف أمام ما يجري وقفة عجز:

ليس لديه ما يقدّمه إلى أولاده أفضل من العمل في الأرض. وأرضه تزداد شحًّا سنة بعد سنة. وعدوى الهجرة تفشّت بين الشباب، فتحوّلت القرية إلى

مشتل، يحضن الغرسات إلى حين، حتّى إذا ما نما الساق وقويت الجذور، طلبت الغرسة أرضًا أرحب، ومناخًا أفضل.

54

وكان المناخ قد بدأ يتحوّل، بعد مرور عشر سنين، على سفر نبيل. أرض الجنوب باتت معزولة عن سائر المناطق، بفضل قرار رسميّ فرض على كلّ مواطن يريد زيارة الجنوب، أن يحمل معه إجازة مرور رسمية.

هذا، والناس البسطاء لا يدركون ما يجري، وما يُدَبَّر لهم.

وكان رضوان، في أعماق ذاته، يشعر بأنّ الأيام تحوّلت، لا بسبب هجر أولاده فحسب، بل بسبب الرياح الجنوبية الملتهبة التي راحت تهبّ عليهم، حاملة معها التهديد والوعيد، ثمّ النار والدمار.

وكان أهالي القرى يتجمّعون، أو ينتدبون مخاتيرهم ورؤساء بلديّاتهم ليقابلوا المسؤولين، ويشرحوا لهم سوء الأحوال، أو يطلبوا مساعدتهم على أوضاع تجاوزت مقدرتهم المحدودة.

وكانت الوفود ترجع حاملة الوعود الفارغة...

وتمرّ الأيام...

الزمن يتقدّم. لا يتوقّف أمام الحرب أو أمام السلم.

وتقدّم به زمانه؛ وأوصلته الأيّام إلى العيش في الترقّب والانتظار. وكان في قرارة نفسه يحسّ أنّ الذي ينتظره لا يحمل الخير.

وانتظاره تحوّل عن مساره الأوّل.

منذ سافر نبيل، وهو في حالة انتظار. ينتظر الرسائل، وينتظر أخبارهم، ينتظر وعدهم بالمجيء لقضاء الصيف، أو الوعود الأبعد للعودة النهائية: «**يا أبي، مهما بُعَدت بنا المسافات، يظلّ الحنين يهزّنا**».

«**ويا أمي: الشوق يحرق أضلعنا. والغربة ليست حضن أم**»...

«**ويا أبي: سوف تظلّ نقطة النار تلهب أحشاءنا، ولن يطفئ حرقتها سوى شربة ماء من رأس النبع**».

كان يسمع الرسائل، تقرأها له أم نبيل، ويذرفان الدموع.

يبكيان العمر الذي يمضي والأيّام التي تمرّ. يبكيان الوعود الهاربة من بين أيديهم.

لم يعد بالإمكان اتّخاذ قرار مؤكّد، خصوصًا بعدما وصلت حرائق الحرب إلى الجنوب وصار الناس يعيشون بين نارين: نار المدافع ونار الطائرات.

بارت الحقول.

ذبل الشجر.

وأحرقت نيران القصف مساحات شاسعة من بساتين الحاصباني، و«جورة السنديان» والعدوان مُستمرّ. وفي كلّ مرّة، يدفع المسالمون ضحايا جديدة، على مذبح العدوان والكفر بالعدالة الإنسانية.

لم يعد يجرؤ على أن يطلب من أمّ نبيل أن تكتب إلى أولاده، مثلما كانت تكتب لهم في الماضي:

«ننتظركم على أحرّ من الجمر»...

«سنؤجل قطاف كرم «العقبة» حتى يأتي واحد منكم»...

«نحترق شوقًا إلى تقبيل الأحفاد»...

ألغى هذه العبارات من رسائله، خصوصًا بعدما صار الناس من حوله، يدفعون أولادهم إلى الهجرة، لينقذوهم من الموت، ومن المستقبل المجهول...

وكان رضوان يشعر في أعماقه بأنّ ما يحدث حوله ليس طبيعيًّا.

وظلّ عاجزًا عن إدراك اللعبة الدولية التي اختارت الجنوب ساحة لها...

55

كيف تصف شعورك، يا رضوان، يا رجل؟

ما الذي يحدث حولك؟

من يكون هؤلاء البشر الجالسون في مقاعدهم باستسلام كلّي، أعينهم مسمّرة فوق شاشة صامتة، يتصارع عليها الأبطال؟

إنّها «السينما»!

وأنت كنت منكّس الرأس، مغمض العينين، ولم تتابع «أحداث الفيلم».

لا تريد أن تتابع.

هاجسك الوصول بالسلامة، إلى المحطّة التالية.

– أين صرنا من الرحلة يا سمعان؟

سمعان يعرف كلّ الأجوبة، ولم يستسلم مثلك للأحلام. ويجيبك بهدوء:

– قَرُبَ الفَرَج، عم بو نبيل. كنت نائمًا، فما سمعت نداء المذيع.
– وماذا قال المذيع يا سمعان؟
– بعد بضع دقائق نهبط في مطار «مونترِيال».
– يعني وصلنا؟!
كاد يقفز عن المقعد.
كيف فاجأوه بالوصول؟!
كم كانت غيبته طويلة!
امتدّت به إلى خمسين سنة من العمر. قفز عن مقعده، وهجم على سمعان، يقبّل جبينه بحماسة:
– أكاد لا أصدّق يا سمعان! يعني صرنا على المقلب الآخر من البحر.
– بالضبط.
أجابه سمعان باختصار.
لم يسترسل بالشرح كعادته.
يبدو أنّ القبلة فاجأته وأحرجته، خصوصًا حين أبصر أعين الجيران الغرباء تتحوّل إليه، ولا يفهم أصحابه سرّ هذا التصرّف.
وعاد رضوان إلى مقعده، وهو «يترغل» بفرح:
– استعدّي يا مرا. بعد قليل ننزل في مطار «مونترِيال». يعني على بُعدِ فشختين عن الشباب.
عاد إلى مقعده، ولم يستطع الجلوس؛ راح يسرّح نظره من نافذة الطائرة، يحاول أن يقيس المسافة. واصطدمت نظراته بجدران الغيوم. يريد أن يهبط مع الطائرة، يخترق خطّها بنظره. يساعد القبطان في هبوط سريع. يمدّ يديه الاثنتين، وكأنّه يحاول أن يحمل فوقهما طائرة «الجمبو».
حماسته تكاد تحرقه. وقد ضايقت من حوله، فأقبلت المضيفة، ورجت منه، بلطف، أن يجلس في مقعده ويربط الحزام حول خصره.
أدرك ما الذي تقصده من الإشارة، فجلس هادئًا، مطيعًا كتلميذ، وظلّت الفرحة تطفر من عينيه، مع دمعات اغتصبت سبيلها إلى الخدين.

56

النداء ينطلق تلو النداء، وبكل اللغات التي يجهلها، وحركة الطائرة تتغيّر، ويحسّ بأنّ قلبه يهوي معها ويخفق بعنف، فيمدّ يديه ويحتضن يدي أمّ نبيل، ثمّ ينساهما في حضنها.

57

لم يعد رضوان يذكر ما حدث في اللحظات التالية!

كان منتشيًا، وكأنّه شرب «دَوْرَقَيَ» خمر.

ومن دون أن يفقد نشوته، حمل حقيبته الصغيرة، وسار خلف أم نبيل وسمعان في موكب الغرباء الذين كانت له معهم رفقة طريق.

ومثلما دخلوا الطائرة – القلعة – غادروها، ترافقهم بسمات الوداع والشكر. واستقبلتهم الردهات الشاسعة... ردهات مطار «مونترِيال».

كان سمعان سيفترق عنهما في هذا المطار، ليتابعا، بعد ذلك، الرحلة إلى مطار «هاليفاكس»:

– لن أترككما، عم بو نبيل، قبل أن أتأكّد من وصولكما إلى طائرة «هاليفاكس». اللوحة أعلنت عن موعد الإقلاع بعد نصف ساعة.

– يعني، تفارقنا هنا؟

كان سمعان قد أوضح الأمر لرضوان، قبل الإقلاع، لكنّ الرجل نسي... وهل يُلام إذا نسي تفصيلًا مؤجّلًا كهذا؟

لكن الأمور المؤجّلة لا تلبث أن تصبح شؤونًا معجَّلة.

وها هو يفاجأ بفراق سمعان.

– الله معك، يا عمي؛ الله يوفقك، وينجحك.

وقالت أم نبيل:

– شو كان صار فينا لولاك، يا ابني، يا سمعان؟ رحلة موفقة.

58

انتظر سمعان، حتّى موعد إقلاع الطائرة، فسلّم رفيقَي الرحلة إلى المضيفة، بعدما أوصاها بهما لأنّهما يجهلان اللغة. والمضيفة لم تعد تفارقهما! سارت بقرب أم نبيل، وكانت تسندها بيدها، كلّما شعرت بعجزها عن الإسراع في

السير، أو تسلّق أحد السلالم. ولم تتخلَّ عنهما خلال رحلة الساعة بين «مونترِيال» و«هاليفاكس».

– ما أكثر أولاد الحلال، يا أم نبيل! لولاهم، كان خرب الكون.

وأجابت أم نبيل:

– الله لا يخْلينا من أولاد الحلال.

فاسترسل رضوان:

– إنّها تذكِّرني بلمياء. ألا ترين بعض الشبه؟

– هذا ما تراه أنت، يا رجال. لمياء لا يشبهها أحد في الكون!

لمياؤها.

ذات العينين العسليّتين، الواسعتين، والشعر الكستنائي والبشرة البيضاء والخدّين الناهضين، والبسمة الساحرة.

لمياء!

أنّى تجد لها مثيلًا؟

ولكن أبو نبيل يتسلّى بالحكي، يقطع الوقت، لا بأس، ولا اعتراض على ذلك!

إنّ في قلبها مثلما في قلبه من شوق إلى الوصول. ولكنّها تعوّدت، منذ عرفته، أن تكتم مشاعرها وتحتفظ بأفكارها وآرائها لنفسها، خشية ألّا يوافقها، أو تسمع كلمة تزعجها.

تعوّد منها الرضوخ والصمت.

تتلقّى ولا تنفعل، حتّى في لحظات اللقاء الحميم، لم تسمح مرّة لمشاعرها بأن تتسرّب في آهة أو نأمة.

يطرح السؤال، فتجيب عنه بلا تردد:

– مثلما تريد، يا رجّال.

يأتي ليستشيرها في أمر فتردّ بعفوية:

– الكلمة لك.

هكذا عاشت معه، مطمئنّة، هادئة وسعيدة.

هل كانت سعيدة؟

في الواقع لم تطرح السؤال على نفسها. لم يحدث أن سنحت لها فرصة لمثل هذا السؤال.

ولماذا تسأل، وهي تعرف دورها، وتؤدّيه بمحبّة: زوجة وأمّ.

تضحية وإنكار ذات، وغرس نور العينين وحبّات القلب على دروبهم، حتى يسيروا في النور والفرح والرجاء.

وها هو، بقربها، مثلما أَلِفته منذ نصف قرن، يمسك بيدها، في لحظات الألم والضيق والقلق، ويقودها مثلما قادها إلى الهيكل، في تلك اللحظة البعيدة، المسجّلة فوق لوحة الوعي، وردّ على سؤال الكاهن: – نعم، أريد ريّا، ابنة توفيق أبو نجم، زوجة لي.

59

ساعدها لتجلس فوق مقعد حدّدته لها المضيفة، وأخذ مكانه قربها. وبدأ فورًا يربط الحزام.

سمعان ليس هنا ليستشيره، ولن يكلّف المضيفة هذا العناء. صار يعرف المطلوب. ولمّا ارتفع النداء من مكان خفيّ في مقدّم الطائرة، فَهِمَ أيضًا ما يريدون منه؛ أطفأ السيجارة، وأسند ظهره إلى مسند المقعد، وأخذ نفسًا عميقًا.

وكانت أم نبيل قد استعدّت مثله، وجلست جلسة ترقُّب وانتباه.

بعد قليل، يلتقيان الشباب:

– شو قولك، يا مَرَا؟ «شارلتون» بعيدة عن المطار؟

– علمي علمك، يا رجّال!

فعاد يؤكد:

– لا بدّ من أن يأتوا ليستقبلونا على المطار... لا بدّ.

60

على توقّعاته أقلعت الطائرة، مدفوعة بحرارة أشواقه.

عقارب الساعة في يده تحرن، وتتباطأ. تدور دورتها وكأنّها تلفّ حول الكرة الأرضية.

وهو يلفّ حول الكرة الأرضية منذ الصباح.

لو يعلم أنّه اجتاز ما يقارب نصف المسافة، حول الأرض، والشمس ترافقه وترفض أن تغيب، قبل أن تودعه في أحضان الشباب.

لم تفته هذه الملاحظة. التفت إلى أم نبيل، يُشركها في أفكاره:

– لاحظتِ، يا مَرَا، ما كان أطول هالنهار؟

أجابته:

– الشمس لم تفارقنا منذ عشرين ساعة. يعني نهارنا كان نهارين.

– هذا من حسن حظّنا، حتى لا نسافر في الليل.

عبارته الأخير أضافها من أجل زوجته.

هو، يتساوى عنده الليل والنهار. وهل يكون السفر السهل، في هذه القلعة الجبّارة، أصعب من رحلاته الليلية، بين «جورة السنديان» والقرى المجاورة، يقطع المسافات فوق ظهر الحمار، ويتوغّل في الشعاب والقفار الموحشة، على عواء الذئاب ووحوش البراري؟

وأين هي من غزواته، لصيد «النَّيْص» و«الغرير» في الليالي الظلماء؟

لم تترك له المضيفة المجال ليتابع حواره مع زوجته، أو مع ذاته. قدّمت، بصوت أنثوي رقيق، إعلانًا يختلف عن سواه من الإعلانات التي تسبق ارتجاج الطائرة في طريقها نحو الأرض.

61

كان يتوقّع أن يراهم في ساحة المطار، واقفين ينتظرونه؛ عيونهم مشرئبّة، ووجوههم تطفح بشرًا.

قفز من الطائرة بخفّة ابن عشرين، وسبق أم نبيل.

– انتظرني، يا رجال، إلى أين؟

– أبحث عن الشباب...

المضيفة تكدّ في أثره، وتعجز عن اللحاق به، وتتمتم كلمات لا يفهمها.

يقول لها:

– الشباب ينتظرون أمام واجهة الزجاج... هناك، ألا تبصرينهم مجتمعين؟

ثمّ لم يلبث أن نسي المضيفة، وأم نبيل، وهو جادٌّ في السعي، حتى وصل أمام واجهة الزجاج.

كانوا غرباء...

كلهم غرباء! لا وجه يشرق ببسمة، ولا عين تنفتح مثلما تنفتح بوّابة الفردوس...

أين هم؟ لا بدّ أنّهم في مكان ما، هنا، أو هناك.

المضيفة يئست منه: أمسكت بيد أم نبيل وأوصلتها إلى مقعد، في صالة الانتظار، ثمّ غادرتها، لتتابع مهمّات أخرى...

وظلّ رضوان يفرفر مثل زغلول أسقطوه من عشّه، وأضاع سبيل العودة إليه. وبعد نصف ساعة من البحث المجهد أمام الواجهات الزجاجية، عاد إلى حيث تجلس أم نبيل، فاقدًا صبره، متخلّيًا عن مرحه: – عملوها معنا، يا مَرَا... لعنة الله على الغربة.

فقالت محاولة التخفيف عنه:

– طوِّل بالك، يا رجال. طوّل بالك... الشباب لا يتركونا. هناك سوء تفاهم، ولا بد.

ردّ بغضب:

– سوء تفاهم؟ أكيد سوء التفاهم حاصل بيننا، وبين جميع المخلوقات. التفتي حولك، هل يمكنك الأخذ والعطاء مع واحد من هذه المخلوقات؟ ماذا نفعل الآن؟

كان ينفث كلماته، فتلسعها، وكأنها خارجة من فوهة بركان.

ولم تدرِ ماذا تجيبه، وقد نفدت الحيلة.

وكادت هي، تفقد صبرها، لو لم تبصر يدًا تلوّح لها من خلف الزجاج...

62

يد الرحمة تمتدّ إلى رضوان، وزوجته من حيث لا يعلمان.

هنا، في هذا المطار البارد، الحياديّ، الذي استقبلهما بلا اكتراث.

يد امرأة تلوّح لهما من خلف الزجاج!

تأمّلت أم نبيل وجه المرأة جيّدًا، وحاولت أن تتذكّر معالمه، فلم تفلح. وعاد القنوط يسيطر عليها:

– يمكن المَرا غلطانة، يا رجال، ما العمل؟

كان رضوان يتفرّس في وجه الغريبة. ويراقب اتّجاه عينيها، ثم يتلفّت حوله، باحثًا عن الهدف الذي تصوّب إليه نظراتها وإشاراتها.

لم يكن هناك سواهما.

فقال لزوجته:

– سوف أردّ عليها، وليكن ما يكون.

وافقته أم نبيل، وظلّت تتأمّله، وهو يتقدّم ببطء، صوب الواجهة المقفلة! المرأة تومئ إليه تدلّه إلى المخرج.

تردِّد اسمه!

وتبتسم بطيبة وحنوّ!!!

هذه المرأة، ليست غريبة.

ردّ على ابتسامتها، وهزّ رأسه، علامة الفهم، ثمّ عاد إلى حيث تجلس زوجته ودعاها لتنطلق معه، باتّجاه المخرج.

وبعد لحظات، كانا أمام المرأة وجهًا لوجه.

اقتربت، تغمر أم نبيل تقبّلها بحرارة، وترحّب بها بالعربية، ثمّ طوت ذراعيها حول رضوان، وغمرته وهي تتمتم كلمات الترحيب...

كان شبه تائه وسط ما يجري، والمرأة تمعن في الترحيب والقبلات.

ونسيت، في غمرة حماستها، أن تعرِّفُه بنفسها، ثمّ استدركت معتذرة:

– عفوًا يجب أن أقدّم نفسي... أنا «جين» «جين حبيب».

– يعني أخت صهرنا فايز؟

– بالضبط، عم بو نبيل، الشباب كلّفوني أن أستقبلكما وأهتمّ بكما. أنا أقيم في «هاليفاكس».

الشاب كلّفوها؟

– أين الشباب، يا ست جين؟

كان رضوان لا يزال مضطربًا، قلقًا لا يفهم ما يدور حوله.

فابتسمت ابتسامة من يدرك الوضع وقالت:

– الشباب يبعدون عنّا مسافة نصف ساعة في الطائرة. بعد قليل تستقلّان طائرة «شارلوت تاون»، وهناك يكونون على المطار.

63

هكذا إذن! المسألة كانت سوء تفاهم وسوء تقدير. حماسة زائدة منه، ربّما. لم يسمع، لم يسأل: لم يتوقّف ليدرك جيّدًا مدى المسافات، وموقع المحطّات.

مسافة نصف ساعة في الطائرة!

طبعًا لا ينتظر من الشباب أن يقوموا برحلة كهذه، ليستقبلوه...

بدأت الأمور تتّضح له، وهدأ قلقه، وعادت الابتسامة تشرق فوق وجه أم نبيل.

قالت جين:

– نذهب في هذا الاتّجاه. أوصلكما إلى الطائرة، وأتمنّى لكما نهاية رحلة سعيدة.

كان يشرب كلماتها بشغف، وتساءل: "أوتكون هذه نهاية الرحلة؟"

في الساعة الأخيرة، ومنذ تركه سمعان، رفيق السفر، طالت المسافة، حتّى كاد يحسب رحلته بلا نهاية.

64

الطائرة الرابعة تنتظرهما.

صغيرة الحجم، قديمة الصنع، متواضعة، بسيطة.

شعر رضوان بالأنس، وهو ينحشر في مقعدها الضيّق، وإلى جانبه تنحشر أم نبيل بصعوبة، ويتذكّران معًا، البوسطة الأولى التي دشّنت طريق «جورة السنديان».

– كلّها نصف ساعة، يا مَرا، ونصل.

واستعاد مرحه وحماسته. بل إنّ ميزان الحماسة ضرب الرقم القياسيّ والطائرة تحلّق على ارتفاع منخفض، وهو يشرف على البحر واليابسة؛ على أرض لم يحلم ببلوغها في يوم من أيّام عمره.

– هذه «جزيرة الأمير ادوار» فهم إعلان المضيفة، لكثرة ما تردّد هذا الاسم على سمعه.

إنّه هناك والجزيرة تعني «شارلتون»... تعني الوصول.

ولم تترك له الطائرة مجالًا للمزيد من القلق: هبطت مثلما يهبط النسر من أعالي القمم، وراحت تكرج على أرض المطار كرج الحجل.

هكذا بدت له، وهي تحمله أقرب، فأقرب، ليصبح بمحاذاة المبنى الصغير، المطليّ بالأحضر والرمادي.

– هذا مطار «شارلتون» يا أم نبيل.

وها هم يجتمعون، مثلما انتظرهم، وكما تمثّلهم، عبر عشرات الأحلام، في اليقظة، وفي المنام.

نبيل في المقدّمة، وبقربه زوجته سلمى، والأولاد، وإخوته مع عيالهم يلتفُّون حوله. وفي الحلقة الثانية، يتجمّع الأقارب، أبناء الأعمام والأخوال، ثمّ الأصدقاء والمواطنون؛ أبناء «جورة السنديان» الذين بدأت هجرتهم إلى هذه المنطقة من كندا قبل تسعين سنة.

65

مثل كرة تتقاذفها أيدي اللاعبين... مثل وتر تعزف عليه أنغام جماعية، هكذا كان رضوان وزوجته، في اللحظات التالية.

استسلما للعناق والقبلات، للدموع والبسمات، للكلمات، تتمتمها الشفاه لتملأ بها رهبة الصمت الآسر.

ذلك الصمت الذي ينتصب في مثل هذه المناسبات، فيذكّر بأنّها المنعطف، وأنّها ساعة قدرية، في حياة من يشهدها، وأنّها، بها يؤرّخ: فالماضي ما سبقها، والآتي ما يجيء بعدها.

لم يستيقظ رضوان من سكرة اللقاء، ولم يلتفت حوله، ليبصر في زوايا القاعة، أفرادًا من فصائل تختلف عن فصيلته؛ وقد ازداد التصاقهم بجدران القاعة، وعيونهم تكاد تقفز من محاجرها. بدوا وكأنّهم يتساءلون: «ماذا يجري هنا؟» ولا يفهمون. ولا أحد يتطوّع ليفهمهم.

لو لم يكن رضوان غارقًا في سكرة اللقاء، لكان التفت إليهم، مثلما التفت إلى حجارة «الجورة»، ومثلما خاطب سرب الحمام فوق سطوح القرميد في حاصبيا. وكان قال لهم: – يا عمي، نقوم بزيارة للشباب. زيارة ستّة أشهر، ثمّ نعود.

66

يمتلئ قلبه فخرًا واعتزازًا... ها هو بينهم، يعتزّ بهم.

أبناؤه كلّهم ناجحون، وهو لم يأتِ ليشهد على نجاحهم. كان يؤمن بكلّ كلمة، ويصدّق كل حكاية تنقل إليه. لكن ما يسجّله النظر والسمع والحواسّ جميعها، هو غير ما تنقله تلك الكلمات المجفِّفة «المقطوعة الحَيْل»... الرسائل المغلقة.

نبيل يفتح لهم باب داره.

يطلب من أمّه أن تلصق خميرة، فوق العتبة.

أم نبيل ترفض:

– هذا ما تفعله العروس يا بنيّ. وقد ألصقت زوجتك الخميرة من سنوات، وبركتها معك، حيثما حللت.

نبيل يصرّ:

– أريدك، يا أمي، أن تباركي دارنا بيدك المقدّسة، هذه اليد التي غذّتنا، وروتنا، ورافقت خطانا بالبركة والعطاء.

أذعنت أم نبيل لطلب ابنها – وطلبه غالٍ – فأمسكت بالخميرة، وألصقتها بأصابعها الخمس، وارتفع التصفيق من حولها، والدعاء باليُمنِ والبركات.

67

وكانت البركات تملأ المائدة السخيّة المعدّة لوصول الضيفين العزيزين، يتصدّرها العرق الحامل نكهة كروم لبنان، والطعام الذي يختصر طعم الوطن الأم.

ومرّة أخرى، أخذ نبيل المبادرة في الكلام، فطلب من أبيه أن يبارك المائدة، ويرشف أوّل جرعة شراب. وتبعه هو، فرفع كأسه وهو يردّد:

– نخب وصولكم بالسلامة.

– ثمّ دعا الجميع إلى الجلوس حول المائدة العامرة بالأطايب.

كان رضوان على امتداد سنيه السبعين، يتجوّل في دنيا الأحلام. أحيانًا تجيء الأحلام كوابيس.

وفي أوقات الرضى يعيش في الحلم، أروع لحظات الهناء.

وها هو يعود إلى الأحلام الهانئة. وكانت قد فارقته، في السنوات الأخيرة، ومنذ بدأ التهديد المتواصل لأرضه الغالية.

لا يصدّق أنّه الآن، في حالة اليقظة.

إنّه يستعيد أحد الأحلام السعيدة الماضية.

ولكن أنَّى للحلم أن يملأ القلب بهذا الفرح الغامر، ويشرح الصدر، ويرتفع إلى الرأس، فيدور، ويدور، وفي دورانه، يسجّل ضحك العيون، وصدى القهقهات، وزقزقة الأطفال، ويسجّل هذا الخليط من أصوات فتيَّة، وأصوات تمزج اللغة التي يفهمها بلغة أخرى، تترك كلماتها ثغرات بين العبارة والعبارة.

هذه الثغرات تتكشّف حين يدير سمعه للصغار، للأحفاد الذين احتشدوا حوله، ثمار عشرين سنة حبّ.

هؤلاء أحفاده!

كيف يصدّق؟

قبّلوه فوق وجهه المغضَّن.

قبّلوا يديه «المعروقتين» الخشنتين.

سمحوا له بأن يحضنهم، يحتويهم بين ذراعيه، ويحسُّ لهاثم فوق جبينه، ودفء أجسامهم يتسلّل إلى ثنايا جسمه، فيغرس فيه طاقة جديدة... قوّة جديدة، تحرّكه، تدفعه صوب مناخات الفرح والسعادة، فيشعر بأنّه نال حقّه من الحياة، وأنّ هذه المكافأة الكبرى جاءته دفعة واحدة، مثلما يتشظّى الحظّ، وينسكب في العينين، من دون أن ينذر هدفه.

– نخبك يا أبي!

يسمعها جماعية مكثفة.

– الحمد لله على وصولكم بالسلامة!

وأم نبيل تهضم فرحتها بصمت. تتأمّل الأحبّاء المحيطين بها، وتمسح دمعات هادئة.

أيّ كلام يقوى على وصف مشاعرها؟ أيّ قول يمكنه أن يعبّر عمّا يجيش في صدرها من عواطف؟!

والأذرع تتشابك حولها: تلفّ العنق حينًا والكتفين أحيانًا، وتهبط الوجوه الغالية، مثل رفوف العصافير الجائعة، تنقد، من فوق خدّيها المُوَرْدين، قبلات تُذكِّرها بفصول الجفاف التي عاشتها منذ بدأت مواسم الهجرة، وتُذَكّرها، في الوقت ذاته، أنّ هذه اللحظات لن تدوم. وهي هنا لبضعة أسابيع أو بضعة أشهر، ثمّ تعود.

وتتأمّل زوجها.

تحاول أن تقرأ فوق وجهه التعبير عن حالته، فإذا هو في نشوة تبعده عنها، ترفعه فوق كفَّين خفيَّين، وكأنّما هو يتهيّأ ليطير.

بل ها هو يقفز عن كرسيه، ويغادر المائدة، ترافقه النظرات، ذاهلة.

أبصرته يسحب «شالًا» ورديًا من فوق كتفي ابنتهما لمياء، فيعقده بين الخصر والوركين، ويبدأ الرقص، بلا ضبط للإيقاع.

عرفت أنّه بلغ المنطقة التي كانت ولا تزال تعجز عن مرافقته إليها. راح يلفّ، ويدور حول المائدة، حول أولاده، وأحفاده، والأصدقاء المدعوّين. يقفز برشاقة وخفّة، وكأنّه حجل فوق صخور «العقبة».

أثار المشهد موجة حماسة وتصفيق، دفعت نبيل إلى سحب «الدربكة» من فوق أحد الرفوف، ليضبط إيقاع الرقصة، التي أعادتهم إلى منزلهم الأوّل في «جورة السنديان»، وإلى أيّام كان رضوان في عزّ الشباب، لا تكتمل الأفراح إلّا بحضوره.

هذه لغته المفضّلة، للتعبير عن مشاعره. لغة الجسد الذائب في الجمهور، المتداخل في الجماعة، مع النغم والإيقاع، مع الذكريات المقبلة من بُعد عشرات السنين: «**هَيْك مَشْقْ الزَّعْرُورَهْ**

يا يُمَّة هَيْكْ

هَيْكْ بتمشي الغَنْدوره

وبتَعْمَلْ هَيْك...»

جسمه يتمايل، مثل نخلة مثقلة بالثمار، مثقلة بحمل السنين، تعصف فيها الرياح، فتواجهها مكابرة، تميل ولا تنحني.

يداه تمشقان الزعرورة الخفيّة، مثلما كانتا تمشقانها قبل ثلاثين، أربعين، خمسين سنة.

فرحه ينتشر فوق غصون وجهه، يشعّ من عينيه، ويتدفّق مع كلّ حركة؛ والعيون مسمّرة فوق جسمه، تنظر إليه، ولا تصدّق.

كيف استطاع والدهم، جدّهم، كيف استطاع أن يحتفظ بتلك الخفّة وهذه الرشاقة؟!

وهو لو توقّف لحظة، ليحاسب نفسه، لطرح الأسئلة إيّاها:

كيف تمكَّن من الاحتفاظ بلغته المحبّبة، والمفضّلة، التي كانت تجمع حوله الخلّان والأصحاب في ليالي الأنس والسمر... في أعراس القرية، حين كانت خبطة قدمه فوق الأرض تصل حتى الأعماق، وتربطه بأقصى مدى بلغته الجذور؟!

الدائرة الآن تتّسع.

الشباب والصبايا ينهضون، وقد امتدَّت حرارة جسده إلى أجسادهم... إلى الكيانات المتعدّدة المرتبطة به، مهما باعدت بينه وبينها السنون والمسافات.

الحرارة تلامس أجسادهم، وتوقظها، ثمّ تشبكها في حلقة الرقص الجماعي: الدبكة اللبنانية العريقة...

ابنته نوال أدارت «المسجّلة»، فراحت تبثّ الأغنيات الشعبية المحبّبة، بأصوات «فيروز» و«وديع» و«صباح» و«نصري».

لكن حلقة الدبكة لم تكتمل إلّا بعدما انفصل عنها «جبران» وأعلن أنّه سيعود بعد دقائق.

وجبران صديق نبيل، وكان قد سبقه في الاغتراب، بعشر سنوات.

68

جبران أبو حمد.

عرفته «جورة السنديان»، في يفاعه وأوج الشباب، فارعًا مثل شجرة حور، وسيمًا كأمير، ومرحًا مرح الحساسين والبلابل بين الكروم.

ومثل حسّون معجب بشَدْوه وجمال شكله، كان يتنقل فوق أغصان «الجورة» يلاحق الفراشات، يغنّي المواويل ويعزف على «المجوز».

حضر لاستقبال رضوان، ولم يحضر «مجوزه» معه. وحين انعقدت حلقة الدبكة على أنغام المسجّلة، استيقظت حماسته القديمة، فانفصل عن الحلقة، وغاب بضع دقائق، عاد بعدها بصحبة «المجوز»، ووقف وسط الحلقة، ينفخ أنغامه العتيقة، فيلهب الحماسة في صدور الراقصين.

69

كان رضوان، قد تعب من الرقص، فجلس بجانب زوجته، يتأمّل أمواج الفرح المتدفّقة في دار بكر أولاده، ويسعد برشف اللذّة قطرةً قطرة، ويشعر في بعض اللحظات بأنّ هذا الذي يجري حوله، ليس حقيقيًّا.

الشراب والطعام، الموسيقى والرقص، ثمّ جبران و«المجوز»!

هل يعقل أن تنتقل «جورة السنديان»، بما فيها من بشر وعادات وتقاليد، إلى هذه الجزيرة النائية، والغريبة، الغريبة؟!

ويجيب نفسه:

– ها هي انتقلت.

الناس الذين عرفهم منذ نصف قرن، هاجروا الواحد بعد الآخر... جبران جاء قبل ثلاثين سنة، ولم ينسَ الموسيقى؛ وهو يستعين بالألحان العتيقة، ليمسح ما علق بنفسه، خلال سني الهجرة، من بؤس المشاعر وتعاسة القلب.

وجبران، الذي كان أميرًا بين شباب «الجورة»، أوصلته إلى هذه الجزيرة امرأة.

70

كان العالم خارجًا من الحرب العالمية الثانية، التي لم توفّر زاوية في الكون.

وأصابت، فيما أصابت، «جورة السنديان».

وكان الشباب أكثر مَن تأثّر، إذ سُدّت في وجوههم أبواب الرزق، وضرب الشحّ الأرض، وبارت المواسم، وراح الشيوخ يتذكّرون شبح حرب «الأرْبَعْتَش»، فتهلع قلوبهم للذكرى.

كان أعظم حدث شهدته «الجورة» حالما أُعلنت الهدنة، وصول دفعات من المغتربين، جاؤوا يتفقّدون الأهل.

وكانت «مارينا فيّاض» بين تلك الوفود.

بل كانت وحدها، تشكّل وفدًا عظيمًا...

يومها شاع الخبر أنّ «مارينا» قادمة لتدبّر لنفسها عريسًا يكون لائقًا بها وبثروتها.

لم يصدّق رضوان الخبر، وحسبه إحدى الإشاعات التي ينشرها خبثاء القرية، ليتسلّوا بها في أوقات تجمّعهم.

لكنّ الحقيقة لم تلبث أن فرضت نفسها، حين قادت مارينا جبران إلى قفص الزواج الذهبي.

كان في العشرين من عمره، وهي تجاوزت الأربعين، محتفظة من السنين الخوالي بأكداس من الشحم واللحم. وشعر الناس بأنّ جبران علق علقة العمر.

أغرته المرأة، لا بجمالها أو بمالها، بل... بجواز السفر.

الزواج شرّع للشابّ بابًا واسعًا للسفر، للخروج من ضيق الأفق وضيق ذات اليد...

71

وها هو جبران ينفخ بالمجوز، بعد ثلاثين سنة اغتراب، عاش منها خمس سنوات في كنف مارينا، قبل أن يدبّ الخصام المنتظر، ثمّ كان الطلاق.

لا يعرف رضوان التفاصيل الصغيرة للحكاية، ولكنّه يبصر آثارها الآن، مكتوبة فوق وجه جبران، في انطفاء النور من عينيه، وانحناء قامته، وفي تلك اللوعة الموجعة تتصاعد مع النغم، فتشعل الحنين في الصدور، وتنبش الذكريات الغافية.

لكن الوقت، ليس وقت الذكريات والندم. جبران ليس يائسًا كما تصوّر له أفكاره؛ إنّه الآن يملك مصنعًا للثياب الجاهزة. ومارينا تعيش في العاصمة.

وكيف الدهر على مارينا؟

السؤال قد يجد جوابًا فيما بعد، حين يدخل رضوان أجواء هذا المجتمع الجديد الذي يحيّره ويقلقه، ويحوّل عقله إلى محطّة إرسال لاسلكية، تبثّ بسرعة البرق الأسئلة، والأجوبة، ولا تصل إلى استقرار.

اغتنم فرصة تجمّع مواطنيه، فقام إلى حقائب السفر، يفتحها، ويخرج منها الهدايا، ويوزّعها على أصحابها، فتتلقّفها الأيدي وكأنّها تتلقّى بركة حلّت عليها من قدس السماء.

وحين تأكّد من أنّ كلّ واحد تناول هديته، ولم يعد في الحقيبة سوى الصرّة الصغيرة، شعر بالرهبة:

هل يتناولها، ويردّد وصية «روزينا»، أم يتركها إلى مناسبة أفضل؟

– ولكن، هذه أفضل مناسبة، يا رضوان.

يهمس له ضميره، وكأنّه يستلهم أفكار روزينا.

تشجّع رضوان، ومدّ يده، وتناول الصرّة، ثمّ وقف وكأنه يستعد لإلقاء خطبة؛ بل ها هو يبدأ بلهجة خطابية:

– لحظة يا إخوان... سَمعْ من فضلكم.

ثمّ التفت إلى أولاده:

– هذه الهدية، حمّلتني إياها روزينا. تذكرون، روزينا، ما غيرها. كنت أهمّ بإقفال الحقيبة، حين أطلّت، وفي يدها هذه الصرّة. أتعرفون ما قالت؟

لم يتلق رضوان جوابًا، وهو لم ينتظره، فتابع:

– قالت: «يا بو نبيل، أمانة توصّل الهدية للشباب». أتعرفون ما في «داخل الصرّة»؟

سألهم، وانتظر لحظات، ليعطيهم المجال للتخمين، وحين فشلوا قال:

– فيها حفنة تراب... لملمتها روزينا من كرم المطلّ. «خذها للشباب، يا بو نبيل... الشباب بيكونوا اشتاقوا لرائحة تراب الجورة». هذا ما أرسلته إليكم روزينا. وأنا كنت أحسبها مجنونة فإذا كلماتها تردّني إلى أعماق الجذور.

ران الصمت على الجماعة، وتناولت الأيدي مناديل تمسح بها دموعًا دافئة راحت تتدحرج فوق الخدود.

حفنة تراب!

تناولها نبيل من يد أبيه، وقال:

– سوف نضعها في إناء كريستال، ونجعلها في صدر الدار، وتصبح محجّة لنا جميعًا.

72

ماذا يقول بعد ذلك؟

أحسّ رضوان أنّه أفرغ كلّ ما في ذاته، وما في جعبته: الكلام، الوصايا، الهدايا، الفرح والرقص.

ختم الرسالة، وجلس صامتًا، وقد أطفئت القناديل في عينيه؛ وبدأ الضيوف يودّعون ويخرجون...

السهرة انتهت.

الوقت تجاوز منتصف الليل، والمسافرون بحاجة إلى الراحة.

دعتهما سلمى، زوجة نبيل، إلى غرفة أعدّتها لهما، فتبعاها بصمت، وبصمت أصغيا إلى تعليماتها حول فتح الأبواب والخزائن، وحنفيات الماء، وأخيرًا التلفزيون.

ورضوان، الخبير في تشغيل الآلات المعروفة في «جورة السنديان»، وجد نفسه جاهلًا كلّ الجهل، كيف يستخدم أبسط آلة في بيت ابنه. حتّى فتح الباب

وإغلاقه، هنا، يحتاجان إلى درس خصوصي.

وفكّر:

إنّ هذه الدنيا تختلف عن دنياه.

وتذكّر أنّه بدأ رحلته عكس زمانه وأيامه، منذ وضع رجله على عتبة السفارة الكندية، في بيروت.

هذه مغامرته الكبرى في الحياة.

لم تكن أيّامه الماضية جامدة، ولكنّها كانت بحجم قبضة يده، يسيطر عليها، يفهمها. حتّى المفاجآت، لم تكن مفاجآت، على ضفاف الحاصباني، وفي «جورة السنديان».

لكن هنا، كلّ الأشياء تبدو غريبة، حتّى الناس الذين كانوا أصدقاء ومواطنين وأبناء ضيعة واحدة، يختلفون عمّا كانوا عليه من قبل، ويختلفون عن الصورة التي رسمها لهم في باله.

على هذه الأفكار، نام نومًا عميقًا. وحين استيقظ في الصباح، لم تكن الشمس في استقباله. أزاح الستائر وأطلّ من النافذة. فطالعه منظر ملأه دهشة، وغرابة: الغيوم تحجب الفضاء، وتتساقط حتّى تلامس رؤوس الأشجار في الحديقة.

والأشجار تخضع لطلائع العواصف الخريفية، فتخلع أوراقها الموشّحة بألوان قزحيّة رائعة.

وثمّة طيور لا تخشى المطر ولا العواصف، وتقفز بين الغصون. منها ما هو كبير الحجم، أشبه بدجاج الأرض، وبينها عصافير بحجم الدوري، إنّما ترتدي كل الألوان الزاهية. وهذه الطيور تعيش بين الناس، ولا تخشى رصاص القنص، وتقترب من الدور، بجرأة المخلوقات الأولى في التاريخ.

تحرّكت في صدره غريزة الصيد. خصوصًا، حين أبصر أسرابًا تأتي من كلّ اتجاه، وتنضمّ إلى أفراد من جماعاتها، ثمّ تطير مطمئنّة، ولا تخشى أن تطلق صرخاتها في رحاب الفضاء.

حاول أن يتذكّر منذ متى لم يبصر عصفورًا أو طائرًا فوق أشجار قريته، أو بين كرومها، وفشل في تحديد البداية. ثمّ فكّر في أنّ اختفاء الطيور، كان مرتبطًا بحملات القصف المتتابعة للجورة والقرى الجنوبية. حتّى «طيور أيلول»

تلك التي عرفها الناس في منطقته، أبًا عن جدٍّ، تمرّ في موعدها من كلّ عام، خلال شهر أيلول، وتتبع خطًّا واحدًا لا يتبدّل مع مرور السنين.

حتّى تلك الطيور اختفت في السنوات الأخيرة، وتركت خلفها كثيرًا من التساؤلات... بعض أصدقائه أكّدوا له أنّها بدّلت ممرّها. وآخرون قالوا، متندّرين، إنّ الطيور قرّرت عدم الرحيل، مفضّلة صقيع القطب الشمالي على نيران المدافع وقصف الطائرات...

وهناك من أكّد له أنّ بعض الطيور الموسمية ذاقت طعم الفناء، قبل أن تصل إلى حدود قريته... أبادتها سموم رشّها الفلاحون في البلدان الشمالية، لحماية المزروعات.

نظريات كثيرة، وهو لا يعلم أيَّها يصدّق.

ولكنّه يعترف، من دون شكّ، بأنّ التحوّل حصل، واختفت آثار الطيور الجميلة: الوروار الذي كانت صيحاته تعلن نهاية الصيف، طيور البجع الأنيقة السيقان، البواشق، ودجاج الأرض والسمّان... وسواها من طيور وديعة، كانت تؤنس الأجواء بمرورها، وتملأ الفراغ الذي يخلّفه الشباب، في موسم الهجرة، إذ كانوا يهجرون القرية في مثل ذلك الوقت، بعدما يجمعهم الصيف فوق بيادرها. يهجرونها، عائدين إلى المدارس، إلى الأعمال... أو إلى مواطن الاغتراب.

73

ارتدّ من أمام النافذة، واقترب من أم نبيل كي يوقظها، لِتَرى معه هذا المشهد الصباحي النادر. فإذا بها تغطّ في نوم عميق.

أشفق عليها وتركها تشبع نومًا. ثمّ اتّجه فوق رؤوس قدميه نحو الباب وفتحه، فتهادت إلى سمعه أصوات هامسة، تنطلق من الدور الأوّل من جهة المطبخ بالذات.

أغلق الباب على مهل، وهبط السلّم، متّجهًا إلى مصدر الحركة...

74

تبع رضوان أصداء الهمس، وعبقت في أنفه رائحة القهوة المطيَّبة بحبّ الهال. أولاده يجتهدون ليغلّفوا أجواءهم الغريبة بأغلفة يألفها، ويحبّها؛ وليمة الأمس،

وصبيحة اليوم. وها هم جميعًا ينتظرونه. يجلسون حول مائدة المطبخ: حسّان وإلى جانبه زوجته رائدة، جميل وزوجته فرْيال، نوال وزوجها فايز ولمياء وزوجها معين. ونبيل يلقّم ركوة القهوة، وسلمى أمام الفرن، تعدّ الكعك للفطور.

والصغار؟

– أين الأولاد يا نبيل؟

– في المدرسة يا أبي.

أجل، في المدرسة. اليوم ليس يوم عطلة. والشباب تركوا أعمالهم ليبقوا معه، وها هم ينهضون من مقاعدهم، ويطوِّقونه بعاطفة جيَّاشة، أسالت دموعه.

وجاءته قبلة نبيل مصحوبة بركوة القهوة، وفنجان الشفة المفضّل لديه:

– هذا، حتّى لا يتغيّر عليك شيء، يا أبي.

– الله يخليكم، ويحرسكم، يا أحبائي.

الدعاء يتلو الدعاء، كلّما أبصرهم يتحرّكون، أو يتحدّثون، يدعو لهم بالتوفيق، بطول العمر، بالنجاح والسلامة والهناء، لهم ولأولادهم وأزواجهم. لا يملك ما يعطيهم سوى بركته، ورضاه؛ وهو يغدق عطاءَه بسخاء، ويتدفّق الرضى من عينيه، فيغمرهم جميعًا.

– قلت الأولاد في المدرسة، يا نبيل؟

– أجل يا أبي. مدارسنا تفتح في أوّل أيلول.

– الله يباركهم وينجحهم.

والأحفاد بحاجة إلى دعائه مكررًا... أصبح عددهم ستة عشر حفيدًا، و«الحبل على الجرار» كما يقول المثل. وهو يحبّ الأولاد، خصوصًا إذا كانوا من ذريته، وإذا كانوا الوعد بتخليد اسمه للأجيال المقبلة. هذا أقصى طموحه؛ أن يستمرّ حيًّا في الأبناء، والأحفاد وما يخلّفون...

75

– الله يبارك، يا مَرَا! مثل أولاد الملوك.

أسرَّ إلى أم نبيل، فيما بعد، وهو يجلس معها يرشفان القهوة، وينتشيان بدفء اللحظات السعيدة.

قالت له مشاكسة:
– طالعين لجدهم: جمال وخفّة روح.
فردّ فورًا:
– الجمال أخذوه عنك. ومن جدّهم أخذوا الشطارة... شو قولك؟
– هذا صحيح. لن أخالفك، ونشكر الله على هذه النعمة.
ومرّت بين الزوجين فترة صمت، مثل محطة استراحة، قال بعدها رضوان:
– يا أم نبيل، أتعرفين في ماذا أفكّر؟
أجابت:
– من أين لي أن أعرف، يا رجّال؟ أفكارك دائمًا سبّاقة.
– أفكر في مستقبل الأحفاد... أتراهم يذهبون إلى «الجورة»؟
نبّهها السؤال من سباتها، فانتصبتْ له:
– ما الذي يجعلك تفكّر في هذه الأمور الآن، ونحن في بداية الرحلة؟
– لازم أفكّر، يا مَرَا. الحقيقة أنّ الفكرة لا تفارقني أبدًا. منذ سافر أولادنا وهي تغلي في رأسي. أتراهم يذهبون؟ وإذا كان أولادنا يجدون صعوبة في العودة، فكيف بالأحفاد الذين ولدوا هنا، وتربّوا على الحليب الأجنبي، واللغة الأجنبية؟ ألم تلاحظيهم أمس يتفاهمون باللغة الغريبة علينا، وحين نتحدّث إليهم يبتسمون، ويعجزون عن الجواب؟!
قالت، محاولة أن تبدّل الحديث:
– هذا أمر مؤجّل. لماذا تجمع الهموم فوق رأسك؟ افرح بهم الآن، والذي يأتي من الله، يا ما أحلاه!
– بالعكس، يا أم نبيل. علينا أن نفكّر في هذا الموضوع، ونبحثه مع الأولاد. سوف أحدّث نبيل بالأمر في أوّل فرصة.

76

الحوار أقلق أم نبيل.
إنّها في زيارة لفترة قصيرة، وقد عاهدت نفسها على ألّا تتدخل في شؤون الشباب. فما بال زوجها، يخضّ المياه الهادئة، ويحرّك المشاكل؟
ولكنّها عادت ترتاح إلى الفكرة، حين ذكر زوجها ابنهما نبيل، فهي تعرف بكر أولادها جيّدًا، وتدرك أنّه يستطيع أن يحلّ أية مشكلة بهدوئه وحكمته، من دون

أن يثير الآخرين، أو يزعجهم.

77

وحين عاد نبيل من العمل، وبعد مرور أسبوع على وصول والديه، بادره أبوه بالسلام، ثمّ دعاه ليجلسا في ركن هادئ ويتحدّثان:

– هناك موضوع هام أحبّ أن أحدّثك عنه، يا ابني. فوجئ نبيل بلهجة أبيه، الجدّية، واستعد للأمر:

– تفضل، يا أبي، أنا تحت أمرك.

– يا ابني، لماذا لا يتكلّم أولادك، وأولاد اخوتك، لغة البلاد؟ لغتنا؟

إذن، هذا هو الموضوع الذي يقلق أباه، وقد لاحظ ذلك القلق في الأيّام القليلة التي انقضت على لقائهما. هو يمهّد السبل، ويعدّ كل ما يمكنه أن يريح والديه، ويسعدهما، وبرغم ذلك تظلّ سحابة منسدلة فوق عيني أبيه.

فكّر في أنّ الغربة هي السبب. كلّ شيء، هنا، جديد على والديه، ولا شكّ أنّهما يلاحظان التحوّل الذي حدث لكلّ فرد من العائلة، ومن الأصدقاء. فالصورة المرتسمة في ذهنيهما، من الأيّام الغابرة، بدأت تهتزّ، لنأخذ مكانها صورة أخرى. وهذا أمر طبيعيّ يتوقّعه. أمّا موضوع اللغة، فكان يبحثه أحيانًا مع أخوته، ثمّ لا يلبث تيّار العمل، وتيّار البيئة، أن يطغيا، ويجرفا كلّ الكلام والاتّفاقات.

في السنة الفائتة، توصّل مع بعض المغتربين إلى اتّخاذ قرار بفتح مدرسة خاصّة، يتعلّم فيها أولادهم اللغة العربية، ثمّ تعذّر وجود معلّم. كما أنّ الرغبة مفقودة عند الأولاد، فليس هناك حافز قويّ، يدفعهم إلى أن يضحّوا بأوقات اللعب والهوايات في سبيل تعلّم لغة لا تفرضها البرامج المدرسية.

وسؤال أبيه يوقظ هذه الأفكار، من جديد! وأجاب بعد تفكير:

– معك حق، يا أبي. هناك تقصير؛ نحن مقصّرون. نأتي في نهاية النهار، منهوكي القوى نطلب الراحة، والأولاد يعيشون في عالمهم الخاص. المجتمع والمدرسة يأخذانهم منّا... وكلما كبروا، ازداد استقلالهم عنّا.

– وهل يسعد ذلك أولادكم، يا بني؟

مرّة أخرى، يطرح أبوه سؤالًا أساسيًّا، فيفتح وعيه على حياة كان يسوقها رتيبة، نتيجة العمل وطغيانه... ولكنّه لا يملك إلّا أن يجيبه:

– الأولاد يتسلّون بالهوايات: موسيقى، رياضة، رحلات... ثمّ هناك الأصحاب.

– وتفكّر، يا نبيل يا ابني، في أنّ هذا يكفي؟ وهم لا يحتاجون إلى أن يعرفوا شيئًا عن أهلهم، وأجداداهم، وجذورهم؟ لا أحاول أن أتدخّل في شؤون تخصّكم، إنّما لأولادنا حقّ علينا...

قطع رضوان عبارته، ولم يعد يتابع.

شعر بأنّه يحفر عميقًا في الماضي، ويثير غبار الذكريات: أولاده هو، كان لهم عليه الكثير من الحقوق، فماذا أعطاهم؟ ماذا قدّم إليهم سوى شحّ الأرض، والبطالة؟ وها هم هنا، في الغربة، نتيجة عجره.

يفكّر في هذا. ويتأمل عيني نبيل تطرفان؛ ويعرف أنّ القلق يغلي في صدر ابنه.

يعرف هذه العادة عند نبيل.

منذ طفولته، عيناه تكشفان عمّا يختلج في ذاته، ولا يستطيع أن يختبئ.

ويعصر الألم صدره، إذ يحسب أنّه سبّب لنبيل بعض الألم... هذا النبيل بين الشباب! هذا الذي مدّ ساعديه جسر عبور لإخوته، وانتشلهم جميعًا من حياة الفقر والمستقبل الغامض، لينعشهم هنا، ويعطيهم فرصة العمل والحياة في هذه الدنيا الجديدة الملآنة بالوعود.

مدّ يده، ووضعهما فوق ساعد نبيل وهو يتميم:

– لا تهتمّ لما قلته، يا ابني، مجرّد عاطفة تجيش في الصدر، وحماسة زائدة من أبيك المتعلّق بعالمه العتيق حتى الهوس.

ابتسم له نبيل وقال:

– لا تندم، يا أبي. كلامك أصاب كبد الحقيقة، ولكن الإنسان، يعجز عن تحقيق كلّ ما يريده في هذه الدنيا.

78

لم يُغْلِق الباب على الموضوع.

أخذه نبيل بين يديه، وطرحه في سهرة جمعت الإخوة، من دون الأولاد:

– والدنا أثار موضوعًا هامًّا: أولادنا يجهلون لغتنا، وهذا أمر نشعر به جميعًا، ونعرف أنّه يحفر هاوية بين جيلنا وجيلهم... فماذا بوسعنا أن نفعل؟

وبادرت نوال إلى الإجابة:

– الموضوع مطروح، يا نبيل، بين المغتربين كما هو مطروح على بساط البحث التربويّ عندنا، في الجامعة. أولادنا يواجهون مشكلة أهمّ من اللغة.

واعترض نبيل:

– ماذا تقصدين يا نوال؟

فتابعت:

– مشكلة الانتماء. نحن الجيل الأوّل الذي هاجر إلى هذه البلاد، وهم الجيل الثاني المولود هنا «أوكي»!... إنّهم يعرفون أنّنا لا ننتمي إلى هذا المجتمع، إلى تقاليده وعاداته، وأسلوب عيشه، ولغته. حتى لو تكلّمنا لغة سكّان كندا، فإنّ لهجتنا تختلف عن لهجتهم. وبرغم ذلك، علينا أن نختلط بالمجتمع الكنديّ في الشؤون العملية، والتربوية. ومتى نفرغ من أعمالنا، نعود إلى خيمة البيئة الخاصّة التي أنشأناها؛ وهي ليست بيئة القرية، كما أنّها غير البيئة الكندية، إنّها مزيج نما بين عالمين، وبين مجتمعين.

وتدخّل حسّان:

– ولكن هذا لا يزعجنا. على العكس، نحن نفخر بأصلنا وبتقاليدنا...

وقاطعته نوال:

– آسفة، حسّان... يمكن لم أوضح الفكرة؛ الأمر، بالنسبة إلى أولادنا، يختلف. إنّهم لا يعرفون عالمًا سوى هذا العالم. ولا عاشوا في بيئة غير هذه البيئة، ومن الطبيعي أن يرتدوا ثياب أهلها، وينهجوا نهجهم في الحياة، في العادات، كما في اللغة.

وتدخّل جميل:

– أولادنا ليسوا كنديين، مئة في المئة، يا نوال. إنّهم يحتفظون بكثير من تقاليدنا وأسلوبنا.

ردّت نوال:

– «أوكّي»، أنا موافقة يا جميل. نحن زوّدنا أولادنا بتقاليدنا الطيّبة وبالعادات التي نفخر بها، لكن هذا يتحوّل في بعض الأحيان إلى سلاح ضدهم.

ووافقتها لمياء:

– نوال على حقّ، كلّنا سمعنا شكاوى أولادنا من مضايقة رفاقهم في المدرسة كلّما سمعوهم يتكلّمون العربية مع بعضهم.

أوضحت نوال:

– هذا ردّ فعل طبيعي، لدى الأولاد. إنّهم ينقمون على أولادنا إذا سمعوهم يتحدّثون بلغة مخالفة للغتهم. ويستيقظ الشكّ الغريزي عندهم، إذ يفهمون أنّ الكلام موجّه ضدهم، وأنّ المتحدّثين تحوّلوا إلى كتلة مضادّة. ولذا يأخذون الحذر، ويستعدّون للعدوان.

وتدخّلت سلمى:

– لهذا يطلب منّا أولادنا ألّا نخاطبهم بالعربية أمام رفاقهم الأجانب. تذكرين يا نوال، حين عاد «رودي» من المدرسة بعد خناقة مع أولاد صفّه الكنديين؟

وسألها نبيل:

– ونحن هل من الضروري أن نخضع لشكواهم، ونفعل ما يريدون، من دون أن نناقش الأمر؟

فتابعت نوال:

– المشكلة، يا نبيل، يا «دارلينغ»، ليست مشكلة أولادنا نحن، فحسب. بل هي مشكلة الجيل الثاني بوجه عام. وكما سبق وقلت، ليست مشكلة لغة بقدر ما هي مشكلة اجتماعية، انتمائية. فاللغة العربية، لم تصبح ميزة بعد. هي لا تزال لغة الفئة المهاجرة التي جاءت هذه البلاد باحثة عن لقمة العيش.

وسأل جميل:

– هل يأتي يوم تصبح فيه العربية لغة مميّزة؟

فردّت نوال:

– هذا رهن المستقبل. ويرتبط بوضع المغتربين العرب... وإنّي ألمح بشائر تغيير في الأفق. فبينما كانت الهجرة، في الماضي، وقفًا على طبقة غير مثقّفة، أصبحنا اليوم نجد بين القادمين إلى كندا، عددًا من أساتذة الجامعات، الأطبّاء، المحامين، وسواهم من الشباب المثقّف الذي يحمل صورة مشرقة عن الوطن، وبالتالي، يبدّل الصورة التقليدية عن المهاجر الجاهل، حامل «الكشة»... «رايتْ».

هبّ حسّان مدافعًا:

– مش «رايْت» أبدًا، يا أستاذة نوال! إنّ هذا المهاجر، حامل الكشة، هو الذي شق السبل الوعرة، بكده، وعرق جبينه، وطموحه وعصارة جهله! هذا

المغترب الذي حقّه علينا جميعًا، وعلى كندا وغيرها من بلاد الهجرة، إذ كان له فضل كبير في عمرانها، وفي وضع حجر الزاوية في بنيانها.

وردّت نوال بهدوء:

– «آسفة» يا حسّان. أنا لا أقلِّل من أهمّية الروّاد. إنّما أحاول أن أسلّط الأضواء على وضع قائم، لا تستطيع أنت، أو غيرك أن تتجاهلوه.

79

كان رضوان يصغي إلى أولاده يتناقشون، ويده على قلبه، خشية أن تجرّهم المناقشة إلى التنافر.

وكاد يندم على طرح الموضوع من الأساس. غير أنّه توقّف عند ما قالته نوال عن الصورة الجديدة للمغترب اللبناني الذي صار يحمل شهادات جامعية، بدل «الكشة». وقفزت إلى ذهنه، صورة الشباب المصطفّين أمام شركة الطيران، ثمّ في مطار بيروت.

هؤلاء يحملون الوجوه المشرقة إلى بلاد الغربة، وفي بلادهم، أيّ فراغ يتركون؟

80

وبلاده كانت ولا تزال مشتل عطاء، تنمو فيها البذور، وما أن تفرخ وتصبح شتلات خضراء، يانعة، حتّى تمرّ عليها أيدي الأجيال المتعاقبة، والإدارات الخفيّة، فتقتلعها، وتحملها إلى البعيد، خلف الأفق؛ وتحملها إلى ما وراء البحار السبعة، إلى بُعد يعجز عن حدّ الخيال...

صور الأفواج المتعاقبة على الرحيل، تعيش في خاطره، من يوم كان طفلًا؛ كانت وجوههم خابية، كالجمر يطمره رماد الأيّام، حتّى جاءت هذه الدعوة، فقادته إلى مطارح غربتهم، واندلعت لهبة الحنين في صدره اندلاع النار في القشّ اليابس، وعادت الذكريات تتساقط، وتهوي في عينيه.

81

لماذا هو هنا؟

ماذا جاء يفعل في بلاد الغربة؟ والصقيع؟

يزور الشباب، طبعًا. يتعرّف إلى «الأحفاد»، الذين وُلدوا وكبروا في الغربة، ويحمل شحنات من دفئهم إلى شتاء عمره، والأيّام مقبلة.

«الأيّام المقبلة؟»

كيف ستكون أيامه المقبلة؟

يكاد لا يجرؤ على السؤال. فهو هنا منذ أيّام قليلة؛ وهو هنا للزيارة، ولم يفكّر في أن يمدّ يده ليفتح واحدًا من الأبواب المغلقة، الأبعد من إدراكه.

وها هو يجلس في ركن اختاره من منزل ابنه. يجلس أمام النافذة المطلّة على شارع عريض، يدخّن ويتأمّل ويناقش نفسه:

«تغيَّرت كثيرًا، يا رجل! منذ وطأت قدماك هذه الأرض الغريبة، ابتعدت عن نفسك. صارت الغربة جذارًا بينك وبين حالك. لطالما حلمت برؤية وجوهه الحبيبة. لكم صلّيت ليحقّق الله أمنيتك ويعيدهم إليك. هكذا كنت تصلّي دائمًا تطلب أن يعودوا هم إليك. ولم تفكّر في أن تحملك الأيام إليهم، أنتَ ترافقك أعوامك السبعون، وأم نبيل، وكومة المشيب فوق رأسك، وجهلك.

أجل. هذا ما يقتلك: جهلك.

هذه المسافة الممتدّة بينك وبينهم، بطول عشرين سنة من الزمن، هي صحراء قاحلة، مسطّحة، لم يكتب فوقها حرف من العلاقة بينكم. وكلّ يوم، تمرّ عليها رياح الغربة، وتجرفها، طبقة في أثر طبقة، وتتركها في العراء مكشوفة، بعيدة عن حماك.

هذا لبّ المشكلة.

وجئت أنت إليهم، تحمل قلبك فوق راحتيك، والشوق في عينيك، وكلّ الآمال والأحلام الغافية؛ وتحاول أن تقترب منهم خطوةً خطوة. وتحسّ أنّهم يبتعدون عنك، وينزلقون من بين أصابعك كالزئبق.

لماذا يبتعدون عنك هكذا؟

لحمك ودمك، هم، ونسغ الحياة والهوى، ما هو السرّ الذي امتزج بدمهم حتّى أبعدهم عنك؟ وهل حقًّا هم يبتعدون؟ أم أنّك أنت عاجز عن اللحاق بهم؟ وتصوّر لك أوهامُك الأفكارَ المضلّلة؟

ألا تذكر كيف استقبلوك وزوجتك، ودفء وجوههم، وترحيبهم الذي امتدّ بسطًا حمراء لتطأها قدماك؟ والحبّ، والنوايا الطيّبة، وكلّ ما يطلبونه هو

رضاك! ما بك، يا رجل؟

وتقول لك أفكارك، تغيَّروا، وهذه حال الدنيا. كلّ يوم نتغيّر. أنت تغيّرت. الناس الذين هاجروا من قريتك، من «جورة السنديان»، والتقيتهم واحدًا واحدًا، منذ وصولك... هم أيضًا تغيَّروا.

يصعب عليك أن تمزّق صورهم القديمة في الجيب الملاصق لقلبك، وتستبدل بها صور وجوههم الحاضرة.

وتقول لنفسك: يمكن، هذا هو السبب؛ لم أتوقّع أن أراهم هكذا.

تقول لنفسك: صعب على المرء أن يغسل آثار نصف قرن من الزمن، برمشة عين...

كان لا بدّ لك من مواجهتهم، ولكن فاتك أن ترى «الطرَّاش» الذي يحمل السطل والفرشاة، ويعمل، مع كلّ رفّة جفن، في كلّ لحظة من لحظات الليل والنهار. يعمل باجتهاد ومثابرة.

هل أبصرت وجه جبران، كيف صار؟! ألم تلاحظ انحناء كتفيه وتهدّل رموش عينيه؟

و«نجوى»، تفّاحة الجورة، الوردة النضرة التي غادرت البلاد قبل نبيل بأعوام، وكانت تحمل في الجيب رسمًا لشابّ غريب، طلبها عروسًا له؟

أين العريس يا نجوى؟

أم أن هذه آثاره باقية، في غضون تزنّر الفم المختوم بالشمع، في النظرة المنكسرة، والجسم المترهّل، قبل أوانه؟

و«سليم» ابن جارك «الدَحْنون»؟ يوم سافر سليم حضنته بين ذراعيك، وكأنّك تحضن واحدًا من أولادك، ومسحت بيديك دموعًا سألت من عينيه الزرقاوين... وكانت عيناه بلون بحر بيروت في أوج صفاته.

ماذا جرى لصفاء العينين؟ وهل ستظلّ غيوم الجزيرة منتشرة فوقهما؟ أم تشرق الشمس في عينيك، من جديد، يا سليم؟

و«شاهين» ابن عمك، «نمر البراري»... كيف دجّنتك الغربة، يا شاهين؟ كيف سلبتك العافية، وحوّلت قوائم النمر إلى عكّازتين ركيكتين، تحملان بصمات العصبي؟

و«نبيهة» زنبقة حرمون، نبيهة!.. كنت تقول في سرّك، في لحظات الانشراح والفرح: «لا أحد ينافس أم نبيل في الجمال، سوى نبيهة. عيناها مقطوفتان من نرجس الوادي. شعرها حبال الليل فوق غابات الصنوبر. وبشرتها ثلج حرمون إذ تشرق فوقه شمس الربيع.

نبيهة ربطت مصيرها بمصير المغترب الثريّ «بديع المعزّ». وكان عرس غنّى له الحادي في الوادي، ورقَصْتَ أنتَ حتّى شروق الشمس، وسهرتْ «الجورة» عشر ليال، في ضيافة العريس. ولا تزال صورة «الزنبقة» في ثوبها الأبيض الفضفاض، وإلى جانبها العريس المنشّى، ولا تزال الصورة تزيّن صدر دارك ودور الأقارب... يومها، وزّع بديع صور زفافه مع علب الملبّس، على جميع الأقارب، لتبقى عالقة في البال، وفي صدر الدار.

ونبيهة استقبلتك بالدموع، واعتذرت عن غياب بديع: «أصبح مُقعدًا... منذ عشرين عامًا وأنا أخدمه»!

ثمّ أضافت، وهي تمسح دموعها: «لم تجفّ الدموع في عينيَّ منذ غادرت الجورة»...

وحاولتَ أنت أن تسأل: «والأولاد، يا نبيهة؟ ألا يعوّض الأولاد عن المسافة الشاسعة بين العمرين؟»

وتهز نبيهة رأسها، تقول لك: «لا تصدّق، يا بو نبيل، أولاد هذه البلاد، يخصّون هذه البلاد. لا تصدّق إذا قالوا لك غير هذا...».

– لماذا لا تعودين إلى الجورة، يا نبيهة؟

ويخرسها سؤالكَ، فلا ترد.

وتسأل أنتَ أفكارك: «وإذا عادت نبيهة إلى الجورة، هل يعود النرجس إلى عينيها؟»

نعم، يا رجل. هذا هو واقع الحال الذي مسّك فارتعشت أعماقك ووقف، مثل الجدار، حائلًا بينك وبينهم.

نبيهة علّمتك الدرس الأوّل في معنى الاغتراب الأبدي. فتحتْ عينيك على الأيّام المقبلة. قالت لك بأنّ أولاد كندا يخصّون كندا. أي أنّهم لم يعودوا أولادك وأحفادك، ولن يعودوا، مهما أكّدتْ ذلك هويّاتهم. الكتابة على الورق تظلّ كتابة ورصف كلام؛ والحقيقة في هذا البحر المتماوج مع رياح التقلّب والتغيير...

وأنت ترسم في عينيك هذه الصورة القاتمة، وكأنّك تستوحي الغمام المرفوف فوق الجزيرة المحوّم حول السطوح والغابات. وتنسى، يا رجل، تنسى أنّ التحوّل الذي حصل لنجوى، وجبران، وسليم، ونبيهة، وشاهين، والشباب... كان ثمنًا دفعوه في سبيل نجاح آخر، أبعد من حدود النفس.

نجوى قنعتْ بنصيبها، وانصرفت إلى تربية أولادها، خلّفت ثلاثة منهم لكندا، وجميعهم تعلّموا، وتخّرجوا من الجامعات، واستلموا مراكز محترمة...

جبران لم يخلّف ولدًا، ولكنّه أنشأ مصنعًا يخزي عين إبليس.

وسليم الذي كان أشدُّ طموحِه، في الجورة، أن يرعى الرزقات، بات يملك مخزنًا لبيع الملابس الجاهزة.

وشاهين كان سيظلّ «نمر البراري» لو لم تدجّنه كندا، وتفسح له في الجال ليصبح مالكًا لأكبر فندق في الجزيرة.

أمّا نبيهة فقد عوّضت من الزوج بأولادها؛ وقد أخبروك عن ابنها الكبير، «أستاذ في المحاماة، ومن أعوان رئيس الوزراء». وابنتها «نجمة سينما» شهيرة. وإذا شاءت نبيهة أن تنظر إلى الصورة المشرقة في حياتها، فإنّ شعاعها يكفي ليجفّف الدمع من عينيها، وحتّى آخر العمر.

المهمّ، كيف تنظر أنت إلى الأوضاع، يا رضوان.

المنظر من هذه النافذة، هو غيره من تلك، وهكذا وجوه الناس، وأنت تصرّ على الوقوف في مكان ثابت، وتجرّ أولادك والآخرين، ليقفوا معك، ويردّدوا كلماتك، ويحفظوا فلسفتك، ويتقبّلوا إصرارك على أنّه لا سعادة خارج تلك البقعة الضيّقة من الأرض، والمدعوّة «جورة السنديان»... وإذا كان هذا صحيحًا، فكيف، كيف بربّك، يعيش سائر البشر؟

82

استيقظ رضوان من أغرب حوار مع الذات، وشعر بأنّه يعود من حلم خطفه من زمانه ومكانه، وحمله بعيدًا، ثمّ طرحه في أدغال التساؤلات قبل أن يعيده إلى واقعه.

تلفّت حوله، فلم يجد أحدًا. حتّى زوجته، لا يَسمع لها حسًّا. ازداد شعوره بالضياع والوحدة:

– أمّ نبيل! أين يمكن أن تكون أم نبيل؟

83

– هل تحبّ كندا، يا «مايكل»؟

الصغير يبتسم ولا يجيب، وأمّ نبيل تحضن حفيدها، ابن السنوات الثلاث، تداعبه، تعلّمه ما تذكره من ألعاب الطفولة، مستخدمة يديها، وكل الإشارات المطيعة، لتستطيع أن تنقل إليه أفكارها: – مدّ يدك، يا ستي، مدّها هكذا... عافاك!

والطفل يفهم ويقلّدها، ويجلس فوق حضنها بهدوء. يحسّ بالغريزة أنّ هذا الحضن هو عرضه، وله الحقّ في أن ينعم فوقه بالطمأنينة. ويتابع الأصابع المعروقة، يقلّد حركاتها، ثمّ ينظر إلى وجه الجدّة، وكأنّه يستفهم منها: هل أجدت؟ والجدّة تأخذ كفّه، ثمّ تتناول كلًّا من الأصابع على حدة وهي تردّد: – هون بركة مي... اجا العصفور ليشرب: هذه أمسكته، هذه ذبحته، هذه نتفته، هذه شَوَتْه، وهذه طيّرته: ويتْ... ويت... طِيرْ... يا بو سُكَعْكَعْ.

يضحك الصغير من أعماق قلبه. لا يفهم القصّة، إنّما يدرك من الإشارات، إنّها قصّة مسلّية وطريفة، فيمدّ يده من جديد، تمسكها جدّته، وترفعها إلى شفتيها تقبّلها: – تسلم لي يدك، يا حبيبي.

يشدّ اليد، يحاول أن ينتزعها. ما هذا الذي أراده. يومئ إلى جدّته، لترجع إلى اللعب...

تتذكّر لعبة أخرى، فتأخذ يده اللدنة بين يديها:

– هذا كفّ الدينار. هذا زند الأسوار. هذا كوع السلّة. وهذا وكر الفار... كُرْ... كُرْ... كُرْ...

وتدغدغ الطفل تحت إبطه، فيضحك. وتشيع ضحكاته المرح في نفسها، وفي الجوّ الهادئ، الجادّ. ولا يفوتها جني الحلاوة من فوق الثغر الورديّ وتشعر بأنّها نالت نصيبها من الهناء.

لو يتركونه لها، طوال الوقت!

لو!

ثمّ لا تلبث أن تتذكّر إخوته الأكبر منه، وأبناء العمّ والعمّة. إنّها تتفاهم مع الصغار بسهولة؛ إنّما الكبار منهم، لا تعرف كيف تقترب منهم بأيّة لغة تخاطبهم. إنّهم يحشرونها في زاوية ضيّقة من الضمير، وتحسّ بالنقص، والعجز

عن بلوغ دنياهم. وتبقى في زاويتها، تتأمّلهم يلعبون، يقرأون ويضحكون بعد أن يملأوا الجوّ بصخبهم، وأحاديثهم المبهمة... تبقى في الزاوية، وهم يكبرون وحدهم، مثلما كبروا في أثناء بعدهم عنها، حين كانوا صورة في البال واسمًا فوق الشفاه. وحين كانت تسمع أخبارهم عبر الرسائل، أو تأتيها أصواتهم فوق الأشرطة المسجَّلة، وكانت في تلك الأيّام البعيدة تحلم، بأنّ اللقاء قد يزيل كلّ غموض وسوء فهم، بينها وبينهم. حين تلقاهم لا بدّ من أن تحدّثهم بلسانها، وسوف يفهمون كلّ كلمة، ويدركون قصدها... أوَلَيسوا من دمها، وروحها؟ أوَلمْ ينطلقوا أسهمًا أبعد من مدى العين، ومسار القلب؟

وهذا واحد منهم يملأ حضنها دفئًا وسعادة، ويملأ الفكر قلقًا وعجزًا.

84

تذكّرت زوجها الذي تركته في الغرفة المجاورة، واعترفت لنفسها بأنّ أبو نبيل على حقّ، لن يكون التفاهم سهلًا، بينهما وبين الأحفاد على الأقلّ؛ وسوء التفاهم، سوف يظلّ قائمًا، ما دامت اللغة العربية هي الجسر الذي يستطيع أن يصل الأجيال أو يفصل بينها.

ثمّ هناك أمور أخرى غير اللغة؛ منها أسلوب التصرّف والمسلك.

بدأت تلاحظ الحرّية التي يمارسها الأولاد، من دون أن يخشوا زجر الأهل، وردعهم. إنّهم ينطلقون على السجيّة، يضجّون، يتعاركون ويفعلون كلّ ما يخطر لهم، فلا يتحرّك أب أو أم لإيقافهم عند حدّ.

ما هكذا ربّت هي أولادها... وإذا تسامحت هي بعض التسامح، فأبو نبيل يرفض هذا الأسلوب. وتمنّت في قرارة نفسها، أن تكون له الإرادة ليلجم نفسه فلا يدخل في هذا الشأن الذي لا يعنيه، بقدر ما يعني الوالدين.

ثمّ، ماذا تعلم هي أو زوجها عن هذه الدنيا الجديدة التي يعيش فيها الأولاد والأحفاد؟ أو لا يجوز أن يكون هذا هو المطلوب؟ هذا الاندفاع اللامحدود، خارج كلّ رقابة، أو تضييق!

ولم يخطر لها أن تجري المفاضلة بين أسلوبها القديم وهذا الأسلوب، إذ لم تكن مستعدّة للانطلاق في المتاهات...

كانت تعالج هذه الأفكار حين دخل أبو نبيل فجأة وهو يتمتم اسمها:

فردّت بمرح:

– هنا. أنا و«مايكل»... كنت أعلّمه ألعاب الأولاد.

ثمّ أشارت إلى حفيدها، ليذهب إلى جدّه، لكنّ الصغير لم يكترث لإشارتها.

كان قد أقام جسر حوار معها، وارتاح إليها، وإلى دعاباتها، ولم يكن مستعدًّا ليخطو خطوة واحدة باتّجاه الكهل الواقف أمامه.

ولمّا ألحّت جدّته، فرّ الصغير من حضنها، ومضى إلى غرفة ألعابه.

وعادت الغرفة تحتويها مع زوجها، وعاد السؤال المؤجّل من جهتها:

– لماذا أثرت موضوع اللغة يا بو نبيل؟ أخشى أن يأخذ على خاطر الشباب. نحن هنا، في زيارة، أليس كذلك يا رجال؟

وردّ عليها باستسلام:

– يمكن الحقّ معك يا مَرَا. لكن الأمر صعب عليّ، حين لم أستطع أن أتفاهم مع أحفادي... لحمي ودمي. أخاطبهم، فيقفون أمامي كالدمى، وأنا معهم، مثل الأطرش في الزفّة...هل تعجبك حالي هذه؟

فقالت بهدوء:

– لستُ أفضل منك، لكن الفرق بيننا هو أنّك تريد «تقويم المقتاية» وأنا أتقبّل الأمور كما تأتي.

وهز رضوان رأسه موافقًا:

– هذا صحيح... وأرجو أن تبقي على بركتك، يا أم نبيل. صدقيني إذا قلت لك إنّي أثرت الموضوع غضبًا عنّي. لم أحضر لإزعاج الشباب، ولكن هذه فرصتنا لنعرف كيف يعيشون في الغرب... هل فهمت كلّ ما قالته نوال؟

أجابت فورًا:

– نوال أفهمها من دون أن تحكي. طبعًا حديثها فلسفة، لكنّه واضح.

واغتنم رضوان الفرصة ليقول إعجابه بنوال:

– سبحان من خلقها! تجبر الطرشان على أن يصغوا إليها! أنا من زمان أحسب أنها ستبرز في العلم، وها هي تشعّ كنجمة. ولكن...

– ولكن ماذا؟ دائمًا تفتح الأبواب المغلقة.

– لا يا أم نبيل... هذا التردُّد منّي، هو بدافع غيرتي على أولادي. كانت هي تحكي وأنا أستمع إليها بفخر، وأفكّر، في الوقت نفسه، في أنّ كلّ كلمة تقولها

تغرس مسافة جديدة بينها وبين جورة السنديان؛ بل إنّي كنت أتوق إلى أن يسمعها كلّ من يقيم في الجورة.

انتفضت أم نبيل متحمّسة:

– يعني سوف تظلّ «الجورة» مقياس كلّ الأمور، عندك... المهم أن ينجحوا، ويهنأوا بحياتهم، أينما كانوا.

– هْنيا لك، يا مَرَا! الله وهبك نعمة التسليم بالأمر الواقع، وغرس في صدري نقمة القلق.

ثمّ اقترب رضوان، وفاجأ زوجته بضمة حنان وهو يتمتم:

– ماذا كان سيحدث لي، لولاك، يا أم نبيل؟

انتشر الخجل فوق قسمات وجهها، وتلفّتتْ، بالغريزة، لتتأكّد من أنّ واحدًا لا يختلس إليهما النظر. وسمعتْ حفيدها يغنّي، في الغرفة المجاورة، فاطمأنّ بالها، وتركت ذراعي زوجها تضمّانها بحرّية، وأسندت رأسها إلى كتفه، وقد شعرت بأنّ قلبها يخفق بعنف، مثلما خفق له، عند اللقاء الأوّل.

85

كان رضوان وزوجته، وحدهما، في البيت:

الكبار ذهبوا إلى عملهم، والأولاد في المدرسة، وبقي «مايكل» معهما، إذ لا يزال دون سنّ الدراسة.

أما الضيوف، فقد خفّ إقبالهم، بعدما قاموا بواجب السلام، وانصرفوا إلى أعمالهم.

وقام رضوان برحلة في اتّجاه المستقبل، فبدت له الأيّام الآتية طويلة، رتيبة، تحمل شحنات من الضجر، كما تطوّقه بطوق خفيّ، فيحسّ بأنّه سجين الغربتين: غربة الوطن، وغربة اللسان.

لا أحد، هنا، يطرق الباب.

لا أحد ينادي من باب الدار: «وَيْن رحتوا يابا؟»، فيردّ هو من الداخل: «تفضّلوا أهلًا وسهلًا»...

في أيّ وقت، من أوقات النهار والليل، «مصطبته» تستقبل الضيوف أصدقاء العمر، رفاق الصيد، الشباب والكهول، النساء والأطفال.

«داره مفتوحة». هذا التعبير يطلقه مواطنوه في «جورة السنديان» على دارته الصغيرة المتواضعة، عند مطلّ الضيعة؛ وبابه لا يوصد في وجه طارق. بل إنّ الباب بقي بلا مفتاح، إلى يوم غادر «الجورة»... حين جاءه «فرحان» السنكري، وركّب قفلًا للباب.

ومن قبل، كان يعتبر القفل إهانة شخصية له، لوجوده. يقفل بابه؟ في وجه من؟

اللصوص؟ أيّ لص يجرؤ على الاقتراب خطوة من سياجه؟ ثمّ، من أين يأتي اللصوص؟ أهل «الجورة» يعيشون أهلًا وأحبابًا، فمن أين يدخل اللصوص؟

أمّا هنا، فهو سجين. حتّى الطقس، يسلبه حرية التحرّك والتنقّل في الشارع، والنظر إلى الطبيعة.

إنّه في أواخر أيلول، شهر القطاف والجني في بلاده، وهنا هبطت الحرارة إلى حدود الصفر. والغيوم تتلبّد في الفضاء، والرياح تهدّد وتعِد... ووعودها لا تبشّر بالإشراق.

وإذا كان هذا طقس أيلول، فماذا ينتظره في كانون؟

يتساءل، وهو واقف أمام النافذة، وعيناه تسرحان فوق مناظر غير مألوفة، وتجتازان المدى، حتى تبلغا الأفق البعيد، من دون أن يصدمهما تلّ أو جبل.

هذه الجزيرة، مثل راحة اليد، منبسطة، لا تلّة ولا واد. وهو موعود من نبيل، برحلة صيد قبل أن تتجمّد المياه، وتهجر الأسماك لتختبئ في الأعماق... والرحلة تسمح له بالتعرّف إلى بعض معالم الجزيرة.

أمّا الآن، فالمواعيد مؤجّلة، وهو يتنقل بين غرف الدار، من نافذة إلى باب، ويبصر من بعض الجهات، مساكن الجيران...

جيران؟! وهذه المسافات الفاصلة من الحدائق والبساتين؟!

لا. لا جيران هنا! وحتّى لو وُجِدوا، فهم غرباء. وهو لا يجرؤ على أن يفتح الباب، ويجرّ قدميه إلى الشارع.

حتّى الشارع هنا يتحدّث بلغة لا يفهمها!

ما هذه الإشارات؟ إلى أيّ مدى تسافر هذه الخطوط العريضة المسطحة؟ إلى أين تصل؟

أسئلة يطرحها رضوان، ولا يبحث لها عن جواب. يعرف أمرًا واحدًا، هو أنّه لو حاول أن يبدأ المسير على واحد من تلك الخطوط، فسوف ينتهي في الفراغ، وفي غربة مكثّفة، تضيعه. إذن، فليبقَ في المنزل، حيث ينعم بالدفء، وأنس زوجته وحفيده الصغير. تذكَّر قولًا قديمًا: «المرأة تدفئك في شتاء العمر!»، والقول ينطبق عليه الآن، وهو يقترب من الشتاء، من دون أن يستعدّ له.

86

تراجع من تأمّلاته، وأخذ الراديو «الترانزستور» بين يديه؛ إنّه يشبه الراديو الذي أهداه إيّاه نبيل، قبل سنوات، وكان رفيقه والجسر الذي يصله بكلّ العوالم والمستجِدّات.

أدار الزرّ وراح ينقل الإبرة بين المحطّات. يبحث عن محطّة واحدة تبلغه السلام... من اليمين إلى اليسار تسير الإبرة، تنتقل من محطّة إلى محطّة، ويتوقّف لدى سماعه الموسيقى، أو أصوات المذيعين، فتنكشف له غربته على ألسنة أولئك الأغراب. ويقفز بالإبرة إلى محطّة أخرى. ثمّ يدرك أنّ الأصوات هنا تتشابه، كذلك الموسيقى.

و... فوجئ بنغم ردّه إلى الحنين، وذكّره بأنغام تربّى عليها وشغف بها وتولّه، ثم خلّفها هناك، بين كروم «الجورة» على ضفاف الحاصباني، بين شموخ الحور، واستحياء الصفصاف، وعنجهية الدلب، وخيلاء الدفلى.

هناك، في مواسم قطاف العنب، ومشق الزيتون، وحصاد القمح، حين تصدح الأنغام، دافئة حنونًا، فتحوّل الأجواء الساكنة إلى مهرجانات يزفّ فيها الفرح، وترقص الطمأنينة، ويهدأ البال، وتستكين النفس، فتقترب من النعاس الأخير.

ولكن اللحن خدّاع، لم يلبث أن كشف عن حقيقته، ومال عن رضوان. وخلّفه في شرود مع الذكريات. إنّه لا يملك إلّا أن يملأ فراغ اللحظات الحاضرة، فيقارن كلّ ما يراه ويسمعه ويحسّه بما كان له هناك، قبل أن يقلع في رحلة العمر هذه.

أمّ نبيل ترافقه بصمت. تشعر بأنّه قلق ضجر، وأنّ الراديو يزيد في خيبته، وتفكّر في أن تساعده بأيّة وسيلة، فتنقل عينيها إلى التلفون: – لو نطلب لمياء، نسألها متى تأتي! بالأمس وعدتنا بأنّها ستأتي.

يتأمّل السمّاعة بنزق، ثمّ يوجه كلامه إلى زوجته:

– اطلبيها أنتِ...

قالها، لا تهرّبًا من التحدّث إلى لمياء، بل خوفًا من هذه الآلة العجيبة، التي تشبه الأفعى، رأسها بين يديك، وذنبها يصلك بالمجهول.

تعود زوجته تزيد في قلقه:

– أنا لا أحفظ النمرة.

فيردّ بانفعال:

– وقالوا لك، أنا حفظتها؟ يجب أن نطلب من الشباب أن يتّصلوا هم بنا.

وكان في أعماقه يفكّر في أنّ لسع الأفعى أهون عليه من صدمة صوت غريب.

وتنادي أمّ نبيل حفيدها، وقد فكّرت في محاولة أخرى تُدخل الفرح إلى نفس رضوان:

– تعال، يا ستّي، يا مايكل... تعال.

ويحضر الصغير بسرعة، فتشير إليه ليفتح التلفزيون... وتنفتح، عبر الشاشة، عوالم عريضة، وكأنّ جزءًا من إحدى المدن المسحورة انتقل إلى قلب الغرفة.

نجحت المحاولة، أبو نبيل يرتاح فوق المقعد، يتأمّل حركة الممثّلين، ويحاول أن يخمّن ما يحدث من الإشارات، وأصداء الصوت، ويجلس بقربه «مايكل» وعيناه مشدودتان إلى الصور المتتابعة، ومع تحرّكها تتوالى ردود فعله، فيصرخ، أو يضحك، أو يقفز من مكانه؛ ولا يملك الجدّ إلّا أن يظهر فرحه به بذكائه وسرعة خاطره.

– مايكل يفهم أكثر منّا، يا مَرَا! ما قولك؟ سنظلّ هكذا، مثل الأطرش في الزفّة؟

وتردّ عليه، من دون أن تدير نظرها عن الشاشة:

– علينا أن نعود كالأطفال، لنستطيع فهم هذه البلاد.

وهنا حبكت النكتة مع رضوان:

– تعودين كالأطفال، عودي وحدك، يا ستّ أم نبيل. أنا قرّرت أرجع إلى بلادي، مثلما تركتها، لا أكبر، ولا أصغر.

وضحكتْ أمّ نبيل من كلام زوجها، وتجاوبًا مع قهقهات حفيدها التي بلغت ذروتها، وكأنّه يسجّل بها أقصى ما بلغته القصّة من المرح.

وأخرس الضحك والحوار رنين متواصل داخل المنزل.

ولم يدرِ رضوان هل يفتح الباب أوّلًا أم يردّ على التلفون؟

وشعر بأنّ هناك قوّة أبعد من إرادته، تدفعه نحو الباب.

87

لم يخطئ حدس رضوان. الرنين ينطلق من جرس الباب. وحين فتحه أبصر «شحادة الأسمر»، واقفًا هناك، وقد تدثّر بمعطف واقٍ من المطر، وارتدى قبّعة فرو تلفّ رأسه، وتتدلّى حتّى تغطّي أذنيه: – شحادة الأسمر! الله، الله يا دنيا! من قال نلتقي هنا، يا شحادة؟

هجم رضوان يعانق صديقه القديم، وقد جمّدته المفاجأة، ثمّ احتضنه وقاده إلى الداخل، ونادى زوجته بحماسة:

– أمّ نبيل، قومي شوفي مين عندنا.

نهضت أم نبيل بحماسة، وبلهفة استقبلت الضيف:

– أهلًا وسهلًا... أهلًا بشحاده. كيف الدهر معكم؟ كيف حال أختي فريدة؟

– فريدة بخير، تسأل خاطركم. ما قدرتْ ترافقني وتترك «الستار». إن شاء الله المرّة القادمة نأتي معًا.

لم تستوضح أمّ نبيل أكثر من ذلك. إنّها تعلم أنّ فريدة تشتغل مثل سواها من النساء، في «الستار»، أي مخزن البيع، وسمعت شحادة يسترسل في الشرح: – من حين قدومنا، من البلاد، فريدة استلمتْ «الستار» تعلّمتْ اللغة، وصارت قادرة تحكي مع الزبائن، وبقي محسوبكم «جَحْش كُر، لا ينفع ولا يضرّ».

تلقّته أم نبيل:

– أنت كبير القدر، خيي شحادة، شو هالحكي؟!

جلس الضيف بين الزوجين، على عرش التأهيل والضيافة.

لو هبط ملاك من السماء، لما لقي من حرارة الترحيب ما لقيه شحادة من رضوان وزوجته، خصوصًا في تلك الساعة من يومهما؛ لقد انتشلهما من فراغ اللحظات، وأعاد إليهما الحماسة، والمرح...

وتابع كلامه، وكأنّه قادم ليشرح لهما ما قصرا من الإلمام به منذ وصولهما:

– البلاد هنا، فريسة الشاطر والذي لا يعمل، لا يعيش.

هزّ رضوان رأسه موافقًا:

– هذا صحيح يا شحادة. البلاد بلاد شغل وركض، ومن لا يعمل يموت من الضجر.

– صدقت، يا بو نبيل؛ هنا، لا تجد إنسانًا واحدًا تزوره، أو تتحدّث معه حين يخطر في بالك. أقول تلك الحقيقة، لولا الشباب، فقدت عقلي من زمان... أولادك سبب بقائنا، وإلَّا، ما كنّا عرفنا أين نقيم، أنا وحرمتي.

قالت أم نبيل:

– الحياة صعبة، في البلاد وفي المهجر. الدنيا تغيّرت.

وافق شحادة بشدّة:

– الدنيا تغيّرت. هذا كلام جوهري. فايق، يا بو نبيل، على أيّام زمان؟

كان رضوان يستمع إلى صديقه، وينتظره ليصل إلى هذا الباب، ويفتحه. لذلك، استأذنه لحظة، ليحضر ركوة القهوة الجاهزة عن النار، ويعود، ليستأنف معه الحكاية الغارسة جذورها عبر نصف قرن من الزمن.

88

هذا هو شحادة، يلتقيه بعد فراق ربع قرن، قضاه صديقه في هذه الغربة.

سكب القهوة، وقدّم الفنجان الأوّل للضيف، ثمّ ناوله سيجارة وأشعل هو واحدة، واستراح فوق المقعد:

– الشتاء يبدأ باكرًا، عندكم، خيِّي شحادة.

ابتسم له صديقه وهو يعود معه على متن اللحظة، إلى نقطة أخرى بعيدة، بعيدة... إلى بلاد تخشى الشمس، إن هي فارقتها، أن تفارقها حرارتها ودفؤها ونورها. تلك النقطة التي جمعتهما في أوج الشباب، ثمّ قذفتهما في وجه الحياة.

وكانت أرضهما امتدادًا منبسطًا من سفوح جبل الشيخ، إلى أقصى بقعة في جبل عامل؛ وفوق ذلك المنبسط عرفا الشباب ومطلع الكهولة.

شحادة الأسمر من «دير ميماس»، قرية الزيتون الوادعة، على الحدود الجنوبية. وكان لشحادة بساتين زيتون، وحقول قمح. وكان شابًّا يعمل في

الأرض، ويتفاهم معها، بكلّ لغاتها، وفي كلّ الفصول. وبين الفصل والفصل تمرُّ المواسم، وتأتي انفراجات، يتمتع فيها المرء بالهوايات، وكانت هوايته الصيد. صيد السمك، وقنص الحجل.

كيف تعرّف إلى رضوان؟

يقرأ في عينيه الآن، ويحاول أن يصل ما انقطع بينهما، أثناء الفراق. هناك، في تلك البلاد المطليّة جدرانها بالأنس، والدفء، حيث لا ينبت الإنسان شجرة مستقلّة، بل هو واحدة من أشجار الغابة. في زوايا ذلك العالم، البعيد عنهما الآن، تعارفا، أوّل ما تعارفا، في المطحنة، حيث كان رضوان «برَّاكًا»، ويجهل كلّ شيء من أمور غده. وكان شحادة يحمّل عدول القمح فوق ظهر بغل قويّ، ويقصده إلى «مطحنة الجوزة» كما يحلو له الآن أن يسمّيها، نسبة إلى شجرة الجوز الباسقة الناشرة ظلالها وعطرها فوق المطحنة وسواقيها...

وفي ذلك الجوّ العابق بالحرّية، والطمأنينة، وغبار الطحين، وأحلام الشباب، كان شحادة يقضي ساعات، بعد أن يفرغ من طحين القمح، يساعد رضوان، يتحدّثان، أو يحلمان بالغد، ويلاحقان النساء بأطراف العينين.

وفي أيّام أخرى، كان شحادة يقصد رضوان، راكبًا فوق ظهر بغله، لا قمح معه ولا برغل، وينتظر صديقه، حتّى يفرغ من عمله، فيدعوه لينزلا معًا، ويصطادا السمك النهريّ من الغدران الغافية تحت ظلال الدلب والصفصاف.

وفي أوقات أرحب مدى، كانت الرحلات تحملهما إلى سفوح جبل الشيخ أو بين تلال «العرقوب»، حيث يطيب لطيور الحجل أن تفرفر وتطير، غير عابئة بمفاجآت القنّاصين.

89

تلك كانت أيّام مضت. وجاء يوم افترقا. فرّقتهما حياة العمل والزواج ثمّ كانت هذه الغربة الشرسة:

– لم أصدّق، يا رضوان، حين أخبرني نبيل أنّكما قادمان لزيارة كندا. كنت أنوي أن أحضر إلى المطار، لكنّي أصبت بدور برد أقعدني في الفراش. الطقس هنا، لا يساعد. ضباب، برد، ورطوبة.

قال رضوان:

– هذا ما لاحظته، منذ وصلنا، لم تشرق الشمس مرّة واحدة.

هزّ شحادة رأسه:

– لا نزال في الصيف... بعد الخير لقدّام.

الخبر ليس جديدًا على رضوان. يعرفه من رسائل أولاده، ووصفهم للمناخ القاسي، في هذه المنطقة من كندا، المتاخمة حدود القطب الشمالي.

كان يسمع أخبار الطقس، ويسجّلها في خانة من الوعي، ولا يدرك معناها تمامًا، حتّى وصل إلى هنا، وبدأ يقرأ الحكاية من أوّلها، ويسمع شحادة يتابع: – في البلاد، يقولون: «بين تشرين وتشرين صيف ثان»، ونحن، هنا حتّى صيفنا شتاء.

وصمت شحادة فجأة. أحسّ أنّه تمادى في الكلام عن قسوة الطقس، وهذا قد يسبّب اليأس للضيفين الجديدين، فأردف:

– إنّما هنا، البيوت لا تُسرِّب الهواء والبرد... ومدفّأة بأحدث الطرق.

قال رضوان:

– لكن الإنسان محروم المشي في الطريق.

وافقه صديقه:

– هذا صحيح. إنّما الإنسان يتعوّد كلّ الظروف.

90

حقًّا، الإنسان يتعوَّد. رضوان لا يعارض هذا الرأي. أولاده تعوَّدوا العيش في هذا المناخ الصعب. أحفاده مثل السمك في الماء، وهذا شحادة أمامه. ترى، هل تعوّد شحادة مناخ كندا؟ هل أصبح مثل السمك في الماء؟

طرح سؤال يختبره:

– ألا تفكر في العودة إلى البلاد، يا شحادة؟

تمهّل صديقه قبل أن يجيب:

– لقد عدت، حتّى الآن، خمس مرّات. كل مرَّة، كنت آخذ زوجتي، ونعود. وأقول في نفسي: يا رجل، ما لك غير وطنك، وبلدك. أنا لا ولد ولا تلد. ولا أتمنّى أن أموت في الغربة، وأدفن تحت الثلج، ولكن...

– لكن ماذا يا شحادة؟

رضوان يسأله بلهفة، فيجيب:

– أعترف لك، ولأختي أم نبيل، بحقيقة مشاعري. كلّما سافرت إلى الوطن، شعرت بأنّي أبتعد عنه أكثر، الوطن لم يعد مثلما كان. «دير ميماس» تغيّرت. أبناء جيلنا رحلوا أو تفرّقوا، وفي آخر رحلة، لم نستطع الوصول إلى الضيعة: حواجز، وسلاح، ورائحة الحرب والنار. ما كدت أضع قدمي في بيروت، حتّى قررت أن أعود إلى هنا.

– وماذا تنوي أن تفعل؟

سألته أم نبيل، وقد أثار الحديث اهتمامًا غير عاديّ لديها.

– يا أختي أم نبيل، الشغل، هنا، ماشي. أنا وفريدة، تعوّدنا المناخ. صحيح ما قدرت أتعلّم كلمة كندية، لكن الحرمة تسعفني، وأولاد البلاد كثار ومحبّون، خصوصًا نبيل وإخوته، الله يخلّيهم. يجعلون واحدًا مثلي، يشعر بأنّه بين أهله وأبناء عشيرته. وفي المدّة الأخيرة، صرنا نسمع أخبار الحرب، قالوا: «الحرب واقعة في لبنان»، صحيح الخبر؟

السؤال أعاد رضوان إلى الوراء. حاول أن يستجمع الصور الهاربة من ذاكرته، منذ وطأت قدمه هذه الأرض الحيادية الهادئة. يتذكّر أخبار الجولتين من الحرب؛ الجوّ المحموم حين ذهب إلى بيروت، طوابير الشباب، الساعين إلى السفر، التهديدات المتواصلة على الحدود الجنوبية؛ يتذكّر ويتساءل: – تُراها تكون الحرب؟

يلتفت إلى شحادة المنتظر جوابه:

– والله، يا أخي شحادة، البلاد غير مرتاحة. هناك تحرّكات لا تبشِّر بالخير. وعندنا، في المنطقة، الناس ما عادوا يذكرون كيف كانت أيّام زمان.

قال شحادة:

– أنا لا أقرأ الصحف ولا أفهم حديث الراديو، لكن الإخوان هنا، لا حديث لهم غير الكلام عن الحرب المقبلة. ويقولون إنّ هذا ما يقرأونه في الصحف.

– الله يقرّب ما فيه الخير.

دعاء رضوان، حين لا يكون لديه ما يقوله، أو ما يضيفه إلى الكلام. ويرشقه شحادة بسؤال مفاجئ:

– إن شاء الله، جئتم هجرة، وباقون عند الشباب؟

السؤال يلسع، مثل ميسم نار. ويهبّ رضوان مدافعًا عن نفسه وعن حقيقة الزيارة:

– لا لا يا شحادة، لا... رحلتنا لزيارة الشباب، ولمدّة ستّة أشهر فقط، ثمّ نعود.

ويسمع شحادة يردّد:

– ستّة أشهر؟ زيارة قصيرة! على الأقلّ ابقوا سنة.

ثمّ يضيف:

– لكن أنا عندي شعور بأنّ الشباب لن يسمحوا لكم بالعودة، خصوصًا في هذه الظروف.

حديث صديقه يهدم جدارًا بينه وبين كثير من التوقّعات. ويبصر للمرّة الأولى، جانبًا من وجه الحقيقة، من الصورة التي يخشاها ويهرب منها، كلّما فاتحه أحدهم بحديث الهجرة.

ثمّ عاد يقنع نفسه، بأنّ كلام شحادة اجتهاد شخصيّ، ولا رابط بينه وبين ما ينوي له أولاده. ولو فرض أنّهم يفكرون في استبقائه مع أم نبيل، فهو سوف يرفض. لن يقبل مطلقًا، حتّى ولو أدّى رفضه إلى إغضابهم. لن يسمح لأحد بأن يقيّده، ويلجم حرّيّته، ويفرض عليه إقامة في مكان ما، غصبًا عنه، حتّى لو كان جنّة الفردوس. ثمّ أحسّ بأنّه يكفر، وأفكاره تجمح به بعيدًا، فعاد إلى الحلقة الثلاثية، وإلى طبيعته الحقيقية في تحديد الأمور: – ما حان الوقت لنبحث هذا الموضوع، والشباب لم يفتحوا لنا سيرة.

قال شحادة:

– الغاية أن نكسبكم عندنا أطول مدّة ممكنة... ثمّ الأمور مرهونة بأوقاتها.

وردّت أم نبيل:

الله يهدئ البال، لنعود كلّنا إلى البلاد... البلاد الغريبة، تبقى غريبة.

91

وكان رضوان يتأمّل صديق العمر، ويحاول أن يقرأ فوق صفحة وجهه، غير الكلام الذي يخرج من بين شفتيه.

وهذا ما قرأ: الوجه متغضّن شاحب، فقد من زمان بصمات الشمس والرياح الجنوبية. والشعر فارق الرأس مخلّفًا آثارًا منه مبعثرة في الزوايا. والعينان

غائمتان... ولم يفهم رضوان لماذا ذكّرناه بعيون السمك: تتفرّس فيها، فتصدّك ستار من الغموض.

وقرأ فوق شفتيه الصمت، وانقطاع الحوار. خصوصًا ذلك الحوار الذي يقوم بين إنسان وشعب، وبينه وبين الأرض، والطبيعة، والناس، والتراب، والأشجار، والعصافير.

وخطر لرضوان سؤال مضحك، فطرحه من ذلك البعد القصي:

– دخلك يا شحادة، العصافير، في هذه البلاد، أي لغة تحكي؟

ضحك شحادة، واعتبر سؤال رضوان نكتة طريفة:

– هذه ما فكّرت فيها، يا رضوان. يمكن العصافير تحكي لغة أهلها وبلادها.

وتابع رضوان:

– يعني غير لغة الحجل والترغلّ.

عبارة، تفوّه بها رضوان، نقلت شحادة إلى ولعه القديم، وإلى مطارح الصيد والقنص، فتابع معه:

– هنا، نصطاد البطّ البرّي في موسم الصيد فقط، والبطّ يحكي بالإشارة. أمّا ابنك نبيل، فيصطاد الغزلان.

سأله رضوان:

– وصيد السمك، ما أخباره؟

قال شحادة:

– وهذه، أيضًا، خذها من نبيل، شيخ الصيّادين... نحن كلّنا عسكر، نتحرك بقيادته. نبيل، يعرف جميع الأنهر والغدران، في بعض الأحيان، أفكّر في أن هناك «لاسلكي» بينه وبين السمك. حالما يفتح السمك عينيه، من خدر الجليد، يبعث بالبرقية الأولى إلى نبيل.

وضحك الجميع لهذه الطرفة، وقال رضوان:

– في حديثك مبالغة عن نبيل.

فردّ شحادة:

– التجربة أكبر برهان. رافق نبيل في رحلة صيد، وتأكّد من صدق كلامي... ولكن إيّاكم تروحوا بدوني.

92

هذا هو، إذن، شحادة الأسمر!

لا يزال كما عرفه، يوم غادر البلاد قبل ربع قرن.

كندا لم تزد عليه قلامة ظفر. لم تضف كلمة إلى لغته، أو لكنة إلى لهجته؛ وحديثه ينتشر ببراءته الأولى، وكأنّه خارج للتّو من تحت زيتون «دير ميماس».

لماذا هاجر شحادة وجرجر فريدة معه؟

ماذا تفيد الهجرة صاحبها، بعدما تكون جذوره قد عصيت، وغرزت عميقًا في التربة، حتّى إذا جاء يقتلعها، ثارت، وتمرّدت، وانفصلت عنه، وتركته يحمل رأسه بين يديه، ويضيع في دوار الغربة.

لماذا هاجر، وهو ميسور الحال، متحرّر من كلّ ارتباط بالمستقبل؟

كاد رضوان يوجّه هذه الأسئلة إلى جليسه، لو لم تصدّه نظرات غائمة يرشقه بها شحادة، وكأنّه يودّ أن يقول شيئًا، ثم يؤجّله.

كان في هذه الحالة من الحوار الأخرس، حين فُتح الباب من دون إنذار ودخلت لمياء، تمسك بيد ابنتها الصغرى، «سوزي»، وتحمل معها الحماسة والفرح: – يا صباح الخير، يا أمي! صباح الخير، يا بيي! يا أهلًا بالعم شحادة!..

ثمّ التفتت إلى ابنتها، ووجّهتها لتقتدي بها:

– قولي، صباح الخير ستّو، صباح الخير جدّو... يلّلا، سوزي... صباح الخير.

وسوزي تضع إصبعًا في فمها، تتلكّأ، تسند قامتها إلى ساق أمها، وقد لوت عنقها، ورفعت الكتف باحتجاج.

قالت لمياء معتذرة عنها:

– هي خجولة بطبعها... لكنّها سوف تتعوّد، بعد فترة قصيرة. يلزمها الوقت.

ردّ رضوان:

– طبعًا يلزمها الوقت. من أين لها أن تعرف أنّ هذا الختيار هو جدّها، وهذه العجوز جدّتها؟ ايه، يا سوزي، يا روح جدّو؟ كيف بدّك تعرفي، وأنت ولدت هنا، وعشت بعيدة عنّا؟

حين سمعت الصغيرة اسمها، على شفتيّ رضوان، ازدادت خجلًا والتصاقًا بأمّها، فأبعدتها لمياء وهي تقول:

– هيا بنا. جئت آخذكم مشوار بالسيّارة. عم شحادة، تفضّل معنا.

فردّ شحادة شاكرًا:
– العم شحادة يعود إلى بيته. ممنون كثير، يا لمياء. يا الله، بخاطركم.
ثمّ لفّ رأسه جيّدًا، وارتدى المعطف، وهمَّ بالخروج، لكنّ لمياء اعترضته:
– نوصلك بطريقنا عم شحادة. الطقس في الخارج بارد.

93

والطقس يظلّ باردًا في الخارج، معظم أشهر السنة، وعلى الإنسان أن يستعدّ له، ويتكيّف معه، أو يطوّعه، مثلما فعل الناس هنا، في هذه البلاد. لجموا الطبيعة، دجّنوها، سلّطوا عليها الآلة! الإنسان، هنا، ارتفع، وطالت قامته. صار أعلى من الشجر، أعلى من ذرى الجبال! إنسان هذه البلاد، صار عملاقًا، وها هي ثمار تقدّمه مغروسة في كلّ زاوية.

رضوان يغادر المنزل الدافئ، بواسطة سلّم داخليّ يوصله إلى الكاراج، حيث تربض سيّارة لمياء الكبيرة؛ والسيّارة مكيّفة، ومقاعدها مريحة، يشعر من فيها بأنّه غارق في كومة من ريش النعام.

لمياء تدير المحرّك، تُقلع، واثقة بنفسها، بحركاتها. رضوان يجلس في المقعد الخلفي، يتأمّلها، ولا يشبع نظره منها:

هذه المرأة الجميلة، تردّه إلى عزّ الشباب، تذكّره بأمّها، وهي في مثل عمرها؛ أخذت منها جمال العينين، وارتفاع الخدين، وشمخة العنق، والطيبة. لو بقي هنا العمر كلّه، يهنأ بدفء شبابهم. يستعيض بهم من كلّ ما في الخارج! لكن هذه الأفكار، تمرّ به، مثلما تمرّ نسائم المساء فوق ورق الحور، تدغدغ المشاعر، تراقصها لحظة، ثمّ تخلفها وتمضي. ولا يبقى منها سوى الذكريات...

يعرف جيّدًا أنّ هذا الإحساس لن يلبث أن يفارقه، حالما تختلج بين أضلعه مشاعر الحنين إلى الديار، إلى الوجوه والأصوات، والمناظر المألوفة؛ إلى ذلك المكان الآمن، في الكون، حيث يسير مغمض العينين، ويبصر كلّ ما حوله بوضوح، ويسمع ويفهم، من إشارة، من نغمة صوت وبحّة حنجرة، كلّ ما يجري في عالمه ويدور...

هنا، يحملونه في السيّارة، يخترقون به الشارع العريض الممتدّ حتّى حدود الأفق. ابنته سائقة ماهرة، ومع ذلك، تنتابه الخشية من المفاجآت، والخوف من المجهول. وعيناه تتفتّحان على المناظر كلّها؛ لكنّ الصور لا تلبث أن تنطفئ

مثل انطفاء القناديل، في مدينة تستعدّ للنوم، ولا تسجّل منظرًا واحدًا، زادًا للعودة. مناظر هذه البلاد تبقى لأهل البلاد، مثل كل الأشياء فيها.

السيّارة تخترق به شوارع «شارلتون»، المدينة الهادئة، البسيطة، والتي لا تشبه بيروت في شيء.

عيناه تسافران عبر النافذة، إلى اللوحات المتغيّرة، وكأنّها مناظر في صندوق الفرجة! شوارع عريضة، أرصفة نظيفة، منازل ملوّنة، مغروسة وسط الحدائق، أو بين الغابات... ويحسب، في بعض الأحيان، أنّ المنزل، ينبت في هذه المنبسطات، مثلما ينبت الشجر والناس!

– أين الناس، يا لمياء؟

وَجَّه السؤال إلى ابنته، فقالت:

– سؤالك في محلّه، يا أبي. الناس في أعمالهم، والأعمال داخل الأبنية. والطلّاب في المدارس، والطقس، عندنا يطرد المتجوّلين من الشوارع...

وقاطعها شحادة:

– الناس، هنا، قليلون، على أيّ حال. لا يصل إلى هذه الجزيرة إلّا كلّ طويل عمر.

ردّت لمياء موضحة:

– العم شحادة معه بعض الحقّ، كان هذا أيّام زمان؛ أمّا اليوم، فإنّ الازدهار بدأ يعمّ الجزيرة، بفضل تغلّب الإنسان على قسوة الطبيعة. هنا، يرتفع التحدّي، وكأنّه امتحان لقدرة الإنسان وفعله؛ وهذا الإنسان يستجيب، ويلبّي. والنتيجة هذه النهضة العمرانية.

ثمّ أردفت:

– بالطبع، كثافة السكّان تخفّ كلّما اتّجهنا صوب الشمال.

وافقها شحادة بقوله:

– خيي رضوان، بدّك تقول، نحن، هنا، على الحدود بين أرض الجليد الدائم وأرض البشر.

وردّ رضوان:

– وبرغم ذلك، عمرانة! ما شاء الله! بارك الله بالأيدي اللي بتعمّر.

94

وفي قرارة نفسه، كان يقول كلامًا آخر، لم يشأ أن يُسمعه من حوله؛ كان يسأل شحادة ولمياء، والشباب الغائبين عن نظره الآن، كيف، كيف وصلوا إلى هذه البلاد؟ وكيف يطيقون العيش فيها، فصلًا تلو الفصل، وسنة بعد السنة؟

وفكّر أنّ مثل هذه الأسئلة تظلّ مؤجّلة، حتّى يتمكّن من فهم ما يحيط به، والدخول في دورة الحياة اليومية.

وتساءل: هل تَوصَّلَ صديقه شحادة، بعد عشرين سنة من العيش هنا، هل توصّل إلى هذا الفهم؟

ولم ينتظر الجواب.

توقّفت السيّارة فجأة أمام بناء صغير، فترجّل شحادة وهو يشكر لمياء، ويدعوها لتنزل مع أمّها وأبيها، ويشربوا القهوة معه، ثمّ دفع الباب وصرخ: – فريدة... يا فريدة، اسرعي.

وتدحرجت فريدة على السلم المؤلّف من أربع درجات، ثمّ اقتربت من السيّارة، تسلّم، وتتمتم كلمات الترحيب، و«أهلًا وسهلًا، وشرّفوا، ما بيصير، وصلتوا لداركم»... اعتذرت لمياء بلسان الجميع، ووعدت فريدة وشحادة بزيارة قريبة، ثمّ انطلقت السيّارة وبقي شحادة وفريدة واقفين أمام المخزن – الستار – يلوّحان بالأيدي، حتّى توارت السيّارة عن مدى النظر، وتابعت اللفّ والدوران في شوارع جديدة.

95

– نمرّ على مخزن نبيل أوّلًا، ثم نذهب، إلى مطعم حسّان.

سألتها أمّها:

– والغداء، في المطعم؟

ردّت لمياء:

– لا. نشرب القهوة عند حسّان، بعدما نتفرّج على مخزن نبيل، ثمّ نذهب إلى بيتنا. أعددت لكما طعامًا لذيذًا، ومعين ينتظرنا.

قال رضوان:

– مثلما تريدين، يا حبيبتي، نحن هنا بين الأيادي.

وردّت مجاملة:

– أنتم أصحاب الأمر والمكان. ما لنا شيء بوجودكم يا أبي.

96

نبيل يملك «سوبر ماركت» في قلب المدينة، وحين وصلوا، كان ينتظرهم في الباب، تسبقه إليهم بسمة الرضى المشعّة من عينيه:

– يا ألف أهلًا، ومرحبا.

– وتقدّم يمسك بيد أمّه ويقودها إلى الداخل، وتبعتهما لمياء، مع أبيها وسوزي.

المخزن يعجّ بالزبائن، ويحوي من السلع ما يعجز عن وصفه اللسان:

– الله يصبّ البركة. الله يوفّق ويبارك.

رضوان يتجوّل مع نبيل الذي تولّى شرح كل شيء ليعرّف والده بالسلع الغريبة. وأمّ نبيل جلست فوق كرسي، إذ لا تسعفها ساقاها على المسير، عيناها وحدهما تسافران، ترافقان كلّ حركة؛ وتصلّي في سرّها، ليحرس الله المخزن، وصاحبه. أمّ نبيل تخاف العيون الفارغة، العيون الخبيثة التي تشقّ الصخر إن هي سلّطت قوّتها عليه. تحفظ صلاة خاصّة لردّ صيبة العين، ومَنْ أجدر بهذه الصلاة من بكر أولادها المتفوّق، والذي شيّد نجاحه فوق قطرات دمه: – من عرقه وكدّ يمينه، يا مَيْمتي.

كانت تتناول الحوالات وتقلّبها، وتدعو له بالمزيد من التوفيق. وها هي جالسة عند رأس النبع، حيث تدفّق الخير والعطاء عليها وعلى زوجها، على مدى عشرين سنة.

– الله يرضى عليك، يا نبيل، تمسك التراب يصير بين يديك ذهبًا، يا ابني.

ها هو مقبل صوبها. أبوه يسير بمحاذاته، وقد تبدّلت ملامح وجهه، وتفتّحت مثل تفتح الزهر، مع ندى صباح ربيعيّ:

– ما هذا، يا نبيل؟ اسم الله! وذكر الله! ربّنا من عنده الموفّق والمعطي.

ردّت أم نبيل:

– أعطاه، وهو يستأهل العطاء. الله يديم البركة والخير، عليك، وعلى بيتك، وكلّ ما يخصك يا نبيل.

أجابها شاكرًا:

– هذا من رضاكم علينا، ودعاكم لي ولإخوتي... الله لا يحرمنا بركة الوالدين.

ردّت لمياء:

– يا نبيل، الله يستجيب لك... ماذا لو سمعت منّي، وجئت تتغدّى معنا؟

استبعد نبيل ذلك:

– مستحيل يا لمياء، الآن، عزّ الشغل. لا أقدر. تغدّوا، وفي المساء نلتقي للعشاء عندي... إلى اللقاء.

رافق أغلى ضيفين إلى السيّارة، ثمّ عاد يلبّي طلبات العمل. واتّجهت لمياء نحو الشارع الذي يقود إلى مطعم حسّان: «مطعم الريف والمدينة».

أطلق عليه حسّان هذا الاسم، حتى لا ينسى جذوره المغروسة في أعماق الجبل.

97

وحسّان عاطفيّ، وأقرب ما يكون إلى أبيه في القلق والتساؤل حول المصير الفرديّ والجماعيّ؛ وهو مثله يميل إلى الفنون، وصاحب صوت يضاهي بشجوه صوت وديع الصافي.

كان جالسًا خلف الآلة الحاسبة، حين دفع الباب ودخله زبائن يختلفون اختلافًا جذريًّا عن الوجوه التي ترتاد المطعم، من العمّال، إلى النوّاب والوزراء.

قفز مهلّلًا مرحّبًا:

– يا هلا! ويا مِيّة مرحبا.

– يا هلا فيك. شو يا حسّان، مطعم يشرح الصدر!

– أعجبك يا أبي؟

ردّ رضوان فورًا:

– أعجبني؟ أمّا سؤال! الحمد لله، موفّقين، أنت ونبيل. باقي نشوف صالون جميل.

ردّ حسّان مداعبًا:

– عليك أنت أن تأخذ أمّ نبيل لتسرِّح شعرها، وهكذا يسمحون لك بدخول الصالون.

حسّان يعابثه، ويمازحه، وينتعش في صدره ضعفه القديم لهذا الولد المتميّز بالقوّة، والنشاط وطيبة القلب.

ثمّ يناقش أفكاره وكأنّه قوّض جسر العدالة الأبوية:

– في الحقيقة، كلّهم طيبون. قلوبهم من ذهب.

– لا يجوز أن يميِّز، كيف يقوى على ذلك، وهو حين يفكّر فيهم، يحسبهم شخصًا واحدًا، يملأ القلب والعينين؟

طلب حسّان من إحدى الفتيات أن تعدّ مائدة لوالديه، فاعترضت لمياء، وحاولت أن تكسبه للغداء عندها، غير أنّها لم تشدِّد الدعوة، إذ تعلم أنّه يصعب على أخيها أن يغادر المطعم وقت الغداء. لذا اعتذرت من حسّان، وأمسكت بيد طفلتها وسارت بقرب والديها: – معين في البيت. تأخرّنا على موعد طعامه. إنّه يأكل باكرًا.

قال أبوها:

– نقول له: الحقّ علينا نحن. نتشفّع بك، ونخلّصك من الملامة.

ثمّ ابتسم ليؤكّد لها أنّ كلامه لا يزيد على كونه دعابة يتسلّى بها، ويحاول أن يسلّيها ويخفّف من قلقها.

98

معين أعدّ المائدة، وأحضر زجاجات الشراب، وبقي الطعام الساخن في الفرن، ينتظر يدي لمياء.

– لم أطبخ شيئًا هامًّا، سمكة مشويّة مع طرطور، وبقدونس كندي، وكبّة مشوية، وسلطة خسّ وبندورة.

قالت أم نبيل:

– حضَّرت كلّ هالطعام، وتعتذرين؟

وتابع رضوان:

– أشهى طعام. سلم الله اليدين الماهرتين.

ابتسمت لمياء، وهي تروح وتجيء بين المطبخ وغرفة الطعام وأضافت:

– تعرفون المثل القائل: «الجوع أمهر الطبّاخين».

وقف معين يسألها عن معنى هذا المثل، فأجابت:

– أبوك سيّد من شرح الأمثال، اسأله.

فقفز معين ملهوفًا:

– يا لمياء، نسيت أن أحضر أبي! المسكين، ينتظرني منذ نصف ساعة... أرجو المعذرة لبضع دقائق.

99

«إبراهيم واكد». أوّل لبنانيّ حطّ قدمه فوق أرض الجزيرة. كان ذلك عام 1885. التاريخ مسجّل في كتاب العائلة. لكن لم يكن أوّل المهاجرين الروّاد. سبقه إلى كندا سنة 1882 «إبراهيم بو نادر» الشاب الزجليّ ابن التاسعة عشرة، وقد أقام في مدينة «مونترِيال».

إبراهيم جاء من «راشيا الوادي» وخلّف زوجة وولدين، ينتظرون رجوعه بالسلامة. لكنّه لم يرجع. بعد عشر سنين، بعث إلى زوجته الرسالة التالية: **عن كانادا في 17 آذار غ.**

ابنة عمّنا العزيزة،

من بعد بعيد، وشوق لم عليه مزيد، أقبّل وجناتكم قبلات الإشتياق وأهديكم سلامي الوافر، إنشالله تكونوا بكلّ خير جميعكم. من يمنا بكلّ خير من كرب الرب الخايس علينا رؤياكم، ربنا يكرم بذلك وهو على كل شيء قدير. أفيدكم إنّنا رسلنا لكم تحرير مسوكر وفيه بوليصا في اسمكم وقيمة ثلاثون ليرة إنكليزية انشالله تكون وصلتكم. وطلبنا منكم الأفادي قدر ايش عليكم دين ورهن ولمان، فبدونا حرفيًّا ونحن بعون الله مستعدّين أن نوفي كلّ من سلّفكم ولا ننسى فضلو إلى الأبد، ذلك أن مرادنا تأتو إلى عندنا، ونحن راسلين لكم كامل الأوراق والنفقات. وفيدونا من أوّل البلد إلى آخره، مان مات، ومان بعدوا طيّب، لأن منحب نعرف. تاريخ البوليصا 17 شباط غربي. الشغل مليح جدًّا والصحة جيدي كونو بكل راحا من يمنا. أهدوا سلامنا لكلّ من يسأل عنّا جميع. ومنّا قبلت وجناتكم ودمتم.

ابن عمكم المشتاق لرؤياكم
ابراهيم واكد».

ولبَّتِ الزوجة الطلب، فحملت ولديها وغادرت البلاد، من راشيا إلى بيروت ومن هناك في «البابور» إلى كندا.

100

مضت سنة على وصول العائلة، حين وُلد الإبن الثالث فسمّوه «سليم» تيمّنًا بسلامة وصول والدته وأخوته، وجمع شمل العائلة. وسليم والد معين، ويُعرف بين الأصدقاء باسمه الكندي «سام». تربّى ونشأ في كندا، وأنهى دراسته

الثانوية قبل أن يُلحقه أبوه بالعمل، ويفتح له مخرن بقالة، قضى ردحًا من عمره، ثمّ أغرته تجارة المباني، فانغمس فيها، ونجح نجاحًا كبيرًا استمرّ في أولاده الأربعة الذين ورثوا عنه لطف المعشر، والاستقامة في العمل، وخوف الله، وطاعة القانون، وأصبحت «شركة واكد العقارية» أهمّ شركة في الجزيرة، وامتدّت فروعها إلى المدن الكبرى، فانتقل ابنه «تيد» أي «توفيق» وفتح فرعًا في «هاليفاكس». وحمل «تشاك» أي «شكيب» فرعًا من الشركة إلى «مونترِيال» و«أليزابيت» انفصلت عن العائلة بالزواج، وبقي «معين» اليد اليمنى لأبيه. وكان عونه الأكبر حين خاض الأب معركة الإنتخابات لمركز مختار المدينة، ونجح... وكان نجاحه نقطة انعطاف في العلاقات بين المغتربين وأبناء البلاد؛ إذ إنّ المناسبة فتحت الأعين على المكانة الطيّبة التي توصّل إليها المغترب، بفضل كدّه وجهده واستقامته واحترامه للقانون... وصار المغتربون في الجزيرة يؤرّخون بعهد المختار سليم، فيصنِّفون الأحداث قبل أو خلال، أو بعد عهد المختار.

والمختار مدعوّ إلى الغداء مع الضيفين القادمين من البلاد، وابنه كاد ينسى الموعد.

101

– دقائق ويصل معين مع والده.

قالت لمياء ذلك وهي تناول والدتها كأس شراب، ثمّ أعدّت لوالدها كأسه المفضل «حليب السباع». وبدأت بإعداد الشراب لزوجها وأبيه، لكنّ معين فاجأها بعودته السريعة، وأخذ عنها المهمّة، كي تتفرّغ لبقيّة الأعمال.

– الطعام جاهز، تفضّلوا، عمّي، أمّي ، بييّ، شرفوا.

الطعام جاهز، والسفرة عامرة، والعمّ سليم بدا منشرح الصدر، وراح يصبّ أسئلته بلا توقّف: كيف أحوال البلاد؟ شو صار براشيا؟ هل وصلتها حرب الجنوب؟ راشيا، اسمها يتردّد في كلّ نشرات الأخبار.

قال رضوان إنّ راشيا التي عنها يخبرون، هي «راشيا الفخار»، وسليم يعرف ذلك، ويجيبه: «الإسم، يا عمّي، الإسم يهزّ جذور القلب»... ثمّ يضيف: – ما الفرق، يا بو نبيل، إذا كان يقصفون راشيا الفخار أو راشيا الوادي، أو الجورة، وبيروت وصيدا؟ السهم واحد. وقلوبنا تقفز مع نشرات الأخبار، والمذيع يتحدّث

ببرودة أعصاب. لم أترك مناسبة تمرّ إلّا وبعثت فيها برسائل الإحتجاج أو تصحيح الأخطاء. حتّى الأسماء يلفظونها خطأ، ويخطئون في تحديد المواقع، ونوعية السكان. وفي آخر أحبار سمعتها اليوم، تأكيد على ترحيل الرعايا الأجانب. يعني الحالة في لبنان بالغة الخطورة... ثمّ هناك إشاعات وإشاعات.

رضوان يصغي إلى الرجل الوقور. يعجب من اهتمامه بالوطن، وهو المولود هنا، والذي لم يعرف الوطن سوى مرّة واحدة، حين زار البلاد بقصد الزواج، وعاد ترافقه عروسه الحلوة «سميّة». وسميّة رحلت من هذا العالم قبل ثلاث سنوات، وخلّفته عجوزًا يعاني من ضعف القلب، إنّما ظلّ منفتح الوعي، صلب الإرادة، مدبّرًا قديرًا لشؤون المغتربين. الجميع يحلفون باسمه، يثنون عليه؛ ورضوان يعرف ذلك من البلاد. الأخبار تسافر، الجيّد منها والعاطل. تسافر مع الرسائل ومع العائدين للزيارة، وكان يردّد بفخر أنّ ابنته لمياء أصبحت كنّة لهذه العائلة الكريمة.

وهو يواجهه للمرّة الأولى، يسمعه يتحدّث بلهجة بسيطة، متواضعة، وطيّبة. ويتحدّث بحماسة لا تلائم قلبه المريض، فيتوقّف بين العبارة والعبارة ليأخذ نفسًا عميقًا.

ثار فضول رضوان لِما سمعه من المختار عن الإشاعات، فسأله باهتمام:

– إشاعات شو، يا عم سليم؟ خبّرنا.

فأجاب:

– كلّ يوم يقذفون في وجوهنا أخبارًا جديدة: لبنان سوف يتحوّل إلى ساحة حرب. هناك مؤامرة دولية، لا أحد يعرف أبعادها. اختاروا لبنان ساحة لها. كندا، عند علمي، غير ضالعة في المؤامرة، لأنّ رئيس وزرائنا رجل ذكيّ، دائمًا يشدّ بالبلاد لتستقلّ عن ضغط أميركا... ولكن قدر المستطاع... سمعنا، أيضًا يا بو نبيل، أنّ حكومة كندا فتحت باب الهجرة أمام اللبنانيين. هناك من يقول إنّ كندا تعدُّ مستعمرات خاصّة للمهجرين... أعتقد هذه إشاعة، أنا لا أصدّقها؛ إنما يفتح طريق الهجرة، معقول لأسباب إنسانية؛ ولأنّ نسبة المغتربين اللبنانيين في كندا مرتفعة، وربّما فعلت الحكومة ذلك لترضيهم. من له أخت أو أخ أو أب أو أمّ وزوجة في لبنان، لن يتخلّى عنهم، ويتركهم معرّضين للخطر.

ورضوان يصغي، ويصغي جيّدًا. شرب الكأس الأولى، وسكب الثانية من دون أن يذوق لقمة طعام. عيناه مصلوبتان فوق شفتي المختار، حتّى لا تفوته كلمة من كلمات «النبوءة».

والمختار يعرف أكثر من الجميع؛ يعرف ما يجري هنا، بحكم اتّصاله بالدوائر السياسية، ومطالعته الصحف، وما يجري هناك، في لبنان، حيث لا يزال له ارتباط عاطفي. وشعر رضوان بأنّه كان جاهلًا ما يحدث حوله، في بلاده وأرضه... صحيح أنّ الجولات بدأت قبل أن يسافر، لكنّه لم يصدّق لا هو، ولا سواه من المواطنين، إنّ هذه التي سمّوها جولات، يمكن أن تتحوّل إلى الحرب المدمّرة الساحقة، المطفّرة للأهالي، وخصوصًا الشباب.

102

ويهبّ ضميره يقرّعه على إهماله:

«لماذا يا رجل؟ لماذا تتهرّب؟ أبصرتهم قبل أن تسافر، في المطار، في شركة الطيران. طوابير الشباب المهجّر، الهارب. وأبصرت الذين يقفون عند الحواجز، حاملين السلاح في أيديهم، والنار في عيونهم. ماذا ينوي أولئك الشباب أن يفعلوا؟ حفلة طرب؟ استيقظ يا رجل، كنت نائمًا ولا تزال... انهض».

انتفض حين سمع صوت لمياء يرنّ في أذنيه:

– لماذا لا تأكل يا أبي؟ طبخت السمكة الحارّة كرمى لك...

ابتسم لها، وليكشح الضباب من عينيه، من فؤاده، وليحاول أن يجلو الكلمات، فلا تخرج حاملة رماد انهياراته الداخلية:

– عمّال آكل... أنا كلّ عمري أحبّ المزمزة... نسيت عادات بيّك، يا حبيبتي؟

ولمياء لم تنسَ. ناولته لقمة من يدها، أخذها شاكرًا، ولم يفُتها التحوّل الذي راح يتقلّب في عينيه، وفوق صفحة وجهه. وكانت تعلم أيّ حساب يحسب أبوها، كما كانت تعرف المفاجأة التي أعدّتها مع أخوتها، من أجل مستقبل والديهم... إنّما أبقوها سرًّا حتّى تحين الساعة.

103

العشاء، في دار نبيل، مناسبة تجمع العائلة، والأقارب والأصدقاء من المغتربين.

ونبيل يتبع طقوسًا خاصّة في دعواته: يقرّر هو أنّ العشاء في داره، فيعْلِم «سلمى» زوجته بالأمر، وهي تبدأ بإعداد الطعام، وتعدّه معها كلّ من حضرت من النساء، ثمّ تناول نبيل التلفون ويروح يدعوهم واحدًا واحدًا: – العشاء الليلة عندنا، تفضّلوا.

وفي تلك الليلة، يغادر المخزن باكرًا، يبدّل ثيابه، ويدخل المطبخ، ليحضِّر بنفسه الكبّة النيئة، الطرطور، التبّولة، وسائر الأطباق التي يتقنها، ويغنيها بكلّ المطيبات، لتحمل نكهة جرن الكبّة في الجورة، وجاط التبولة في منتزه الحاصباني. إلى جانب هذين الصنفين، يجب أن يكون فوق المائدة طبق من السمك النهري المقلي، والذي يصطاده بنفسه كلّما سمح الطقس...

الطقس وهجر السمك إلى الأعماق فقط، يحرمانه ممارسة هوايته المفضّلة: الصيد بالصنّارة.

وكان «شحادة الأسمر» بين المدعوّين. لم يرفع عينيه عن طبق السمك، ولم يتوقّف عن طرح الأسئلة: أين؟ ومتى اصطدت هذا الصيد؟ كيف تذهب بلا علمي؟ أهذا هو اتّفاقنا، يا صديقي؟

ونبيل يتركه يتمادى في طرح الأسئلة، بل يتلذّذ باستدراجه إلى المزيد من التعليقات، وينتهي الحوار، في معظم الأحيان، بصمت شحادة أو بحرده وخروجه من الحلقة.

والضيوف يعرفون نقطة الضعف عند شحادة: لا يطيق أن يذهب أحدهم إلى صيد السمك من دون أن يدعوه. وقد حوّلوا الموضوع إلى مناسبة للسمر والهرج، وإثارة الرجل ليتسلّوا بآلامه. والليلة، تألّم شحادة كثيرًا، لأنّ نبيل اغتابه، ثمّ ليزيد الطين بلّة، دعاه ليتفرّج على ثمرة الاغتياب!

104

ونبيل لا يقصد التهرّب من شحادة، إنّما وقته لا يسمح له بأن يتبع نظامًا خاصًّا في الصيد. يكون في المخزن حين تهبط عليه الرغبة هبوط الوحي، فيغادر العمل، ويهرع إلى المنزل، حيث يرتدي الثياب الخاصّة بالصيد، وجزمة

المطّاط التي تصل إلى خصره، كي يخوض فيها الغدران. ثمّ يقطر القارب إلى سيّارته، ويحمل الصنّارة والطعم، ويمضي.

إلى أين؟

إلى أنهر تجري الهوينا، ويفكّر الناظر إليها أنّها غدران أو مستنقعات متجمّدة فوق أرض منبسطة كراحة اليد، تتشابك فوقها، وفي مياهها، كلّ أنواع الشجيرات الشائكة والليّنة. بين تلك الغدران، يُنزل نبيل قاربه، ويكون برفقته أحد الإخوة أو ابنه الكبير «رودي»، وقد بدأ يدرّبه على الصيد منذ بلوغه السادسة.

يلقي الصنّارة، وينسى الزمن، وينسى متاعب العمل ويتركّز همّه على طرف الصنّارة، وتصرّف السمكة: عضَّت أم لم تعضّ؟ أكلت الطعم وعلقت؟ أم أكلته وعملتها على الصنّارة، ثم مضت تمرِّغ فمها في حشائش الأعماق؟

وفي تلك الغدران المتواصلة هناك منافس واحد يضايق نبيل. إنّه حيوان القُنْدُسْ الذي يبني سدوده، قواطع وفواصل، في عرض المجرى. وكلمة سدّ تنطبق تمامًا على الجسر الذي عمّره حيوان لا يزيد حجمه على حجم الثعلب ويقوى على قطع شجرة معمّرة، وجرّها إلى الماء، ليسدّ بها المجرى؟ ولماذا؟ ليبني بها بيتًا يطابق مزاجه الهندسي.

وتمضي الساعات في الصيد، سريعة. تغرب الشمس، وتحلّ الظلمة، والسمك لا ينام، والشغف لا ينطفئ؛ ويتلاشى الجوع والنعاس، وتظلّ الذاكرة صاحية كي لا يرتفع عدد السمكات عن الرقم المحدّد في قانون البلاد. لكلّ صيّاد عشرون فرخًا، والويل لمن يخالف! تُسحب منه الرخصة، يُغرّم بغرامة مالية كبيرة.

ويكون اللبناني الأصل، القادم من قرى الجنوب أو الشمال، يكون وحده، في تلك الفلوات الواسعة، لا محاسب ولا رقيب، ولا حياة تناديه من الغابات، سوى صرخات الطيور، وهي تغلّ في أعشاشها، في قلب الغابات المظلمة... يكون اللبناني وحده، ومع ذلك، يشعر بأن للنظام أذرعًا طويلة، تصل إليه أينما كان. وإن للنظام أعينًا خفية ترصده من الداخل، تراقبه، مثلما تراقبه عيون الخالق. ويرتعش الضمير، وينسى اللبناني طبيعة الفوضى التي بها يعتزّ،

وينسى معارضة القانون، ويكتفي بعشرين فرخًا من السمك النهري، أو بأقل من هذا، إذا لم يحالفه الحظ، أو أضربت السمكات عن العض.

هذا ما يفعله نبيل، وأخوته وأصدقاؤه، وحتّى شحادة المعروف بطمعه «الأشعبي»، ينسحب من النهر بعد أن يحصل على العدد القانوني.

105

والليلة شحادة مدعوّ على شرف صديق أيّام زمان، رضوان أبو يوسف، ويستغلّ المناسبة أفضل استغلال:

– يا نبيل، اتّفقنا أنا وأبوك على أن نذهب معًا إلى الصيد. لفظ كلماته، وابتسم بخبث. وشعر بأنّه انتصر على الموقف. أدرك نبيل الحيلة، فرحّب بالاقتراح: – ألف أهلًا وسهلًا، شرط أن تقوم باكرًا.

– ماذا؟

فغر شحادة فمه. لم يصدق أن نبيل قبل اقتراحه فورًا:

– ماذا؟ نذهب غدًا؟

– وردّ نبيل:

– أجل. الطقس ملائم. نأخذ بو نبيل في رحلة صيد، قبل حلول الجليد.

ولم تكن فرحة رضوان، وحماسته، أقل من حماسة شحادة وفرحته؛ قفز عن كرسيه وهو يردد:

– عليّ أن أستعد، لم أحضر معي ثياب الصيد.

– وطمأنه نبيل:

– كل شيء جاهز يا أبي. الثياب، والجزمة. نذهب، بعدما نكسر النعاس.

106

النعاس؟

منذ متى رضوان ينام ليلة الدعوة الكبرى؟ والدعوة إلى الصيد في مناطق مجهولة، وهو مشتاق، وقد بات الصيد ذكرى في باله...

منذ سنين لم يحمل صنّارة، أو شبكة، أو بندقية... اكتفى بالانزواء في حجرة من المنزل، أو الجلوس فوق المصطبة.

كان، قبل أن تشتعل نيران الجنوب، يحمل «الجفت» ويمضي إلى تلال «العرقوب»، إلى الكروم، وبساتين الزيتون. وفي السنوات الأخيرة، لم يعد يجرؤ على حمل عصا في يده، يتوكّأ عليها حين يتعب، خشية أن يحسبوها بندقية، فيطاردوه من الفضاء، أو من عيون الرصد المحيطة بالجورة...

وها الدعوة تحلّ عليه حلول ليالي القدر.

107

لم يسمع ما قاله نبيل، وتابع انسحابه:

– نرتاح قليلًا، قبل طلوع الفجر، تصبحون على خير.

وهبَّ شحادة من جهته، وبدأ يستعدّ للخروج. وكانت تلك إشارة تفرّق بعدها الساهرون، كلّ واحد إلى داره، وإلى أخذ قسط من النوم والراحة قبل أن يطرق الباب يوم عمل آخر.

108

– من أين جئت، يا بو نبيل؟ أكاد لا أصدّق!

شحادة نسي أن يصبّح.

يهزّ رأسه بحماسة، ورأسه يبدو أشبه بملفوفة لا يبين من خلالها سوى ثقبين، هما عيناه الساهرتان.

يعيد عبارته:

– من كان يصدّق، يا رضوان، يا خيّي، إنّنا نلتقي في هذه الجزيرة، وفي رحلة صيد، مثل أيّام زمان؟ سقى الله أيّام زمان!

ثمّ يوجه كلامه إلى نبيل:

– تلك كانت أيّامنا، يا نبيل. أيّام الشباب، قبلك وقبل جيلك.

ونبيل لا يردّ، فكره يقفز أمام السيّارة، يسابقها، يحاول أن يخطّط الرحلة، ويخمّن أيّ الغدران يكون أفضل للصيد في هذا الوقت؟

ورضوان صامت. يجلس قرب نبيل، عيناه ترصدان الطريق، وعيناه حمراوان، تفضحان قلقه طوال الليل.

لاحظ نبيل ذلك، وهو يناوله فنجان قهوة، من «الترموس» وسأله:

– ألم تنم، يا أبي؟

أجاب رضوان تمتمة:
نمنا قليلًا.
ردّ نبيل:
لا يبدو ذلك عليك. المرّة القادمة، لن أخبرك بموعد الذهاب.
اعترف رضوان لابنه:
– الحقيقة، يا نبيل، لم أستطع أن أغفو، ما الذي أصابني، لا أعلم. أعرف فقط أنّي لم أقلق هكذا منذ وقت طويل. ولا أقول منذ الطفولة، لأنّ أيّام طفولتي ما عرفت المفاجآت السارّة... قل، يا ابني، قلقت من شدّة الفرح والحماسة.
تدخَّل شحادة:
– وهذا ما أصابني، يا بو نبيل. معقول، رجل بعمري يسهر مثل طفل ناطر لعبة العيد؟

109

واللعبة محتالة، تختبئ خلف الصخور، في أعماق الغدران وبين تشابك العلّيق، وجذور الصفصاف... اللعبة الجديدة.
– خذ يا أبي، هذه صنّارتك، وهذا كيس الطعم.
– وماذا أفعل؟
– تبقى في القارب، ومنه ترمي الصنّارة.
قال شحادة:
– أمّا أنا، فسأبتعد قليلًا.
وردّ نبيل مداعبًا:
– طبعًا، ستبتعد، السمكات ناطرة في غدير شحادة...
ضحك رضوان للنكتة:
– ما شاء الله يا شحادة، صار عندك غدير باسمك؟
لم يردّ شحادة عليه! كان قد ابتعد، وراح يخوض مياه النهر، يجتازها وكأنّه مخلوق مائيّ قضى زمانه كلّه بين الأنهر والغدران، ثمّ لم يلبث أن توارى عن الأنظار وصوت نبيل يلاحقه: – إيّاك أن تبتعد كثيرًا، حتى لا نضيّعك، عم شحادة... لا تشغل بالنا.

وشحادة لا يردّ. تابع خوض الماء، وربّما كان يحلم، في تلك اللحظة، بأنّه يخوض نهرًا احتضنه أيّام الطفولة والولدنة، ورافقه كأخلص صديق أيّام الفتوّة والشباب.

ذلك النهر الذي صار بعيدًا...

بعيدًا حتّى على الأحلام!

110

الفجر يتثاءب.

ينتشر بطيئًا من فضاء رمادي غامض؛ يحضر حاملًا رعشات الصقيع، وقرصات الرطوبة، أنفاس القطب الشمالي.

ورضوان مستعدّ لكلّ الاحتمالات، وهو يجلس فوق القارب، بكلّ جدّية وإخلاص، يمسك الصنّارة، وينتظر.

ونبيل توجّه إلى غدير يبعد قليلًا عن القارب، بعدما ألقى المرساة، وثبّت القارب إلى جذع شجرة قويّة، وتأكّد أنّ والده مرتاح.

مرتاح؟

رضوان لم يذق طعم راحة، مثل التي أحسّها منذ مساء البارحة. الوعد بالرحلة أنعشه، وسرق النوم من عينيه، فكيف بالرحلة ذاتها؟

وهو الآن ينتظر السمكة لتعضّ. يستعيد ذكرى رحلات الصيد الماضية، ويغوص في دفء الذكريات، فينسى البرد حوله، وتهتزّ الصنّارة، فيرفعها ويلفّ الخيط بسرعة، ويفرح قلبه مثل قلب طفل وهو يبصرها تفرفر على طرف الصنّارة، فيشدّها إليه، وينتزع فمها من «الشنكل» ليضعها في «الجربندية». البركة الأولى.

ويتوالى العضّ، وتصعد الفرحة إلى رأسه، تسكره، ويمضي في نشوته ناسيًا رفيقَي الرحلة، وهو يسمع الأسماك تفرف داخل «الجربندية».

يضحك قلبه، وتردّد شفتاه: سبحان من حلّلك!

ويعتذر للسمكات:

– بدكن لا تؤاخذونا. رحلة وقمنا بها. مش كلّ يوم نحن هون.

– إيّاك أن تصطاد أكثر من عشر سمكات.

ولمّا استفهم لماذا «عشر»، والرقم القانوني عشرون، أجابه نبيل:

– صحيح الرقم عشرون. لكنّ القانون لا يسمح بالصيد من دون رخصة. فإذا توقّفت عند الرقم عشرة، تركت لي المجال لأصطاد عَشْرًا بدوري. أي تكون أنت اصطدت على رخصتي.

هزّ رضوان رأسه غير معجَب:

– والله، يا ابني، هذه تعقيدات لا أفهمها. النهر ملآن، والسمك يهجم، ويعضّ بفجع، ونحن نجلس مكتوفي الأيدي، نتفرّج... الله ما قالها!

– يمكن، يا أبي، الله ما قالها، لكن قانون البلاد، هنا، يؤكّدها. المرّة المقبلة أحصل لك على رخصة، وتصطاد على خاطرك.

111

رفع الجربندية، وراح يعد: الرقم تجاوز العشرة. لقد خالف وصية ابنه بسمكتين، وأحسّ أنّه اقترف ذنبًا يستدعي العقاب. الأمر لم يعد يتعلّق بالصيد وبالسمك، بل برضى ابنه نبيل، وملازمته حدّ القانون.

جلس يتأمّل ما حوله، ورحلت عينها صوب الأشجار، التي توارى خلفها شحادة، وأصغى؛ إنّه لا يسمع حسًّا، ولا يبصر غصنًا يتحرّك. شحادة غاطس في الصيد؛ هذا هو الرباط الذي يشدّ صديقه إلى الغربة. لولا هذه الأنهر والغدران، لما استطاع الرجل أن يقيم وسط مجتمع لا تربطه به علاقة، لا من قريب ولا من بعيد. الغدران تعيده إلى أجواء اعتادها أيّام المراهقة والشباب، تعيده إلى الحاصباني...

الشباب الذين تناولوا شحادة بالسخرية الليلة البارحة، لا يدركون حاجته هذه.

وقرّر أن يوصي نبيل بشحادة، يقول له:

– با ابني، أنت عندك كلّ الروابط التي تربطك بهذه البلاد. تحكي اللغة، ناجح في شغلك، متزوّج وعندك أولاد، الله يحميهم مثل فتحة العين... أمّا شحادة، فقضيته صعبة، وعليكم أن تهوّنوا عليه الحياة، ما دام غير قادر على العودة إلى «دير ميماس».

سوف يقول لنبيل هذا كلّه، وأمورًا أُخرى و...

أبصر أشجار القصب، وأغصان الصفصاف تتحرّك في الجهة المقابلة. ولم يبصر خيال إنسان. ظنّ أنّ واحدًا من الحيوانات يتململ في الماء، عند أسفل

الجذوع... وتساءل: أيّ حيوان تراه يكون، هذا الذي يخوض أعماق المياه، ويهزّ الأشجار من جذورها؟

ثم أطلَّ الرأس «الملفوفة» طافيًا على صفحة المياه. وعرف رضوان؛ صديقه شحادة... كان يمشي وسط الماء، بين القصب والغزار، والماء يغمره حتّى يصل إلى عنقه، وصرخ به من بعيد: – يا شحادة، أوعى تغرق!

لوّح شحادة بيده:

– لا تخف، يا بو نبيل. وجهك طالع خير.

سأله:

– كم سمكة اصطدت؟

أجابه شحادة بغموض:

– خير الله وافر...

112

ولم يعطه الرقم. وسمع نبيل الحوار من مكانه، فهرع إلى القارب، يحمل في يده مشكّ السمك، وفوق وجهه البشر والحبور.

– عساك توفّقت؟

كان هذا أوّل سؤال بادر به أباه، فردّ بصوت خافت:

– الحمد لله.

أصرّ نبيل:

– يعني كم: كم سمكة؟

ابتسم له أبوه ابتسامة طفل مذنب:

– مثل ما قلت... وسمكتين زيادة.

ولمّا لم يُبْدِ نبيل أي اعتراض، تابع رضوان، شارحًا:

– يا ابني، صيد السمك مُغرٍ... أنا فكّرت أنّي ما تصيّدت غير خمس، ستّ سمكات. ولمّا فتحت الجربنيدة، فوجئت... وصرت أعدّ. عددت عشرًا، وبقيت سمكتان في أرض الجربندية.

ضحك نبيل بمرح:

– أنا حسبت الحساب، لذا اصطدت بالناقص. أي عندي سبع سمكات. بعد بيطلع لك تصطاد سمكة.

ردّ رضوان:

– خلّينا بالناقص، ولا بالزايد يا ابني. الطمع ضرّ ما نفع. المهمّ نعرف شحادة شو تصيّد.

– شحادة! تطلب المستحيل يا بو نبيل! شحادة يخبّئ السمكات في سرواله، حتّى لا نعرف الرقم.

ضحك رضوان للنكتة، ووصلت أصداء الضحكة إلى مسمع شحادة، فتلقّفها معاتبًا:

– شو خيي رضوان، تضحك على شكلي؟

ردّ فورًا:

– أبدًا... أضحك لنكتة نبيل.

– نبيل؟ ليش نبيل عنده نكتة غير على شحادة!

وحاول رضوان أن يدافع عن ابنه:

– كنا نتساءل: كم سمكة اصطدت؟ وفي الحقيقة، أقنعني نبيل أن لا أسألك مثل هذا السؤال.

تحمّس شحادة:

– ما في عليك أسرار، يا بو نبيل. اصطدنا دزّينة، وهذا المشك.

ورفع بيده الشهادة الحيّة.

فبادره نبيل:

– علينا يا شحادة؟ والجيوب الظاهرة والخفيّة، من شو قولك منفوخة؟

تحرّكت يد شحادة بعفوية إلى جيبوبه وهو يتمتم:

– هذا ماء... وحياة هالنعمة، ماء.

وختم نبيل الحوار:

الله يبارك لك... صيدك، وحلال لك. كنّا نمزح. عم شحادة... يا الله، هيا بنا!

ونزل الثلاثة إلى الماء، رفعوا القارب، ونقلوه إلى الطريق العام، فقطره نبيل إلى السيّارة، وعاد الثلاثة إلى المدينة، حيث كانت تنتظرهم مفاجأة...

113

هذه هي كندا:

سقف من ضباب،

مساحات لا تحدّ، من السهول الخضراء، الصفراء، المسطّحة، المنبسطة، وغابات، على مدّ النظر، أشجارها ضاربة في كبد الفضاء، صاعدة باتّجاه خالقها... وأشجارها متشابكة، متكاتفة، إلى درجة تمنع شعاع الشمس من التسرّب إلى الداخل؛ وتظلّ، معظم أشهر السنة، تعيش في ظلمة دامسة ووحشة قاتلة. ثمّ تقفز العين إلى الأنهر والبحيرات، والأنهر والمستنقعات الهادئة، العاقلة...

هذه الطبيعة، بكلّ ما تعرض من قوّة وجبروت!

ولكن أين الإنسان؟

من يزرع السهول؟ من يحرس الغابات؟ من يجرؤ على أن يشقّ السكينة، ويخترق الظلمة، ويعبر إلى قلب غابة، يكتنه أسرارها ويفكّ رموزها؟

رضوان يتساءل، يتلفّت حوله مدهوشًا، مثل طفل حملوه إلى نزهة في البرّية؛ وهو ليس غريبًا على حياة البراري...

ربيب البراري رضوان؛ إنّما البرّية هنا غيرها هناك، في بلاده، حيث تؤنسك أشجار الزيتون، وتمدّ الدوالي سواعدها ترحّب بك، وتنحني لك أشجار الصفصاف حتّى تلامس رؤوسها صفحة التراب.

هناك، في بلدته الدافئة، يشعر بأنه يمدّ كفّه، وفوق الكفّ يستطيع أن يحمل الكرم، والبستان، وحقول القمح... يجمع المساحات، بين موطئ قدم وأخرى.

وهنا... من يدري إلى أين تصل هذه السهول؟ من يهتمّ بها؟ من يتعهّدها بالغرس، والحصاد؟

114

والأرض لا تُطيق الإهمال. لا تُترك لتبور، أو لينبت فيها النعص والعلّيق. غالية هي الأرض... في بلاده، غالية جدًّا. هناك، يموت الإنسان، من أجل شبر منها.

منذ فتح رضوان عينيه على الدنيا، وهو يشهد تمسّك الناس بأرضهم. بكلّ حبّة تراب، يتعلّقون؛ بكلّ «حاكورة» وجلّ...

يشكّون الأوتاد عند حدود الأرض، مثل جنود الحراسة، والويل للقدم التي تخطو خطوة واحدة داخل حدّ الجيران!

وتنتقل الأرض من جيل إلى جيل، يرثها الأبناء عن الآباء، مثلما ورثها أولئك عن الأجداد، وقافلة الزمن تسير في خطّ متواصل، لا يقطعه حاجز، ولا يصدّه

جدار... لا يصدّه جدار.

وهنا، الأرض مفتوحة، إلى آخر مدى...، مثل انفتاح الخيمة الرمادية التي تظلّلها.

التفت إلى ابنه يسأله:

– هذه الأرض، من تخصّ يا نبيل؟

– الدولة، يا أبي... هذا ملك الدولة، لكن إذا تقدّم أحد المواطنين، وطلب منطقة، ليصلحها ويغرس فيها أو يبني، فإن الدولة تشجّعه بكلّ المساعدات والقروض.

الفكرة أعجبت رضوان... الدولة تشجّع! قال لنبيل، وكأنه يُسمع كندا رأيه فيها:

الله يبارك بهالدولة! هذا سبب العمران الحقيقي... الله يبارك.

واستطرد نبيل:

لكن، الذي يحصل، يا أبي، أنّ الناس هنا يهربون من العمل، خصوصًا سكّان هذه الجزيرة. يهمّهم أن يعيشوا حياة سهلة... ونادرًا ما يقدمون على مغامرة.

وتدخّل شحادة:

– أنا لا ألومهم. طالما الدولة تتعهّد لهم بكلّ شيء، من معيشة، وسكن، وعناية صحّية، لماذا التعب والشقاء؟ ثمّ لا تنسَ قوّة الطقس... الطقس هنا جائر، يا بو نبيل.

فردّ نبيل:

– الدولة تقوم كلّ يوم بمحاولات جديدة للتغلّب على الطبيعة. خذ السفر مثلًا: كانت الجزيرة تنقطع عن العالم أيّام الثلج والجليد. اليوم، السفن تحطّم الجليد وتنتقل بين الجزيرة وغيرها من البلدان. والطائرات، لا تتوقّف مهما قسا الطقس... حتّى الأوقيانوس الذي كان يُرهب النفوس حين يتجمّد، حوّله الإنسان العصريّ إلى ساحة رقص... وسباق خيل.

«ماذا تقول يا نبيل؟» السؤال قفز من شفتي رضوان بحماسة، فرد ابنه:

– أجل. أنا لا أمزح، يا أبي... بعد شهرين نأخذك لتحضر حفلة رقص على الجليد، أو تشاهد سباق الخيل فوق صفحة البحر.

– هذه، لا يصدّقها العقل. الرقص، فوق البحر؟ وسباق خيل على الجليد؟ إنّه بلد العجائب والغرائب.

وتابع نبيل:

– أجل. وكلّ يوم تزداد العجائب على يدي الإنسان المتطوّر، المتصدّي أبدًا لكلّ المصاعب، والتحدّيات... ومناخ كندا أكبر تحدٍّ للإنسان، الذي يتابع رحلته السكنيّة صوب الشمال.

واعترض شحادة:

– لكن الرحلة تسير مثل السلحفاة... منذ مئة سنة، وهم يحاولون أن يعبئوا هذه الجزيرة بالسكّان، لكن حساب الحقل لا يطابق حساب البيدر.

وسأله روضان باهتمام:

– يعني الناس عمَّال تهرب يا شحادة!

– الناس، خيي بو نبيل، مثل عبّاد الشمس، كيف ما مالت الشمس بيلحقوها... والجزيرة، إن شقّت حالها، بتعدّ مئة وخمسين ألف نسمة، يعني عدد سكّان حيّ في بيروت، مع أنّ مساحتها تعادل مساحة لبنان.

وتدخّل نبيل:

– لهذا السبب تعطي الدولة القروض، وتسهّل امتلاك الأراضي، لينتشر الناس في المساحات الخالية... على كلّ حال، نحن في الجزيرة بألف خير، إذا قسنا أنفسنا بسكّان الشمال.

وهزّ شحادة رأسه بسخرية:

– يا عيني، يا عيني! سكّان الشمال... يعني نحن هنا، في الجنوب؟

115

رضوان يستمع، ويحاول أن يفهم ويلمّ بكلّ ما يتعلّق بحياة أولاده في هذا العالم الغريب، ليطمئنّ ويحمل معه زادًا للعودة، لليالي الشتاء الطويلة، وسهرات الجيران والأصدقاء حول مواقد النار.

ومن خلال هذا الحوار القصير، تمكّن من فهم حديث المختار، أمس، عن تسهيلات الدولة الكندية للمهاجر اللبناني، خصوصًا في هذه الظروف القاسية، حين يتعرّض الوطن للحرب، ويواجه إنسانه العذاب والتشرّد والقتل، وما تحمله الحروب من ويلات... وتوصّل، بالتالي، إلى سؤال عن عجز عن البتّ

فيه: – أيّهما أفضل؟ أن يبقى الإنسان في وطنه يتعرّض لكلّ ضروب الهوان والتعذيب، وحتّى الموت... أم أن يهجره إلى وطن آخر، حيث يقتله الطقس والحنين الدائم؟

وتذكّر أنّ هذه حالة أبناء وطنه، منذ وُجِد ذلك الوطن، وتذكّر إخوته الذين اختاروا الغربة، وفكّر في أولاده الذين ساروا على درب إخوته، وبعد عشرات السنين؛ وزاده التفكير في هذا الموضوع قلقًا. بل كاد ينسيه أنّه عائد من رحلة صيد مظفرة، يحمل «جربندية» ملأى بالسمك، وأنّ أمّ نبيل تنتظر عودته، مثلما كانت تنتظره دائمًا بعد كلّ رحلة صيد؛ ثمّ التفت إلى يساره، فوقعت عيناه على وجه نبيل، الحبيب بين أولاده، سنده ومصدر الأمان والطمأنينة في حياته، وسمع صوت شحادة يتمتم: – وصلنا، شكرًا، يا عمّي، يا نبيل، كلّ رحلة وأنتم بخير، خيّي رضوان...

وفطن رضوان إلى أنّه أصبح في قلب المدينة، وخلال دقائق، كان يترجّل من السيّارة، حاملًا الجربندية الملأى بالسمك، الشهادة على رحلة ناجحة.

ومثلما تصوّرها، كانت أمّ نبيل واقفة في الباب ترحّب به، وجهها يطفح بشرًا:

– عجّل يا بو نبيل... راجي وصل من النيورك.

116

راجي، أخوها.

حين غادر البلاد، كانت ريَّا طفلة، ولم يلتقيا منذ ردّ الباب خلفه، ولم يعد يلتفت إلى الوراء.

هاجر، مثلما هاجرت أختها الماس، ولم يفكّر في العودة طوال تلك السنين. ولكنّه حالما سمع بوصولهما إلى كندا، سارع إلى لقياها... وأمّ نبيل ترقص من شدّة الفرح؛ أمسكت بيد زوجها، وقادته إلى الحمّام.

– غسّل، يا رجّال، وبدِّل ثيابك، راجي في الصالون.

سمع نبيل الخبر، ولم يصدّق:

– خالي راجي هنا؟ يا ألف أهلا وسهلا.

قفز إليه، وتعانقا، وبكى الخال، وسالت دموعه السخيّة حارّة؛ وكانت دموع الفرحة باللقاء، ودموع الندم على زمن انقضى في الانتظار.

ماذا كان ينتظر؟

هو نفسه لا يدري. كانت الأيّام تمرّ به، مستبدّة، مسيطرة؛ قذفته إلى دوّامة العمل، وصار الدولاب يدور به، ويدور... وهو محشور في الداخل، لا هو قادر على الخروج، ولا الدولاب يتوقّف عن الدوران...

– خال، أبشّرك، وصل الوالدان من البلاد، نتأمّل تشريفكم.

وطلب راجي أن يتحدّث إلى أخته، وخرجت الكلمات، متعثّرة. ماذا يقول لها على التلفون؟

ماذا يقول، وهو يعانقها اليوم، عجوزًا في السبعين، وقد صار هو على عتبة الثمانين؟

هل يصدّق أنّها أخته؟ وهو أخوها؟ ماذا عرفا من طعم الأخوّة سوى تلك الرسائل المتواصلة، عبر البحار، حاملة الأشواق والحنين، والشكوى ولوعة الفراق؟

117

– أختي ريّا، يا حبيبتي، ابقي بقربي؛ إجلسي، لا تتعبي، لا تتحرّكي. أنا مشتاق إليك... مشتاق.

يغمرها بذراعه، وكأنّه يغمر في شخصها أمّه، أرضه ووطنه.

أطلّ رضوان وهما على تلك الحالة، فشعر بالارتباك. هذه أوّل مرّة يبصر فيها أمّ نبيل مستسلمة لذراع غير ذراعه.

يعلم أنّ الرجل أخوها، ولكنّه يحسّ، بالرغم عنه، بعضّة الغيرة تنهش صدره... من أين جاء أخوها؟

من سنوات الهجر والضياع!

كان صورة فوق الجدار. كلمات في الرسائل. ذكرى وعبرة. وها هو يتجسّد أمام عينيه؛ وهو رجل وسيم، برغم بلوغه الثمانين؛ وهو قويّ البنية، صبوح الوجه ممتلئ حيوية... وجهه يحمل ملامح وجهها.

هذا الغريب أخوها!

تقدّم يصافحه، يقبّله، ويتقبّل منه تساؤل العينين، والنظرات الفاحصة. شعر بأنّ الأخ جاء الآن، بعد انقضاء نصف قرن، جاء ليوافق أو يعترض على زواجهما.

جلس قبالة الرجل، وقد انتابته قشعريرة غريبة، ولم يَدْرِ كيف يخوض مجرى الحديث، فأشعل سيجارة وراح يصغي. وأمّ نبيل، صارت بعيدة عنه.

فجأة، عادت ريّا، ابنة توفيق بو نجم، الساكنة «جورة السنديان»، وعاد هو، رضوان أبو يوسف، برّاك المطحنة الذي أحبّها من اللقاء الأول، وعاش، من أجل عينيها، ليالي القلق الطويلة.

هذا أخوها، يحضر ليوافق أو يعترض، بعد انقضاء نصف قرن من الزمن، وبعدما كبر الأولاد، وتزوّجوا، وصار هو جدًّا وصارت هي جدّة ستّ عشرة مرّة، وبعدما كلّل الشيب رأسيهما، وغزت التجاعيد الوجه الورديّ، الخمريّ، وتحلّقت حول العينين العسليتين.

هذا أخوها، طالع من غربة ستّين عامًا:

– أهلًا وسهلًا بالصهر! كم كنتُ مشتاقًا للتعرّف إليك، يا رضوان؟ سمعنا عنك أطيب الأخبار، لكن الأيام حرمتنا نور وجهك، حتى الآن.

استجمع رضوان شجاعته:

– هذه أسعد لحظات العمر، يا «بو ريمون» يا عمّي... عشنا سنين على ذكركم، وبسيرتكم. حلمنا كثيرًا بأن تجمعنا الأيّام، والحمد لله الحلم تحقّق.

وردّ راجي:

– والحلم يتحقّق أكثر حين تأتيان إلى نيويورك، وتتعرّفان إلى العائلة؛ ثم إنّ أختي ألماس تنتظركما هناك... السفر صعب على ألماس.

118

ورضوان له في نيورك أخوة؛ ثلاثة أسماء يحفظها عن ظهر قلب: يوسف، سعد، وعدلا. ماذا لو أطلّ واحد من إخوته الآن، وتعرّف إليه، وعانقه، بعد هذا العمر الطويل من الهجر والأحلام؟ ولكن أين هم الأخوة؟ وهل هم أحياء أم أموات؟

منذ حرب «الأربَتَعش» لم يسمع عنهم خبرًا... ضاعوا في مدينة اسمها «نيويورك». ابتلعت ذكرهم المدينة الجبّارة! منذ فتح عينيه على الوجود، وهو يسمع أنّهم سافروا إلى نيورك، ولم يعودوا.

ولم يترك الموضوع معلّقًا في الهواء... حالما وطأت قدمه أرض كندا سأل عنهم. وأوّل من تلقّى السؤال ابنه نبيل:

– يا ابني، جرّبت تسأل عن عمّك سعد، وعمّك يوسف، وعمتك عدلا؟

ونبيل سأل كثيرًا، وأوصل السؤال إلى خاله وخالته المقيمين في نيويورك، وكانت الأجوبة سلبيّة:

– يا أبي، لم يسمع أحد أخبارهم. أغلب الظنّ أنهم بدّلوا أسماءهم، أو مكان إقامتهم. جاؤوا نيويورك قبل الحرب الأولى، ولكن من يؤكّد أنّهم ظلوا فيها.

وكان نبيل يسمع في أعماق الوعي عبارة أخرى تتردّد:

– نيورك؟ كلّهم كانوا يسافرون إلى نيورك. اسم المدينة احتلّ واجهة السفر، وصار يعني المَهاجر كلّها، ودنيا الاغتراب. نيورك، لأهلها، هي مدينة ذات معالم محدّدة. ولكن نيورك المزروعة في العيون المنتظرة والقلوب الواجفة في قرى الوطن، تعني الغربة الأبديّة، تعني الضياع...

وأبوه يحمل إيمانه العتيق، والسؤال الدائم، ويطرحه على راجي:

– يا بو ريمون، يا عمّي، سمعت شيء مرّة باسم إخوتي؟ سعد، يوسف، وعدلا؟ هاجروا إلى نيورك، من زمان... قبل حرب الأربتعش... هاجروا وما عادوا كتبوا...

وردّ راجي:

– نبيل حدّثني في الأمر، من زمان، وسألت عنهم... سألت المغتربين، وبحثت في دليل التلفون، وفي اجتماعات النوادي. لكن مع الأسف، ما وصلت إلى نتيجة.

قال رضوان بيأس:

– يعني نعتبرهم مفقودين؟

حاول راجي أن يخفّف عنه:

– أمثالهم كثار، يا بو نبيل. ومن يدري؟ يمكن نسمع شي خبر طيّب لمّا تزورونا.

ودّد رضوان باستسلام:

– الله يسمع منك... الله يخلّي أولادك.

كلام راجي أعاد بعض الثقة إلى نفس رضوان، وأنعش أملًا كاد يذوي في مدار الكلام. من يدري؟ فقد تحدث الأعجوبة في حياة رضوان.

119

ترحل الذاكرة، عبر الزمن، مثل رحيل الطيور الأسطورية.

تنتزع قوائمها عن سطح الواقع؛ ترفّ بأجنحتها، وتحلّق بيعدًا، وتعبر أبواب السنين، تغلّ في الثنايا المظلمة، لتنبش الماضي... تنبش الماضي.

120

من الماضي أطلّ راجي، وكان من قبل، صورة فوق الجدار، كلمات في رسالة، وكان حكاية عتيقة، تسلّقت حياة رضوان، مثلما تتسلّق أغصان العلّيق جذع شجرة الحور، وتلفّه، تكسوه، فلا يبدو منه سوى رفيف الأوراق.

ورضوان انطلق في هذه الرحلة المعاكسة لزمنه، وأيامه؛ والمعاكسة حتى لمسيرة الذاكرة؛ ولم يحسب حسابًا لما سيواجهه من مفاجآت. وهو، كلّما مدّ يده ليشرّع بابًا، يكتشف عالمًا جديدًا يفتح أمام عينيه، مثل انفتاح الدهشة في عيني طفل. وكلّما طالعه وجه جديد، تفجّرت في عروقه مجاري الماضي، وأقنية الزمن.

وزمنه لا يكتفي بالأخاديد والثنايا التي رسمها فوق جبينه، في انحدار الخدّين، وحول دائرة العينين، بل ها هو يوصله إلى نفق جديد ويضعه، وجهًا لوجه، مع الأسطورة الطالعة من ضباب الأيّام؛ فيقف، ويتذكّر، يقف ويرسم علامة ليتأكّد، في يوم من أيّام المستقبل، أنّه حقًّا كان شاهدًا على ما يرى وما يسمع، حتّى إذا جلس فوق المصطبة ليحكي، يكون مقتنعًا، واثقًا بنفسه، فيقنع مستمعيه: – يا عمّي، الله أمدّ بعمرنا، حتّى سافرنا إلى النيورك، وشاهدنا ابن العم راجي، شقيق أم نبيل؛ راجي، سبحان الخالق المعطي!

121

وراجي قبل أن يهاجر، ترك علامة فارقة على كلّ درب يعبر «جورة السنديان».

وكان ذلك أيّام زمان. أيّام ولّت، وتساقطت يومًا بعد يوم مثل تساقط أوراق الخريف، وطمرها التراب تحت شجر «الجورة»، غير أنّها تسلّلت في عروق الشجر، لتشرق ثمارًا فوق الغصون.

في تلك الأيّام، عرف شباب الجورة «سفر برلك»، رحلات التجنيد الإجباري أيّام حكم العثمانيين... حين كان الجور سيّد الأحكام.

سلخوا الشباب من أحضان الآباء والأمّهات. سلخوهم عن الأرض التي احتضنتهم، ورعت طفولتهم، وقذفوا بهم إلى المجهول.

ومن «الجورة» قشّوا رفًا من الفراخ الرائشة، وكان راجي في المقدّمة.

ماذا فعلوا بهم؟

ما الذي كان يجري، في تلك الفترة المظلمة؟

لا أحد يتذكّر. لا أحد يريد أن يتذكّر. ورضوان يعرف القصّة من بعد رجوع راجي من تلك الرحلة.

رجع راجي هاربًا من الجوع والشقاء، ولكنّه لم يستطع أن يهرب من المرض. حمله إلى والديه، ذات ليلة سوداء. وحين طرق باب البيت، لم تعرفه أمّه، وعقلت المفاجأة لسان أبيه، وعندما انفكّت عقدة اللسان، اتّفق الوالدان على أن ينقلا ابنهما إلى كوخ لهم، في طرف القرية، حتى لا يتسرَّب خبر هربه فيداهمهم الجنود الأتراك، خصوصًا وأنّ لهم في كلّ زاوية عيونًا ترصد تحرّكات المواطنين، وتبادر إلى نقل الأخبار.

122

وفي الكوخ، انطرح راجي فاقدًا وعيه؛ وظلّ في غيبوبة دامت أسبوعين، وأمّه عند قدميه، ساجدة؛ تقطر له الماء بين شفتين شقّقتهما الحمّى؛ وتحاول أن تخفِّف من وطأة الداء بلزقات الخلّ والسبيرتو... وتصلّي.

ومثلما غاب راجي، في دوار الحمّى، غابت أمّه مع صلواتها الحارة...

في ذلك العالم البعيد، كانت الأمّ، حين طرق بابها رجل غريب، مهيب الطلعة، أشيب الرأس واللحية، يمشي حافي القدمين، ويرتدي عباءة بيضاء.

سألته ذاهلة:

– من تكون يا سيّدي!!

أجاب:

– أنا الطبيب. اسقي ابنك من هذا الماء.

وأشار إلى طاسة نحاس تستخدمها عادة للشرب.

وفيما كانت عيناها تبحثان عن الطاسة، اختفى الطارق الغريب، وأفاقت هي من غيبوبتها.

ومن دون أن تنتظر لحظة، هرعت إلى الطاسة، فوجدت فيها بقية ماء، حملته وراحت تقطّره في فم ابنها المريض.

وما كادت تأتي على آخر قطرة، حتى فتح راجي عينيه وسألها:

– أمّي! أين أنا، يا أمّي؟

فغمرته غير مصدّقة:

– أنت في قلب أمّك، يا حبيبي.

– أعطيني لأشرب، يا أمّي.

وهبّت تقدّم له الماء، وتمسح العرق المتفصّد من جبينه، وتغسل عينيه بطرف شاشة بيضاء.

– أمّي، شفيت، يا أمّي.

– أعلم ذلك، يا سندي! الطبيب زارنا، وشفاك.

فتح المريض عينين هلعتين:

– الطبيب؟ أين الطبيب؟ هل جاء العسكر؟

– لا... لا تخف يا حبيبي. الطبيب غير العسكر، بعثته إلينا العناية الإلهية.

وكانت أم راجي واثقة بأنّ إيمانها استدعى الطبيب الغريب في الحلم، وكانت الأعجوبة... أعجوبة الإيمان، والأمومة المنسكبة تضحية إلى درجة الاضمحلال.

ولم تعد إلى الكلام مع راجي، حول هذا الموضوع، إلّا بعد انقضاء أيّام على شفائه. انتظرت حتى استردّ ابنها قوّته، فصار قادرًا على أن يمشي في الغرفة، ويتناول طعامه بنفسه؛ حينذاك أخبرته عن زيارة الرجل الغامض ووصفته له بدقّة، فقال: – يا أمّي، إيمانك كان واسطة شفائي، وسوف أرتدي ثوب الإيمان، مدى عمري.

وكان الشاب متأكّدًا من أنّ أعجوبة حدثت له، وأعادته من القبر. الحمّى تحصد الشباب حصدًا؛ أبصرهم، قبل أن يهرب من الجيش؛ كانوا يموتون على قارعة الطريق، ويُتركون في العراء، فريسة الوحوش والكواسر.

وهو. كان ميتًا فعاش. غير أنّه لا يستطيع البقاء في بلده.

وأبوه يعرف ذلك، حقّ المعرفة؛ وقد انتظره حتّى استردّ العافية، فزوّده ببعض المال، وهرّبه مع فريق من أبناء بلده المهاجرين... واتّجه الشابّ إلى صيدا، والرحلة استغرقت ثلاثة أيّام، إذ كانوا يسيرون في الليل، ويختبئون في النهار. وحين وصلوا، كان راجي حافي القدمين؛ رثّ الثياب، لكن منظره لم يكن مستهجنًا؛ فمعظم المسافرين في حالة تشبه حالته.

قطع بطاقة السفر، وقذفوه فوق ظهر باخرة شحن متوجهة إلى «مرسيليا» التي كانت محطة كل المهاجر، ومركز التقاء المسافرين، قبل أن تتوزّعهم الدروب، ويمضي كلّ واحد إلى أرض لم يقصدها، ولا يعرف شيئًا من أمرها... همّه الوحيد أن يخرج من بلاد استبدّ حكّامها وبطشوا، وأشعلوا فيها النار، من دون أن يقدّروا مساحة الحريق.

وراجي كان يعرف وجهة سفره: إنّه ذاهب إلى نيويورك، حيث يقيم أخواله، وفريق من أبناء قريته... وهو يحمل في قبضته ورقة، وعليها أسماء وعناوين، ويحمل في قلبه ذخرًا من إيمان زوّدته به أمّه حين أوصته: – يا بني، الله أراد لك الحياة حين أنقذك من أهوال «السفر برلك»، وخلّصك من الحمّى، ومن عيون الرصد المحيطة بنا... رُح يا ولدي، وليكن الرضى والإيمان رفيقي دربك.

123

وهكذا وجد راجي نفسه، أخيرًا فوق ظهر الباخرة، بين قطيع من البشر، كنسته رياح السياسة الجائرة، مثلما كنست قبله جيل أبيه وأخواله. وهو يكمل المسيرة، يقتفي أثرهم، ويتبع خطًّا ساروا عليه، مثلما تتبع طيور أيلول خطّ هجرتها، سنة بعد سنة، وموسمًا إثر موسم.

لم يعدّ أيّام السفر. لم يسجّلها في الذاكرة. تلك الأيام، انتزعها من ذاكرته، وطرحها في البحر، حالما رست الباخرة في ميناء نيويورك.

وصل، والدنيا حوله، ضباب ووحشة.

حمل صرّة حاجاته، وسار يبحث عن عنوان الأخوال.

124

ستّون سنة انقضت على وصول راجي إلى نيويورك.

ستة عقود... عمر!

آه! ما أسرع ما ينقضي العمر! فَها هو يتجاوز الثمانين، ولا يزال النور يشرق فوق وجهه، والحنان يتدفّق من عينيه... ذلك الحنان الدافئ الذي ينتشلك فورًا من بلاد الصقيع والغربة، ويحملك إلى قرية الزيتون والعنب والتين، في جنوب لبنان.

لم تَقْوَ ستّون سنة طويلة، ثقيلة، مجهولة المعالم، لم تَقْوَ على محو تلك الملامح الرائعة، التي نقلها الفتى من قريته الصغيرة، إلى أكبر مدن الأرض... نيويورك!

ومن نيويورك، جاء إلى كندا، ليستقبل أخته، ويتعرَّف إلى صهره، ويدعوهما إلى زيارته.

125

ورضوان يكاد يطير فرحًا بالدعوة.

من قبل، كانت نيويورك خاطرة أسطورية في باله... حلم ليلة صيف. كانت اسمًا ينمو فوق الشفاه ويكبر، فلا تعود تستوعبه المخيّلة. ثمّ يقترب الاسم – الأسطورة – بهدوء وحنان، يقترب من سمع رضوان، من وجوده ويلفُّه.

رضوان يسافر إلى نيويورك!

يسافر، يخترق المستحيل، يجترح الأعجوبة، يتلمّسها بيدين لا تزال الشقوق تعشّش في كفَّيهما... ويتلمّسها بقلب حمل من الحياة الشغف، ومن الوجود الدهشة؛ وحمل إلى هذه الدنيا الغامضة أحلام الماضي وآماله.

126

رحلة الطائرة تعوّدها رضوان. إقلاعه الأوّل جعله واحدًا من فرسانها: وها هو يتقدّم بخطًى ثابتة وجريئة؛ وخلفه تسير رفيقة العمر، أم نبيل، متّكئة على ساعد ابنتهما لمياء.

وقعت القرعة على لمياء لترافق والديها إلى نيويورك؛ الشباب في أشغالهم، ونوال مرتبطة بالتدريس في الجامعة، ومعين تطوّع ليحلّ مكان زوجته، فيرعى شؤون المنزل، ويهتمّ بالأولاد.

ورضوان يهبط في نيورك. الرحلة لا تكتمل ما لم يقم بزيارة المدينة التي تُسمّى باسمها الغربة وأزمنة الحنين واللوعة.

يبدو له المطار عاديًّا، مثل جميع المطارات التي استقبلته... الموظّفون متشابهون؛ الوجوه الغريبة غريبة، وحتّى المضيفات الحسناوات لا يثرن دهشته. ألف رؤية الشَّعر الأشقر، والوجوه البيضاء، والقامات الفارعة. ينظر إلى واحدة منهنّ، فيحسّ أنّه أبصر جميع الفتيات.

وهناك ما هو أهمّ من هذه المظاهر؛ لن تلهيه الشعاب المتفرّعة عن الطريق الأساسيّ الذي يوصله إلى مدينة السحر.

ومثلما يخترق خيال الطفل القصص الأسطورية، ويتغلغل حتّى الأعماق فلا يعود يسمع أو يعي شيئًا ممّا حوله، هكذا بدأ رضوان اختراقه للمدينة.

127

– إنّها نيويورك، يا أبي...

لمياء تحاول أن تشرح.

يسمعها لحظات، ثمّ تخطفه المشاهد المقبلة عليه، لتزيده دهشة وحيرة.

إنّها نيويورك.

يبصرها من أسفل.

من هذا الشارع العريض، من نافذة سيّارة تحدّده وتقيّده، ولا تسمح للخيال بأن يظفر بجنون، ليبرطع فوق السطوح:

– ما شاء الله، يا ليماء! شو هالدنيا يا بنتي!

ويتوجّه إلى أم نبيل، وكأنّه يكتشف لأوّل مرّة أنّها لا تزال بقربه:

شوفي، يا مَرَا... نيورك، مين بيصدق؟ نحن في قلب نيورك؟!

ابتسامة عريضة تنفرش فوق وجهه، تشعّ من عينيه، يتشظّى بريقها وينعكس على كلّ ما يحيط به.

عيناه تقفزان بنهم، تمسحان واجهات المخازن، أجسام البشر الزاحفين فوق الأرصفة، والبشر الخارجين والداخلين من كل مكان.

وسمعه يرشف هدير المدينة التي يعلو فيها صوت الآلة على صوت الإنسان. والآلة ترتفع، عملاقة، فيبدو الإنسان إلى جانبها، حشرة تسعى... ومن دماغ تلك «الحشرة» انبثقت البنايات الناطحات السحاب، والجسور المعلّقة، وكلّ غرائب الفنّ الهندسي!

والسيّارة الأميركية الفخمة تتململ كالأفعى فوق الأسفلت، تعرف مداخل المدين ومخارجها. السيّارة تعرف طريقها؛ وهو، ولو قضى هنا عمرين، لن يتعلّم كيف ينقل خطاه.

وينكفئ على نفسه، يناقشها:

«كيف لك أن تعرف، يا رجل؟ كيف تتعلّم السير في هذه المتاهات؟ في هذه الدنيا الواسعة؛ حيث تتعانق المباني عناق الأشجار في غابة، وتتّصل الشوارع ولا تفترق، وتحملك، وأنت تجهل إلى أين تصل...

ألا تخشى الضياع، يا رجل؟ هنا، ضاع ثلاثة من لحمك ودمك؛ سعد، يوسف وعدلا... دخلوها قبلك بعشرات السنين، وكانوا يحملون الشوق والأسئلة وتطلّعات لبناء المستقبل، وابتلعتهم.

في أيّ طريق تاهوا؟

في أيّ بناء يقيمون؟

كيف لك أن تعرف؟ وهذه الطرق تتعانق وتفترق، تلفّ وتدور حلو جذوع المباني، ولا تترك فسحة يرتاح فيها الخيال، أو واحدة تقيّل فيها العاطفة عندما تحمى الشمس، وتعكس شعاعاتها في العينين، فتطفر منهما الدموع.»

مسح رضوان دمعات سالت غصبًا عنه، وراحت تكرج فوق الخدّين.

مسح الدموع خلسة وهو يتمتم:

– النظر يتعب... كيف بيلحِّق الإنسان يتفرّج على هالدنيا؟

ونظره يعاود نشاطه، ويتابع اقتحام المعالم المدهشة بنهم، ويحاول أن يفتح، في هذه المدينة، طاقة صغيرة للحوار... فتحة لا تزيد عن راحة اليد، مثل تلك الطاقة التي حاوره منها الموظّف في القنصلية الكندية في بيروت... والتي كانت المدخل الأوّل إلى عوالم الغربة والدهشة.

بعد وقوفه، هناك، في ذلك الصفّ الطويل المنتظر بصبر وصمت، أمام موظّف القنصلية... بعد تلك الوقفة، لم يعد رضوان يقوى على استرجاع نفسه. خرجت منه، مثلما تخرج الفراشة من عزلة شرنقتها، وراحت ترفّ، تارة بجنون، وطورًا بهدوء واستسلام.

«لا وقت لديك للتأمّل يا رجل. ولا وقت لاسترجاع الذكريات. أنت، في أروع لحظات العمر. تطلّع واختزن الصور، لتعرضها فيما بعد، حين تعود إلى الجورة، ويأتون للسلام عليك، من «حارة التحتا»، من «الحارة الشرقية» ومن «الحارة الفوقا» ومن بيوت الجيران... سوف يقصدونك أفواجًا. الرجال، والنساء

والأطفال، والفتيان: – بو نبيل رجع من السفر... رجع من النيورك... يالله نسلّم عليه...»

يأتون، ويجلسون حلقات، وتدور صينية القهوة، وصينية الحلوى. وأمّ نبيل حسبت كلّ حساب، وأعدّت قبل أن تسافر «لَكَنًا» نحاسيًّا كبيرًا، قالت إنّها ستملأه ملبّسًا على قضامة، وفستقًا سودانيًّا بقشره... تفرّق منه، وتوزّع على الأولاد.

هذه هي العادة في «الجورة» منذ عشرات السنين... وأمّ نبيل متمسّكة بالطقوس والعادات، ولا تدع مناسبة تمرّ، من دون أن تعطيها حقّها.

129

ويشرد به الذهن، ويبصر نفسه هناك، ويبصر نفسه هنا. وهو الآن هنا، وراجي يستقبلهم في الباب. يبصره واقفًا بين امرأتين: واحدة شقراء نحيلة، تبتسم بتحفّظ؛ إنّها زوجته، «ماغي» عرفها من صورها... والثانية سمراء، خمرية، يعلو رأسها تاج من الشعر الأبيض، المائل إلى لون الرماد.

وهذه «ألماس»، شقيقة أم نبيل... «شعرها كوكي بيضا»، هكذا كانت تصفها أمّها. وعينا الأم لم تتمتّعا بما يرى. وهو، لو أبصر هذه «الكوكي البيضا» بين مئات النساء، فإنّ نظره يميّزها وحدسه يصطفيها... إنّها تحمل معالم أقرب الوجوه إليه.

يتقدّم الثلاثة منهم؛ يرحِّبون بهم، ويبدأ العناق، وتفور الدموع، وتخرس الأصوات؛ وكأنّما الزمن توقّف، فوق الرتاج، ليكون شاهدًا على هذه اللحظات التاريخية.

كان راجي أوّل من صحا من تلك السرحة؛ استلَّ نفسه، واستعاد صوته:

– تفضّلوا، يا جماعة، نكمل السلامات في الداخل.

سار الجميع بصمت، بين أشجار الحديقة، التي ارتدت للمناسبة ثوبًا مطرّزًا بأوراق الخريف.

رضوان يتلفّت حوله، ولا يبصر المدينة.

أضاع نيورك في هذه الحديقة الكثيفة الأشجار؛ هو في نيورك؟

أين هي نيورك؟

يتابع المسير مع الربع، وتشرّع في وجهه الأبواب، ويلج المنزل الفخم، والذي يضاهي قصور الملوك... ويخشى أن يدوس فوق السجّاد الأنيق، وتتحرّك قدمه، بالغريزة، لتنفض الحذاء وتخلعه عند العتبة، ثمّ يتراجع عن الفكرة ويقتدي بما يفعله أصحاب الدار.

ويلاحظ بأنّ أمّ ريمون ليست صبيّة كما تبدو في الصورة المعلّقة في صدر الدا، في الجورة، ولكنّها تحتفظ بقدر كبير من النشاط والحيوية... تتسلّق السلّم قفزًا، وتدعو لمياء لترافقها، كي تدلّها إلى غرفة أُعدّت لها، وأخرى لوالديها.

وأمّ نبيل تعتذر عن صعود السلّم:

– اتركوني أستريح.

تعبت ساقاها من قلّة الحركة؛ ووهنت الساقان من تلك الرعشات التي بدأت في عينيها، ثمّ راحت تتمشى في عروقها، حتى أطراف تلك العروق. وهي تجلس، مع أختها وأخيها وزوجها، في صدر الصالون في لقاء لم تجرؤ على أن تتصوّره، حتّى في الأحلام.

عيونهم تحكي، وترسم الكلمات صورًا وألوانًا، والأفواه مطبقة، وقد أنستها المفاجأة كلّ قول.

وكانت ألماس أجرأهم، حين أخذت زمام المبادرة:

– يا أختي، يا ربّا، هذا لقاء العمر...

ثمّ أردفت:

– يا «هَنِي»، تغيّرتِ كثير، وأنا تغيّرت، وراجي تغيّر، والأيّام... تغيّرت.

وبقي راجي يتأمّل الأختين، وقد لفّت الواحدة ساعدها حول كتفي أختها، وجلستا تهضمان الفرح، وتغوصان حتّى أعماق اللحظات.

كان يخشى إن هو فتح فمه، أن تسبقه دموعه... إنّه لا يصدّق ما تبصره عيناه... لا يصدق أنّ أخته الصغرى قطعت البحار السبعة، وقدمت لزيارته.

ورضوان، أشعل سيجارة، واكتفى بالإصغاء...

130

كان قد انقضى شهر، على الزيارة التي قام بها راجي، إلى كندا. وخلال هذا الشهر تبدّلت حياته تبدُّلًا ملحوظًا، إذ نفخت فيه الرحلة أنفاسًا جديدة، كانت قد

طمستها أيّام الاغتراب الرمادية. عاد يمسك بطرف خيط، حسبه انقطع إلى الأبد؛ وقد أحسّ الانقطاع على مراحل؛ في البدء حين سحب قدميه من تراب قريته، وغرق في هذا العالم الغريب، ثمّ حين فقد والده، لكنّ الصدمة التي قطعت الخيط نهائيًّا، جاءت مع نعي والدته...

كانت أمّه تعني الأرض وما عليها، والوعد الدائم بالعودة... وكان قلبه يحجّ إليها في كلّ لحظة. لكنّ أيّامه ظلّت تعاكسه، تتكدّس وتتراكم، وتغلبه.

كان يظنّ أنّ الأيّام تمهله، والعمر ينتظر. وتعلّم متأخّرًا جدًّا أنّه لا يجوز للمرء أن ينتظر الفرص. وهو يبدعها، يحدّدها، ينتزعها من ركام المشاغل والمسؤوليات.

تعلّم، إنّما العلم جاءه متأخّرًا، وها هو يجد طرفًا من الخيط القديم، يجده بين أصابعه، فيتمسّك به، يتعلّق به، ويطير من شدّة الفرح.

وزوجته، جاءت تشهد على فرحه الجديد... وكانوا يتحلّقون حول مائدة العشاء:

– يا ريّا، يا حبيبتي، أحضرتِ السحر معك. أنتِ وبو نبيل... شو السرّ اللي حملتوه من البلاد؟!

وردّت أم نبيل ببساطة:

– أحضرنا معنا رائحة البلاد...

قالت ماغي:

– ورائحة البلاد تسحر. معك حقّ يا أمّ نبيل... أنا، لمّا سافرت من البلاد، كان عمري ستّ سنين. وفي كلّ لحظة، أرجع إلى مطارح الطفولة. في خيالي، وحلمي،... معلّقة، بحبال الذكريات. لا أعرف إذا كنت أرجع شي يوم.

قاطعها رضوان:

– بترجعي، انشالله، يا أم ريمون... عسى كلّكم ترجعوا.

وتابعت ماغي:

– صدقوني إذا أخبرتكم عن راجي، رجع يغنّي عربي. صار لنا سنين مع بعض، ولا مرّة سمعتو يغنّي عربي.

تدخّلت ألماس:

– وغناء قديم، كمان... هات، يا «هَنِي»، سمّعنا شي ردّة.

ضحكت عينا راجي، قبل أن تتفشّى الضحكة في سائر معالم وجهه، وبدأت ماغي تُرندح، فرافقها منغمًا:

«وَيْلي من الغَرامِ
مَسَبِّب السقام
قد قَصَّرتْ أيامي
لواعجُ الهوى
أواهُ يا أصحابي
لو تَعْلموا مُصابي
تبكوا على عذابي
لو ينفَع البُكاء»

– صوتك عظيم يا أم ريمون!

رضوان يتحمّس، يصفِّق بشدْة، ويطلب المزيد.

ويعتذر راجي:

– هذه أغنيات قديمة جدًّا، يمكن نسوها في البلاد.

وأمّ نبيل تردّ بحماسة:

– جيلنا ما نسيها، يا خيي...

وألماس تطلب المزيد:

– هاتوا، سمعونا ردّة ثانية... «حاكيني عالتلفون مرّة». أو: «خُذْني على بلادي بالطيارة...»

ويردّ راجي بمرح:

– بدل ما تقولي كش، اكسري رجلها... سمعينا أنت.

تنهّدت ألماس:

– أنا؟ يا حسرة! لا صوت، ولا نغم.

قالت ماغي:

نسمع ردّة من صهرنا بو نبيل، أكيد صوته حلو.

أم نبيل تصحّح:

– بو نبيل شاطر بالرقص... أكثر من الغنا.

وتتحمّس ماغي:

– عظيم. بعد العشا نديرها على الرقص.
واعتذر أبو نبيل:
– الأيّام باقية...
فقالت ألماس:
– صهرنا يطبق قول المثل: لا تقول للمغني غني، ولا للرقّاص ارقص.
ودافع راجي:
– بو نبيل تعبان. نعذره الليلة، شرط أن يعطينا الوعد للمرّة القادمة.
أجابه رضوان:
– إن شاء الله يا عمي، يا بو ريمون... تظلّوا بخير.

131

تَدْخل بيوت الناس، تدخل قلوبهم، تمدّ يدك تصافح الأيدي الممتدّة إليك، وتتلاقى العيون، وتتصادم البسمات، وتتراقص الكلمات، بين الأخذ والردّ؛ ثمّ يعود الغريب غريبًا؛ ويرجع كلّ فرد إلى ذاته، حيث يرتاح فيها، مثلما يرتاح في فراشه الأليف، بعد ليالي السهر المضنية.

132

ورضوان دخل بيت الأقارب، تعرّف إليهم، تنعّم بالضيافة ونام فوق سرير وثير، على فراش من ريش النعام، وفي غرفة مكيّفة، تصدّ عنه تقلّبات الجوّ الخارجي. وأمّ نبيل غاصت في هذه النعمة، بطمأنينة وهناء، وكأنّما هذه الزيارة جاءتها جوابًا عن مئات الأسئلة الضائعة في طيِّ السنين...

رضوان لا يكفّ عن طرح الأسئلة المقلقة. يطرحها على نفسه، قبل أن يخرج بها إلى الآخرين. وهو يفكّر، الآن، في أنّه مهما اقترب من هؤلاء الناس، فسوف تظلّ مسافة ما تقف بينه وبينهم؛ بل إنّ اللحظات الحاليّة تعيده إلى شعور حاول أن يتخلّص منه، في يوم مضى... حاول أن يدفنه تحت ركام السنين.

وكان السؤال ينهش الصدر، حتّى يجرحه ويدميه، كلّما سمع أحدهم في جورة السنديان يهمس من خلف ظهره: «غريب»، والغريب يبقى غريبًا. في

القرى، يظلّ طوال عمره يحاول أن يلج العتبة، ليجد له مقعدًا في الداخل، مع الذين سبقوه بالحضور... وتظلّ أيدٍ خفية تصدّه، أو تسحب المقعد من تحته.

«صهر بيت»، رضوان، مهما حاول أن يُعَمِّق الحفرة ليغرس فيها جذوره، فإنّ الأرض ليست أرضه، والتربة ليست تربته، والجذور تشعر بطبقة من الصقيع تمتدّ فوقها، وتفصلها عن دفء الأعماق.

منذ خطا خطوته الأولى داخل حديقة راجي، وهذا الشعور المزدوج يتجاذبه: إنّه يحبّ راجي، وهو معجب به، بالرجل العصامي الذي انتصب للحياة يتصدّى لها، يتحدّاها بساعدين عاريين؛ ووقف لها بإرادة من حديد دفعته إلى أن يشقّ طريقه وسط هذه الغربة الموحشة؛ بنى الدار الفخمة، أنشأ عائلة سعيدة، وأسّس سلسلة مخازن باسمه، وجعل اسمه علمًا فوق أرض الهجرة.

ورضوان يقترب منه، محاولًا أن يقيم علاقة متينة تعوّضه من السنين الضائعة، لكنّه لا يلبث أن يتراجع، ويعود يتكوّم داخل ذاته التي تعوّدت منه هذا الانهزام والتقلّص، ووسّعت له بوّابة الدخول.

وحين انصرف الجميع إلى الثرثرة والغناء، في الليلة البارحة، ظلّ رضوان جامدًا، غارقًا في التأمّل، مصغيًا إلى ما يدور حوله، أو شاردًا مع خياله؛ تخطفه الهواجس والأفكار الغريبة، ويتمنّى لو... فقط «لو»، يطلّ وجه من وجوه إخوته، لتتساوى كفّتا الميزان، وترتفع كفّته مقابل كفّة أم نبيل ويواجه أقاربها بفخر: «أعرّفكم بأخي... بإخوتي...».

ويتذكّر عبارة سمعها مرة من كاهن الرعية، في «جورة السنديان» عن عودة الإبن الضال، وهو يردّدها الآن، في صمت الأعماق: «هذا أخي، كان ميتًا فعاش، وكان ضالًّا فوُجد».

من أين له أن يُوجَد؟

ويحسّ أنّ المشكلة تتكمّش به، مثل أظافر عليقة... وهذه الرحلة فرصته المؤاتية ليبحث عنهم، فهل يفلت فرصته الذهبية من يده؟

133

انضمّ إلى مائدة الفطور، وهو يصارع أفكاره، وتساؤلاته؛ شرب القهوة الأميركية، ولم يعترض.

بيت راجي غير بيت نبيل. هنا المطبخ الأميركي، لا قهوة مع حبّ الهال، لا تبّولة أو كبّة نيئة.

هنا نيورك وراجي يمتصّ الرشفة الأخيرة من قهوته، وهو واقف، لا وقت لديه ليكمل فطوره، عليه أن يذهب باكرًا بالقطار ليلحق عمله. المرض وحده يبعده عن العمل، ويجعله يخلّ بهذا النظام الصارم الذي سار عليه بدقّة ساعة سويسرية. ولم يخفّف سرعة سيره، وقد وصل إلى العقد الثامن.

وماغي تعلّق بعد خروج زوجها، فتقول بين الضحك والجدّ: «العمل حبّه الأوّل»... ولا تتابع، ويفهم السامعون أنّها تأتي في الدرجة الثانية. لكنّها تحبه، تفهمه وتقدّر فيه هذه الإرادة التي لا تنهزم. وتحاول أن تسأل أخته، عن طبيعة الناس في البلاد، وهل كلّهم مثل أخيها جبّارون؟ ثمّ تردّد، وكأنّها تحدّث نفسها: – في الواقع معظمهم هكذا، رأيتهم هنا، في هذه البلاد، مثله، ينطحون الصخر ولا يبالون. على سواعد الروّاد أمثاله، قامت أميركا. هم وضعوا أُسس النجاح. منهم من وصل، ولامست أنامله أطراف السحب، وكثيرون خرُّوا على الطريق. المنافسة شرسة، والحياة صعبة؛ وأميركا «فريسة الشاطر»، كما كانت تقول أمّي. وراجي سقط مرّتين، خلال رحلته الصعبة: مرّة حين احترق أوّل مخزن أسّسه، والمرّة الثانية، عندما اجتاح الطوفان مخزنه الثاني... وكان لا يزال، في بداية الطريق! وهذا ما دفعه إلى أن يضاعف الجهد، وينصرف إلى العمل، يعمل فلا يتوقّف ليلتقط أنفاسه، أو يستريح. وحين التقينا، كان يعيش في هذه الدوامة. تحابينا، لكنّه ظلّ يبخل عليّ بوقته، وفكرت: إنّ الحب لا ينفصل عن التضحية، وإذا ما شئت أن أدخل حياته، عليّ أن أمدّ يدي فأساعده، ولا أخطفه من عمله. وهكذا عشنا بهناء. لكنّ الأولاد، حين كبروا، رفضوا قبول الواقع، ولم يشاركوا في أعمال والدهم مع كلّ محبّتهم إيّاه واحترامهم له. اختاروا أعمالًا مختلفة، ووظائف تترك لهم الوقت ليمارسوا هوايتهم: الرياضة، السفر، الفنون؛ وهذا ما لم يستطع راجي أن يقبله أو يفهمه. وهذا ما يحزّ في نفسي، إذ كنت أتمنّى أن تكون العلاقة مكتملة، مثالية. ولكنّي أتساءل: هل هناك علاقة مثالية بين الأهل والأولاد؟ والرفض هو وجه من وجوه التحرّر والاستقلال. نحمد الله على أنّهم أولاد طيّبون، محبُّون، وناجحون في أعمالهم، ويحافظون على مستوى خلقيّ ممتاز.

وتوقّفت ماغي عن الكلام، حين طوَّقها الصمت وصارت أصداء صوتها ترتدّ إليها. كانت الجماعة تصغي، ولا تعلِّق، وكانت هي، من حيث لم تقصد، ترسم لأخت راجي خريطة مسعاه منذ أن وطئت قدمه الأرض الجديدة.

134

وكان رضوان أكثر من اهتمّ بالإصغاء، واتّضحت له معادلة واحدة: الغريب يبقى غريبًا. «أولاد هذه البلاد يخصُّون هذه البلاد».

هذا ما قالته «نبيهة» حين قابلها، حال وصوله إلى كندا.

وأدرك لماذا يغرق راجي نفسه، في عمله. راجي وسواه، من المغتربين، يهربون إلى العمل، لينسوا الغربة، الوحشة والضياع... «أولاد هذه البلاد يخصُّون هذه البلاد». وألماس تعيش وحدها، بعدما غرست أولادها في عدّة مدن: «كل واحد في بلد يا هَنِي... نعم، يا أختي، كلّ واحد من الأولاد يسكن في ولاية تبعد عن الأخرى مسافات. أحيانًا، تكون المسافة أربع ساعات بالطائرة. ولكلّ منهم عائلة ومسؤوليات. نعم، يأتون لزيارتي، يا هني، مرّة كل سنة، نحاول أن نجعل اللقاء جماعيًّا، حتّى يتعارف الأولاد والأحفاد، وتبقى هذه الرابطة بينهم».

ويتساءل رضوان: «إذا كانت ألماس تعيش وحدها منذ سنين، فلماذا لا تسافر ولو مرّة إلى البلاد؟! لماذا لم ترجع لترى أمها؟».

ويكتم سؤاله خشية أن يجرح شعورها:

«يمكن الحرمة عندها عذرها، يا رجل؛ ما دخلك أنت في خصوصيّات الآخرين؟ ثمّ لا تنسَ كيف سافرت ألماس إلى أميركا. قصّة زواجها معروفة، أجبروها، نعم، يمكن أجبروها على الزواج بمنصور أبو عبسي، وطلعت هي قد حالها، فحملت المسؤولية بشجاعة. أنجبت لزوجها الأولاد، وربّت أطفاله من سابقتها، وكانت لهم أحنّ من أمّ. كلّ المهاجرين يحكون عنها الحكايات. ألماس، وحدها، تعرف كم ضحّت من أجل زوجها وأولاده. ووحدها، تفهم الإشارات المختبئة بين تجاويف القلب، والتي تمنع الإنسان من التلفّت إلى الوراء، ليرى آثار قدمه فوق دروب مشاها.

أسكت، يا رجل. ابتلع أسئلتك، واستمع. الأفضل أن تظلّ مستمعًا».

وتعود ماغي فتتسلّم زمام الحديث:

– خصّصنا نهارنا اليوم لزيارة المدينة. والأصحّ أن نقول: زيارة جزء من المدينة، نيويورك كبيرة، ولو عاش فيها الإنسان عمره، يظلّ عاجزًا عن التعرّف إلى كلّ معالمها.

قالت أمّ نبيل:

– أرافقكم، شرط ألّا نمشي.

وردّت ماغي:

– نذهب من هنا، بالسيّارة، وبعدها، ننتقل إلى «الصابواي» يعني القطار الجوفي، تحت الأرض.

توهّمت أمّ نبيل من الخبر:

– أنا، أرافقكم في مشاوير السيارة. اليوم خذوا بو نبيل ولمياء.

ولمياء تعرف نيويورك من زيارات سابقة؛ وهي هنا لترافق والديها؛ وما دامت أمّها مطمئنّة مع أختها، فلا بأس من ذهابها برفقة أبيها، وامرأة خالها.

وماغي تقود السيارة بثقة.

تنطلق من الضاحية السكنية باتّجاه المدينة، وتطلّ عليهم نيويورك، غابة من الأبنية الجبّارة، الضاربة رؤوسها في كبد الفضاء.

والفضاء، كأنّما ليصدّ عنه الهجوم الأرضي، يرخي الضباب فوقها، طبقات رمادية داكنة.

أوقفت ماغي السيّارة في أحد الكاراجات العامة، وسارت مع رفيقيها وهي تردّد:

– سوف نمشي قليلًا، قبل أن نصل إلى محطّة «الصابواي».

رضوان لا يعترض. يرخي حمله على هذه الرفيقة الخبيرة في الطرق والمفترقات، والخبيرة في المدينة، فوق الأرض وتحتها:

– نحن بأمرك ستّ أم ريمون.

وبأمر منها انعطف الجميع إلى اليمين، وبعد لحظات، كانوا يتوغّلون في قلب المحطّة، وسرعان ما وجدوا أنفسهم عند فوهة أنبوب ابتلعهم، مثلما يبتلع مئات الناس.

من الشارع انتقل رضوان إلى هذا الأنبوب؛ من الأرض الصامدة، إلى سلالم كهربائية متحرّكة، تمتدّ مثل أذرع الجنيات؛ تخطفه، وتهوي به، ومعه تهوي الجماعات المتزاحمة، المتراصّة وكأنّها في يوم الحشر الذي يسمع عنه...

ومن حيث يقف، يبصر مئات الرؤوس، ومئات الوجوه. جماعات تسير معه، وأخرى تتبع الاتّجاه المعاكس، والسلالم الكهربائية تغربل الناس، وتفرغ الغربال بلا مبالاة. وهم، يدخلون ويخرجون، باستسلام كلّي، ولا ترتسم فوق وجوههم، تلك الإشارات المرتسمة على جبينه، في عينيه، وفوق شفتيه، ماذا ينتظره في العالم السفلي؟ ماذا يفعل هؤلاء الناس، تحت الأرض؟

طرح السؤال وكأنّه يخاطب نفسه، فتلقّفته ماغي وأجابت:

– هذه أسرع وسيلة للانتقال يا بو نبيل؛ لا سيّارات، وعرقلة سير، سوف ترى.

وهو يرى، ولا يصدّق. وحين أصبح داخل القطار، لم يعد يجرؤ على التطلّع إلى الخارج؛ القطار ينزلق بسرعة صاروخية، وعليه أن يركّز نظره إلى الإمام، حتّى لا يدور رأسه، وتزوغ عيناه.

سلّم أمره إلى خالقه، وإلى الملاكين المرافقين، ماغي ولمياء.

– أيعجبك السفر في الترام يا أبي؟

لمياء تسأله لتسلّيه، لتكسر جدار الصمت بينهما، وتخرجه من عزلته، فيهزّ رضوان رأسه:

– بلاد عمرانة، يا بيي. شو هالحكي؟ هنا دنيا العجايب.

اغتنمتْ لمياء الفرصة:

– يعني تحبّ تبقى، هنا، أنت وأمي؟ نحن مستعدّون لكلّ خدمة. كل يوم نطوف بكما في مطارح جديدة.

انتقض فورًا، وكأنّما كلامها أسلاك تكهربه:

– هالبلاد حلوة، يا بنتي. حلوة كثير... لكن حلاها يخصّ أهلها، ونحن، لنا بلادنا؛ ضيعتنا الصغيرة، لا ينقصها الجمال. فيها تعوّدنا العيش والسكن.

وتدخّلت ماغي:

– ويمكن تتعوّد العيش هنا، في نيويورك، أو في كندا، الحياة أسهل من حياة الضيعة. الشباب والصبايا حولك. كلّهم حولك.

استحكمت به لمياء، ثمّ ماغي. وكلّ واحدة منهما تشدّ قليلًا، ويحسّ الطوق يضيق على عنقه فينتفض:

– الله يخلي البلاد لأصحابها... يا أم ريمون، يا عمي، الختيارية مثلنا صعب يغيّروا نسق حياتهم. عندنا، في الجورة، يزرعون الزيتون لمّا تكون النصبة صغيرة... لكن بعدما يزرعوها وتعمّر عشرين أو خمسين سنة، يصبح قلعها من المستحيلات. وإذا قلعوها، ما بتعيش في تراب غير ترابها... ونحن، أنا وأمّ نبيل، مثل الزيتون المجذّر من عشرات السنين.

ولم يقنع كلامه ماغي فتابعت:

– هنا، في أميركا، اخترعوا طريقة زراعية، تمكّنهم من قلع الأشجار وغرسها من جديد، مهما كان عمرها.

وسألها باهتمام:

– قولي لي، يا أمّ ريمون، خُبَرا الزراعة في أميركا، جربّوا ينقلوا شي سنديانة دهرية، أو زيتونة معمّرة من ألف سنة؟ يعني مثل سنديان الجورة وزيتونها؟

وردّت ماغي، من دون أن تتوقّف لتستوعب ما ذهب إليه محدّثها:

– كلّ الأشجار، بو نبيل... كلّ الأشجار قابلة للقلع والزرع من جديد.

136

صمت رضوان، من دون أن يقتنع. لكنّه لم يشأ أن يناقش هذه المرأة الطيّبة، الشفّافة، في أمور خبرها طوال عمره، وباتت متداخلة في كيانه، تداخل أفكاره ومجاري دمه... لن يقول لها: إنّ شجر بلادكم غير شكل، يا ستّ أم ريمون... ونحن، عندنا الزيتون مثل السنديان، يرفض العيش في تراب غير ترابه.

الآن هو في نيورك، جاء يزور المدينة، ولا يزال محمولًا في قطار تحت أرضها؛ ويفكّر: كيف يستطيع، هذا السقف فوق رأسه، كيف يقوى على حمل المدينة؟ وهل هناك قوى خفيّة تدعمه؟

ومثلما تخلّى عن تحليل هذه الأمور لدى ركوبه الطائرة، فقد رأى أنّه من الأفضل أن يتوقّف عن التحليل الآن، تاركًا للأيدي الرحيمة أمر قيادته في هذه

الدهاليز الغامضة. وتمتدّ اليد الناعمة، تمسك بيده، وتقوده ليترجّل من القطار:
– ننزل هنا، يا أبي، هذه آخر محطّة. وصلنا.
ترجّل الثلاثة، واتّجهوا صوب السلّم الكهربائي الذي رفعهم إلى شارع من أكبر شوارع نيويورك.
وقف رضوان فوق الرصيف يتملّى من المشهد. هذه أوّل مرّة يلامس فيها قلب المدينة، وتتسلّق عيناه المباني، ولا تصل إلى محطّة. وماغي تنتدب نفسها دليلًا سياحيًّا.
– هذه بناية «وولوورث»، من أقدم ناطحات السحاب، يا بو نبيل. هناك بنايات أعلى منها اليوم. طموح الإنسان لا يحدّ...
أجابها من دون أن يسقط نظره من المدى الذي بلغه:
– لكن، يا أمّ ريمون، المثل بيقول: ما في شجرة وصلت عند خالقها.
ابتسمت ماغي موافقة:
– الحقّ معك، بو نبيل... إنما الإنسان العصري يحاول... يحاول أن يتخطّى الأشجار... معلومك شو صاروا مسافرين في غزوات للقمر، ولحدود الكواكب الباقية... ونحن، نتابع غزوتنا في ذاك الاتّجاه.
وبإشارة من ماغي، كانوا يقفون على مدخل واحدة من البنايات الناطحات السحب.
قالت ماغي وهي تشير إلى مصعد ضخم:
– من تحت الأرض، سنصعد الآن، إلى السماء.
أجابها رضوان معابثًا:
– بتعمليها، يا أمّ ريمون، على كلّ حال، رفقة الطيبين مثل فضلك بتقود إلى سابع سماء.
قالت ماغي:
– هذا كثير، يا بو نبيل! أنا قصدت سماء نيورك، وبسّ... هيا بنا.

137

صعد الثلاثة بين جماهير الناس الذين تزخر بهم المدينة، يدبّون فوق أرضها، ويسيرون في كلّ اتّجاه، ولا تعرف حين تنظر إليهم ما إذا كانوا داخلين أو خارجين؛ إنّما هم في حركة دائمة، وكأنّما كُتب عليهم أن يظلّوا في حركة

دائمة. والمصعد يزدحم بهم، بكلّ الأشكال والألوان. وكلّ واحد يلزم صمته، وينظر في الفراغ. وينطلق المصعد في رحلته الروتينية، ويتوقّف عند المحطات، ومحطّتهم كانت عند الرقم التسعين.

ماغي تدعوه إلى النزول، ولمياء تتبعه، وصوت «الدليل السياحي» يردّد:

«نلقي نظرة على نيويورك من فوق. شو رأيك بالمنظر، يا بو نبيل؟» تسأله ماغي.

أيّ سؤال هذا؟ وهل عنده كلام يطيع لسانه؟ ترفعه إلى الطابق التسعين فوق الأرض، وتقول: «ما رأيك؟».

يطلّ من الشرفة، من واجهة تكشف جزءًا كبيرًا من المدينة، ويقف جامدًا في مكانه، وشفتاه منفرجتان دهشة وذهولًا.

لا العين رأت من قبل الصور التي تراها الآن، ولا الأذن سمعت ما تسمعه من هذه الأعالي... وبصره يزوغ، ويسمع طنينًا في الأذنين، ويخشى أن يكون واقعًا تحت تأثير السحر. إنّ المقدرة السحرية وحدها تستطيع أن ترفع هذه المباني الشاهقة، والتي تكاد توقع المرء في الخطيئة.

الطنين يرتفع في أذنيه، إلى درجة تزعجه، فيهمس في أذن ابنته:

– أسمع طنينًا في أذني، يا بنتي، شو قولك؟

طمأنته لمياء:

– وأنا أسمع الطنين نفسه، يا أبي. هذا طبيعي، يحدث حين تصعد بسرعة إلى مكان مرتفع.

فرح لتفسيرها:

– وأية سرعة!.. المصعد طالع مثل الصاروخ. معك حقّ يا لمياء، يا بنتي، معك حق.

– خذ علكة، أمضغها، إنّها تساعد في هذه الحالة.

– علكة؟ تريدينني أن أعلك في آخر عمري.

وتدخّلت ماغي:

– هذه العلكة دواء، بو نبيل، الله... كلّنا رح نعلك.

138

وشعر بأنّ الطنين بدأ يزول تدريجيًّا، وحلّت مكانه كلمات، كانت متفرّقة في البدء ثمّ تجمّعت وتآلفت، وصارت ذات معنى. وسمع أصداءها آتية عبر المسافات، والسنين، على لسان الكاهن العجوز: «وأخذه إبليس إلى جبل عال جدًّا، فأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها، وقال له: أعطيك هذا كلّه، إن سجدت لي وعبدتني. وأجابه يسوع: إبتعد عنّي يا شيطان، لأنّه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد».

مدّ رضوان يديه الاثنتين يدفع عنه وهج المدينة، وسواعد الإغراء الممتدّة إليه، المرتفعة من كلّ مكان، لتشده إلى حيث «الدنيا ومجدها». وتراجع خطوتين إلى الوراء، ثمّ أغمض عينيه وهو يردّد: – لا. لا... إذهب عني يا إبليس. هناك إله واحد أعبده، قرية واحدة أحبّها، ومنزل واحد ينتظرني عند المقلب الآخر من البحر.

أحسّ فجأة بأنّه أتخم! شبع فرجة. بنايات، حدائق، شوارع، جسور معلّقة وأخرى ممدّدة؛ وهو الآن، مستعدّ للتراجع... للعودة.

ابنته تقترب منه لتلقط له صورة تذكارية مع امرأة خالها. تغمره ماغي، وتبتسم، ثمّ تطلب من لمياء أن تحل مكانها، لتأخذ لهما صورة مماثلة.

خاتمة موفّقة للزيارة... الصورة – الشهادة – تبقى معه، يحملها إلى البلاد، ويعرضها لكلّ «توما» يشكّ بحكاياته عن غرائب هذه الدنيا، وعجائبها. يضع الصورة أمام الرجل ويقول له: – تفضّل، شوف، يا عمّي. تفرّج... الحكي مش مثل الفرجة.

139

حاول الشاطر حسن أن يخترق سور المدينة، فتصدّى له مارد جبّار:

– ممنوع الدخول للطارقين الغرباء.

قال الشاطر حسن:

– أنا قادم للبحث عن أخي. جاء إلى مدينتكم مع قافلة التجّار، ولم يرجع.

وسأله المارد:

– من كم سنة دخل أخوك مدينتنا؟

ردَّ الشاطر حسن فورًا:

– دخلها يوم فتحوا سوق الحرير.

قهقه المارد ساخرًا:

– من يوم فتحوا سوق الحرير، ولم تفطن لتبحث عنه من قبل؟!

قال الشاطر حسن بحسرة:

– كنت صغيرًا، وكانت أمّي تقول لي: «عندما تكبر، تسافر لتبحث عن أخيك». وقبل أن أكبر ماتتْ أمّي، ونسيتْ أن تدلّني على الطريق.

سأله المارد:

– وهل أعطتك أمّك علامة أخيك؟

– أجل... قالت: «أخوك له شامة تحت أذنه اليمنى، بحجم حبّة البن المحروق، ووحمة على شكل كبش التوت فوق كتفه اليسرى».

هزّ المارد رأسه:

– شامة، وعلامة! وتقول إنّه دخل المدينة حين فتحوا سوق الحرير؟ أدخل. أدخل، أيها الفتى. الأبواب مشرّعة في وجهك، لكن لا تنس أن تغادر المدينة قبل حلول الظلام...

140

ورضوان عبر المدينة، ولم يبصره المارد. عبر البوّابة المسحورة، محمولًا على جناحي ملاكين، ماغي ولمياء، وهما تسيران معه فوق هذه الأرصفة المكتظّة بالناس، بالمشاة.

زاغ بصره من تأمّل الوجوه... وجوه من كلّ الألوان والأشكال. العيون تنظر إليه ولا تنظر، تحطّ فوق وجهه ولا تحكي، تعبر به، أمامه، وكأنّها تماثيل متحرّكة... وهي تتحرّك بسرعة، فإذا خفّفت سرعتها، داهمها الزحام، وربما طرحها بين أرجل الساعين.

صوت لمياء يأتيه من حين إلى حين؛ يلفته إلى واجهات المخازن المزدانة بكلّ ما تطلبه شفة أو لسان... الألبسة، الأدوات المنزلية، الآلات العجيبة الغريبة... ثمّ يرتدّ بصره عن الواجهات، وكأنّه يصدّ كلّ إغراء، كلّ ما يعيقه أو يلهيه عن غايته التي تستفيق بين الخطوة والخطوة... ويعود يمسح الوجوه بنظرات اللهفة، يبحث بينها عن وجه أضاعه، قبل أن يفتحوا سوق الحرير.

والسوق تفرّع؛ صار أسواقًا ذات مداخل ومخارج متشابكة؛ وفي كلّ سوق، يزحف ألوف البشر، وكأنّهم نبع يتدفّق، ولا نهاية لعطائه ويقذف السواقي والروافد فوق جسد المدينة، في المحطّات الجوفيّة، وفي المصاعد المسافرة بين الأرض والسماء... ومع ذلك، تظلّ العيون تتجوّل في الفراغ، ولا تحطّ العين على العين. ورضوان يعرف المثل الشعبي القائل: «جبل على جبل لا يلتقي، لكن العين على العين تلتقي». ويتساءل: أين هي العيون التي عنها طال بحثه وأضناه طول المسير؟

ويتساءل: هل يمكن أن تحدث الأعجوبة، فتطلّ عليه، مثل قنديل نور سماوي، تتنير الظلمة الكالحة التي تغمره؟

ويعود صوت لمياء:

– يا أبي، سوف ندخل من هنا.

وتشير يدها إلى باب أحد المخازن. ويطيع ابنته، يجرجر قدميه، ويسير خلفها. وماغي اختفت. ابتلعتها الزحمة في الداخل.

– من أين يأتي هؤلاء الناس؟

يطرح سؤاله للهواء، ولمياء التي لا تفارقه بوعيها لحظة تجيب:

– إنّنا في واحة من أكبر مدن الأرض، يا أبي. ثمانية ملايين نسمة يعيشون في هذه المدينة.

– نعم، يا بنتي، معك حق. الناس، في هالبلاد، مثل رمل البحر. وأنا، كنت أفكّر، إن بيروت مدينة كبيرة... مسكينة بيروت!

خرجت الكلمات عفوية، وظلّت أصداؤها تتردّد بين جدران الوعي:

– بيروت، حقًّا، مسكينة. خصوصًا بيروت هذه الأيام. الناس يعبرون منها ليهربوا، ليرتموا فوق متن طائرة، أو فوق ظهر باخرة. وفي زمان مضى، كانت بيروت ربّة الجمال، وأمّ المخازن، ومحطّ الأنظار والرحال... وحين غادرها، كانت ترتدي الكآبة والقلق، قناعًا لوجهها.

توقّف مع لمياء أمام واجهة داخلية تعرض ثياب الأطفال:

– شو رأيك، يا أبي، حلو هالفستان لسوزي؟

ابتسم، وكأنّه يرى حفيدته الصغرى ترتدي الثوب – الفراشة:

– حلو كثير، يا بنتي. سوزي، شو ما لبست، يلبق لها.

طلبت لمياء من البائعة أن تلفّ لها الثوب، فأحضرت هذه علبة، وعرضت لها نسخة طبق الأصل عن الثوب المعلّق. وكان رضوان يتأمّل ما يجري، فضايقه أن يكون هناك ثوب آخر شبيه بثوب حفيدته، واستفهم من لمياء كي ترضى أن تأخذ ثوبًا غير الذي اختارته؟ فطمأنته لمياء إلى أنّ هذه الطريقة المتبعة في المبيع... والمخازن الكبرى تضمّ مئات النسخ من الثوب الواحد.

وفكر رضوان:

– هناك مئات النسخ من كلّ ثوب أو معطف، وهناك ملايين النسخ من كلّ وجه يطالعه! وبرغم ذلك، تظلّ بعض الوجوه، في نظره، مميّزة، تحمل إشارات خاصّة تومئ إليه، تثير في القلب الحنان، وتستنفر من العين دموع المحبّة.

141

رفع رضوان رأسه قليلًا، فأبصر ماغي تومئ من ركن قصيّ، وتشير بحماسة إلى رفيقيها، ليتقدّما:

– بو نبيل، أسرع تعال تفرّج أنت ولمياء.

أكبر واجهات المخزن تعرض مبتكرات كهربائية؛ تضغط البائعة زرًّا، فتفتح الأبواب، ومن كوّة في السقف تهبط الكراسي، والطاولات، والمقاعد الفاخرة.

وفي لحظة، تتحوّل الواجهة الفارغة إلى قاعة استقبال... مع هبوط كلّ قطعة تصدح الموسيقى مرافقة الاستعراض.

تضغط البائعة زرًّا آخر، فتفتح ثغرة في السقف، ومنها تهبط فتيات يرتدين اللباس الأنيق، وقد تجمّلن، وصفّفن الشعر، وجئن إلى حفلة الاستقبال المزعومة. وبكثير من اللباقة، تختار كلّ واحدة مقعدها، وتستريح.

تعود أصبع البائعة إلى ضغط زرّ آخر، وهذه المرّة، تنشقّ الأرض وتقفز من الفتحة فتاة «تقول للشمس زيحي لأقعد مطرحك»... والفتاة تنقل خطواتها بغنج، وتبتسم، وتوزّع القبلات حولها، من دون أن تخصّص شخصًا بالذات. وتقترب من رضوان، وهو ينظر إليها، ولا يصدّق: تراها من الإنس أو الجن؟! هذا الشعر المذهّب المقصّب، المفروش كالبيدر حول وجهها وفوق كتفيها. والقامة الرشيقة، والنقلة الغزلانية، والفم القرمزي، المشرّع كبوّابة الجنة ولا يُرى إلّا في الحلم.

الفتاة تتّجه نحوه. خاف أن تصطدم به، فتراجع خطوة إلى الوراء، إذ إنّ الجماهير المحتشدة لا تسمح له بخطوة أخرى. خشي أن تخصّه هذه الروعة بكلمة أو إشارة لن يفهمها، وهو لا حول له ولا لغة يتفاهم بواسطتها معها، لذلك تظاهر بأنّه يتطلع عبرها إلى البعيد. ومرّت به الفتاة، ولم تميّزه. ظلّت توزّع بسماتها الحيادية، وتنثر قبلاتها بالجملة، ونظرات الإعجاب تحيط بها، «إحاطة الأسوار بالمعصم»، إلى أن توقّفت عند واجهة تعرض مسحوقًا جديدًا للغسيل. وقفت وسط الواجهة، ورفعت بين يديها علبة المسحوق، وتوجّهت بها إلى الحضور، بحركات رشيقة، ثمّ انفتحت شفتاها وانطبقتا على كلمة واحدة، هي الإسم التجاري للسلعة المعروضة للبيع.

لم يفهم رضوان ما يجري، وظنّ أنّ الفتاة ستقدّم للجمهور هدايا فأوضحت له لمياء:

– يا أبي، هذه وسيلة طريفة للإعلان.

وسألها:

– الإعلان عن شو، يا بنتي؟

فردّت وهي تبتسم:

– عن مسحوق للغسيل.

– والشغلة حرزانة كل هالعجقة؟ بنت شقرا، حلوة مثل قلب النهار، تطلع من صندوق مسحور، مثل حكايات ألف ليلة وليلة، حتى تعلن عن علبة برش للغسيل؟!

وتابعت لمياء شرحها:

– هذه طريقتهم هنا في البيع.

وهزّ رضوان رأسه باستسلام:

– فهمت، يا بنتي، شفت المشهد بالتلفزيون، وما صدّقت. حسبتها شي خدعة، لعبة يلعبونها على المتفرّجين. لكن بعمري ما فكّرت أنّ عقل الإنسان يصغر إلى هذا الحدّ. ما تصوّرْت صبية من لحم ودم تصير فرجة، وهي مبسوطة!

قالت لمياء:

– الصبيّة تلفت الأنظار، وهذا يرفع نسبة البيع.

وتابع رضوان:

– معك حقّ يا بنتي... بس حرام. هذا حرام. لو أقدر أحكي مع هالصبية الغندورة كنت قلت لها: «حرام، يا عمي، أنت وهيبتك وجمالك، دبّري لك شغلة أهمّ».

وضحكت لمياء:

هذا شغلها، يا أبي. والبنت تقبض مبالغ من المال.

– ما اختلفنا، يا بنتي. تقبض كثير، قليل، هذا لا يهم. الشي اللي ما رح أفهمه أبدًا، هو العلاقة بين هالشقورة القرقورة، وبين حفنة من برش الغسيل!

142

هناك أمور أخرى كثيرة لم يستطع رضوان أن يفهمها، وهو يتجوّل في المخزن الكبير، في المدينة الواسعة... ولكنّه احتفظ بالتعليق لنفسه، وخرج مع رفيقتيه، يجرَّر قدمين بدأ التعب يوهنهما، وهما تسعيان به نحو نهاية النهار، وقد غرس خلفه الترقّب، ونثار الحلم والتوقّعات؛ ولم يعد ذلك الانتظار المعلّق بين العينين، وفي مكان غير مرئيّ من ثنايا القلب، لم يعد ذلك الانتظار يحثّه، ويخزه كالمهماز، فيقفز الخطوات قفزًا، ويخلع عن كتفيه أثقال الكهولة.

143

إنّهم في طريق العودة، المدينة استقبلته؛ فتحت له أبوابها الداخلية، والخارجية... اخترقها من أعماق الجذور حتّى القمم الناطحة السحب. تعرّف إلى أناسها، إلى مخازنها، إلى صخبها وضجيجها، وإلى الضيق في رحابة شوارعها... وهو ضيق يعرفه الغريب، في المدن الغريبة؛ يرفس دماغه، ويذكره مع كلّ خطوة أنّ لا مكان لك هنا، لا مرقد عنزة ولا ظلّ لعصفور.

وهو، حين أطلّ على المدينة، كان مشدودًا بلهفة خارج وعيه وإرادته؛ لهفة رافقته مع كلّ لفتة، ومع كلّ طرفة عين. ولم يتوقّف لحظة للبحث عنهم... بلى. سأل عنهم وجوه الغرباء، والشوارع والمباني. ولم يحظَ منهم بالجواب.

وذكّرته حالته بحكايات يحفظها من زمان الطفولة. حكايات الشاطر حسن، التي يحكيها الكبار للصغار، ويجتازون بها الأزمات ومواسم الضيق والملل،

ويقطعون السهرات الطويلة الموحشة، حين تعزلهم العواصف والثلوج مع موقد، وبعض قرامي السنديان، وطبق تين مجفّف، وزبيب وقضامة.

144

والشاطر حسن عبر المدينة، من شرقها إلى غربها، إجتاز عتبة المارد ولم يعثر على سوق الحرير؛ وكانت الأسواق تنفتح أمامه، ثمّ تقفل، وتدفعه من مدخل إلى مخرج، ويسأل الناس بلغته عن أخ له، قدم المدينة يوم فتحوا سوق الحرير... والناس يمرّون به، ولا يفهمون السؤال. ولم يتطوّع واحد منهم ليقول له: «إنّ اللغة تغيّرت منذ تلك الأيام، ولم يعد هناك من يذكر حرفًا منها». والشاطر حسن يرفض أن يصدّق، ولا يقبل الخيبة.

أبصر عجوزًا جالسة عند أحد المنعطفات، فقال في نفسه:

– هذه العجوز قد تعرف اللغة. ربما باقية من يوم فتحوا سوق الحرير.

اقترب منها بخطى متردّدة، وألقى عليها السلام. تأمّلته ولم تردّ عليه. أعاد الشاطر حسن سلامه:

– السلام عليك أيّتها السيدة الجليلة.

صمت، وانتظر.

تحرّكت شفتاها وتوقّع أن تواجهه بالجواب التقليدي الذي تردّ به العجائز في مغامراته... تقول له: «لو أنّ سلامك ما سبق كلامك، لفصفصت لحمك من عظامك».

كان يتمنّى لو تردّد هذا القول وتفتح معه أيّ حوار. ولكنّها ظلّت تلتزم الصمت والجمود.

وكرّر الشاطر حسن سلامه:

– السلام عليك أيّها التمثال...

ولم تتحرّك، التماثيل تظلّ جامدة لذلك أدار ظهره، ليعود من حيث أتى، فسمع صوتًا يهمس له:

– انتظر أيّها الشاب... انتظر.

التفت بسرعة، فلم يبصر التمثال. اختفت العجوز وحلّت مكانها صبيّة شقراء، ترتدي ثوبًا قرمزيًّا، وتبتسم له بسمة إغراء.

هتف بدهشة:

– أنت؟ من أنت؟

أجابت:

أنا فتاة سيّئة الحظ، اختاروني ناطورة على هذه المدينة، جمّدوني فصرت تمثالًا من حجر.

قال معترضًا:

– لكنّك صبيّة، وفي غاية الجمال.

– هذا يحدث حين يدخل سيّدي إحدى حالات الرضى، ومن حسن حظّك أنّك كنت شاهدًا على هذا الحدث.

قال. وهو لا يصدّق ما يسمع:

– تقصدين القول أنك تعودين لتتحولي إلى امرأة عجوز...

– إلى تمثال لامرأة عجوز.

اقترب يسألها بتضرّع:

– أرجوكِ... ساعديني قبل أن تتجمّدي.

– وماذا تريدني أن أفعل؟

– أَخبريني، أين يقيم أخي، أخي الكبير، قدم المدينة يوم فتحوا سوق الحرير، ولم يرجع إلينا.

قهقهت الفتاة، وسمع صدى قهقهاتها يتردَّد حوله، ويتململ في فراغ الطرق، ويتفجّر، مثل تفجّر الزلازل والأعاصير.

خاف الشاطر حسن، ولم يعد يعرف ماذا يقول أو يفعل؛ وهو لم يتلفّظ بكلمة تُضحك... ولماذا تقهقه الفتاة و...

تلفّت حوله باحثًا عنها ليعتذر عن خطأ لم يقصده، لكنّ الفتاة تلاشت، وذابت مثل حصاة ملح في بئر ماء... وخلّفت وراءها تمثالًا متحّجرًا لامرأة عجوز.

أدار ظهره من جديد، وراح يركض من دون أن يلتفت مرّة واحدة إلى الوراء، وظلّ يركض حتى خرّ مغشيًّا عليه.

145

ورضوان يتلمّس ركبتيه، ويشعر بألم مثل وخز الإبر؛ لكنّ الوخزات الأشدّ ألمًا كانت تنتقل فوق لوح الصدر وبين ثنايا الضلوع.

تفرّج على نيورك في المسالك الجوفية، وفوق سطح الأرض، حيث الناس يتدفّقون كأمواج بحر عاصف.

وفي الأعالي، حين تسلّق بالمصعد مع ماغي ولمياء إلى طابق يجاور السماء، ووقف فوق تلك الشرفة، وتجوّل بنظره بين أرجاء المدينة، وخرج منتصرًا على كلّ إغراء... وها هو يرجع إلى البيت المضيف، رجوع الطائر إلى العش.

مهما طالت الرحلة وبعدت المسافة، تظلّ له في المساء عودة إلى حيث تنتظره، رفيقة العمر الأمينة.

وأم نبيل صالتْ وجالت خلال غيابه، وسافرتْ مع أختها ألماس عبر نصف قرن من الزمن، وقالت الكلام المؤجَّل، وروت الحكايات المنتظرة خلف باب الذاكرة. وسمعت من أختها، ما شاءت ألماس أن ترويه عن حياتها في دنيا الاغتراب... وحين عاد رضوان، كانت تنتظره بشوق، وكأنّما غاب عنها دهرًا؛ وهو حمل إليها فرح نهاره: – يا أم نبيل، يوم من أيام العمر... شو بدي أحكي يا مَرَا! يا ليت كنت معنا! الستْ أم ريمون ما تركت زاوية في نيورك إلا عرفتنا عليها.

واعترضت ماغي:

– يا بو نبيل، ما عملت شي يذكر. لو بقيتم عندنا سنة، لا نقدر أن نتفرّج على نيورك. اليوم تجوّلنا في منطقة صغيرة منها.

قال رضوان بحماسة:

– صغيرة، لكن فعلها كبير... أنا، من جهتي، وصلني حقي.

146

أيّام نيويورك ينقشها رضوان في الذاكرة، كالنقش في الحجر؛ لا يفرّط بحركة، أو يهمل حدثًا من الأحداث، يجمعها في خلايا داخلية، ودهاليز لا يصلها العثّ، ولا الرطوبة، ليحفظها زادًا ثمينًا للسهرات المقبلة في «جورة السنديان».

رجل مثله، يقدّر معنى وجوده في مدينة تحمل أسماء كلّ المدن، وتقدّم لزائرها كلّ ما يحلم به من غرائب ومفاجآت.

وكان رضوان يحسب أنّ الزيارة تنتهي في يوم، أو يومين؛ فإذا الأيّام تمرّ أصباحًا وأمساء، وبين الصبح والمساء تمتدّ تلك المسافة العذبة من المفاجآت،

وفي كلّ يوم، تفتح له المدينة صفحة جديدة من صفحات روعتها.

كان هذا كلّه حسنًا في نظره، لو اكتملت فرحته وسمع خبرًا، أو شبه خبر، عن الثلاثة الأحبّاء الذين يعيشون بين رفيف الأهداب.

لم يعد يفتح سيرتهم، منذ طرح سؤاله على «راجي» في كندا. لكنّ أسماءهم توقع نقرات قدميه فوق أرصفة نيورك، وذكرهم لا يغرب عن باله، وطيف كلّ واحد منهم يتعلّق بنور عينيه.

و«راجي» يسعى للبحث عنهم، خارج علم رضوان ومعرفته.

منذ عاد من زيارته إلى كندا، وسؤال صهره يكبر في سمعه، يومًا بعد يوم:

«يا بو ريمون، يا عمّي، سمعت شي مرَّة، باسم إخوتي: سعد، يوسف، وعدلا... هاجروا إلى نيورك من زمان، قبل حرب «الأربتعش»... هاجروا وما عادوا كتبوا... هاجروا، وهدموا الجسور خلفهم، قطعوا الروابط، رفعوا السدود، وأسدلوا الستارة بينهم وبين الماضي»

هل هذا ما حدث في الواقع؟

أم أنّ الأمر يختلف؟

من يستطيع أن يُنبئ عنهم، ويصف الظروف التي رافقتهم، هم وسواهم من مغتربي تلك الفترة المظلمة من تاريخ الاغتراب؟ من ينبئ عنهم؟

قام إلى دليل الهاتف، وراح يمسح غبار الزمن عن أسماء قديمة عرفها ذات يوم، ويغرس سؤاله عند كلّ واحد منها:

– من يعرف شيئًا عن الإخوة أبو يوسف؟

وأعطى رقم هاتفه في المخزن للاتّصال به، إذ شاء أن تظلَّ هذه مهمّته وحده، فلا يشارك فيها زوجه وأخته.

تلقّى كثيرًا من المخابرات، وجاءته الأجوبة سلبية. الناس، في هذه المدينة، لا يتلفتون إلى الوراء... أنظارهم مشدودة أبدًا إلى الأمام... أبدًا إلى الأمام.

147

كاد يطوي الموضوع وينساه، حين وصلته مخابرة غير عادية؛ لقد اتّصل به رجل مجهول، قال إنّ عنده معلومات تتعلّق بالموضوع، ورفض أن يعطي اسمه.

– حين نلتقي نتعارف يا مستر راجي...

كان الرجل يتحدّث بلهجة أميركية، مطعّمة بمفردات عربية مكسرّة. ومع أن راجي لم يكن مرتاحًا إلى غموض الرجل، غير أنّه رضي أن يقابله؛ وضرب له موعدًا في المطعم المجاور لمخزنه: – نلتقي في كافتيريا «...»، الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

– أوكي، مستر راجي؛ اتّفقنا.

وتذكّر راجي، بعدما أقفل الخطّ، أنّه لم يسأل محدّثه عن علامة فارقة، تميّزه؛ كما لم يعطه إشارة منه... ثمّ عاد وأقنع نفسه بأنّها ليست مشكلة تقلق؛ «الكافتيريا» تكاد تكون ناديًا مقفلًا، لا يقصدها سوى الموظّفين ورجال الأعمال من المخازن والمكاتب المجاورة؛ والوجوه الجديدة تلفت الأنظار؛ ولم يخطئ في تفكيره. حالما دخل المطعم، لاحظ رجلًا يجلس إلى المائدة الفارغة وحيدًا؛ فاقترب منه وحيّاه: – أسعد الله نهارك، أنا راجي أبي نجم... حضرتك...

لم يدعه الرجل يكمل جملته. قفز من مقعده، ومدّ يده بحماسة ليصافح اليد الممدودة إليه:

– أنا «تيودور نون» يمكنك أن تناديني «تيد»... كيف الحال مستر نجم؟

– بخير... تفضّل لنختار طعامنا، ثمّ نتحدّث في أثناء الغداء.

148

لم ينتظر راجي جواب الرجل؛ سار أمامه، إلى حيث يقف الزبائن في صفّ الانتظار، وملأ كلّ منهما صينيّته بما يشتهيه من طعام، ثمّ عادا إلى المائدة.

وبادره راجي بالكلام:

– مستر «نون» تقيم في نيورك؟

وردّ بعصبية:

– يس، يس مستر نجم. كنت أعمل في ستور كبير، «سبرنكلي ديبارتمانت ستورز». تسمع بها إيه؟ اليوم أنا على التقاعد.

– عظيم! والأصل من البلاد؟

– يس. يس. أصلنا من ضيعة «أومرا».

قاطعه راجي:

– يمكن الإسم «قمرة». من زمان هاجرت؟

– يس، من زمان، أهلي هاجروا، كان عمري سبع سنين. أنا درست المحاسبة، وتوظّفت، واليوم أنا عازب مستر نجم، يعني، مش مجوّز. كنت مجوّز وطلّقت. كانت أميركية، وما مشي الحال.

قال راجي:

– الطباع أحيانًا تختلف. المهمّ الأولاد في حالات الطلاق.

– نو، نو... الحمد لله ما في أولاد.

عاد راجي إلى الموضوع:

– مستر نون، بخصوص التلفون، نتابع كلامنا، شو عندك معلومات عن الإخوة أبو يوسف؟ هاجروا إلى نيويورك قبل الحرب الأولى، وانقطعت أخبارهم، بعد الحرب.

– يس مستر نجم. عندي أخبار، قصّة طويلة، مستعدّ تسمعها؟

شجعه راجي:

– طبعًا. أنا هنا لهذه الغاية.

تابع الضيف:

– القصة سمعتها من أبي – سام نون – رحمه الله. هاجر في الوقت نفسه، والتقى بالإخوة أبو يوسف، يعني «أديل» و«سيد» و«جو» في مرسيليا، ومنها سافروا على ظهر باخرة أوصلتهم إلى ميناء نيويورك. وظلّوا مدّة طويلة مع بعضهم... مدّة طويلة.

وفجأة وقف «تيد» فقفز قلب راجي:

– ما بك يا مستر نون؟ ماذا جرى؟

ابتسم وهو يهزّ رأسه:

– نو، ماشي، مستر نجم. نسيت أشلح البرنيطة والترانشكوت.

– تفضّل، خذ راحتك.

149

وضع الرجل المعطف والقبّعة على كرسيّ مجاور، وتابع سرد الحكاية:

– حين وصلوا إلى نيويورك، ما كان معهم دليل، ولا عنوان. رجال الشرطة نقلوهم إلى مركز خاصّ لتجمّع المهاجرين، ومنه صاروا يتفرّقون. أبي بقي مع الإخوة الثلاثة؛ وجدوا غرفة، عاشوا فيها عدّة أشهر، وكانوا كلّ يوم يبحثون عن

عمل، وتبقى أمّي وأديل في البيت لإعداد الأكل. فاصوليا، ومعلّبات تقدّمها لهم دائرة الهجرة. وفي يوم توفّق «جو» بشغل عند أحد التجّار السوريّين. قبله خادمًا في مخزنه، وكان يدفع له عشرين سنتًا في اليوم. وفرح الجميع، واحتفلوا بالمناسبة؛ فتحوا علبة لحمة إضافة إلى الفاصوليا. وبعد يومين وجد أبي شغلة. أعطاه أحد التجّار «كشّة» وطلب منه أن يبيع في البرّ. وصار يغيب عنّا عدّة أيام، مرّات عشرة، أو عشرين يومًا، يرجع بعدها متعبًا، وفرحًا بالنتيجة، وأمّي صارت تجمع المال في كمرها.. تعرف شو الكمر، يا مستر نجم.

– نعم، نعم أعرف.

كان راجي يستمع إلى التفاصيل الهامشية، بانتظار الخبر الأهمّ: ماذا جرى لهم؟ وكان يخشى أن ينتهي الموعد قبل أن يفرغ محدّثه من المقدّمة، فاستحثّه ليتابع: – «سيْد» رفض حمل «الكشّة» ورفض الشغل بالأجرة عند التجّار. يسْ، سيد كان غير شكل، غاوي مصارعة، جسمه «شلقة من شقيف» هذا ما كان يقوله أبي عنه.

وراح «سيد» يبحث عن عمل عند المصارعين، وخدمه الحظّ حين التقى بمهاجر لبنانيّ يدير حلقة مصارعة. أخذه، وفحصه، فأعجبه وعيّن له مدرّبًا، وأبقاه بقربه ليحضر حفلات المصارعة، ويستفيد.

وفي ذات يوم، حدث أمر غريب؛ قدم إلى الحلقة أعظم مصارع في الولاية. كان يخيف كلّ المصارعين، فيهربون منه. وكان مثلنا، مغتربًا من بلاد جبيل. هكذا أخبرني أبي. واسم المصارع «ديك الجنّ».

نزل إلى الحلبة، وراح يتمشّى، ويتحدّى بمشيته ونظراته جميع الموجودين، ويردّد بصوت عال:

– ساحلي... جبلي.

وهو يقصد القول: إنه ابن الساحل، ويتحدّى أبناء الجبل.

– «سيد» كان ابن جبل ولم يحتمل التحدّي... قفز من مكانه، وتصدّى له بقوله: «قلْ ساحلي، ولا تلفظ اسم الجبل.»

فتابع «ديك الجن» تحدّيه:

– ساحلي، جبلي، أقولها على رأس السطح.

عندها، بدأ «سيد» يخلع قميصه، ودعاه إلى المصارعة؛ ولمّا أبصر صاحب النادي ما يجري، لم يصدّق عينيه؛ فقفز خلف «سيد» وأمسكه بذراعه ليردّه خوفًا عليه من هذا الجبّار الذي لا يملك قوّة الجسد وحدها، بل له مقدرة اكتسبها من كثرة التمارين.

لكن «سيد» لم يسمع كلام صاحب النادي. دفعه عنه، وقفز إلى الحلبة وبدأ يتحدّى:

– الجبلي بانتظارك... تفضّل.

وكان الناس قد انقسموا إلى فريقين، واحد يؤيد «ديك الجن» والآخر يصفّق للمغامر المجهول، الذي يسعى إلى الموت الأكيد.

وقفز «ديك الجن» قفزة واحدة، جعلته مقابل منافسه، الذي تعبّأ غضبًا ونارًا، فما كاد المصارع يتحرّك باتّجاهه حتىّ سدّد له ضربة طرحته أرضًا. ولمّا حاول النهوض منها، عاجله بضربة أخرى على بطنه، فغرزت أصابعه في أحشاء «ديك الجنّ» الذي وقع يتخبّط فوق الأرض.

وأصيب الناس، من الطرفين، بصدمة عنيفة؛ لم يصفّقوا ولم يصرخوا. انتظروا حتّى وصلت سيّارة إسعاف نقلت المصارع العتيّ إلى أقرب مستشفى، حيث أجريت له عملية أنقذت حياته؛ أمّا «سيد» فقد طُرد من النادي لعدم تقيّده بأصول المصارعة.

ولمّا رجع إلى الغرفة، مساء ذلك اليوم، كان حزينًا، منهار القوى، ولم يكلّم أحدًا عمّا جرى معه. نحن عرفنا الحكاية من المغتربين.

بعدها، لم يعد «سيد» يذكر المصارعة، وتوقّف عن ممارسة الرياضة، وانصرف إلى البحث عن عمل... ثمّ غاب، وطالت غيبته؛ وعرفنا فيما بعد من أخيه «جو» أنّه سافر مع قافلة ذاهبة إلى الغرب، حيث وجد عملًا في مزرعة لتربية الأبقار.

بعد سفره، راح العقد ينفرط؛ «جو» ظلّ يتنقّل من مخزن إلى مخزن، حتّى انتهى شريكًا مع رجل عجوز يملك مطعمًا في «بوسطن». و«أديل» تزوّجت شابًا مغتربًا، وانتقلت معه إلى الولاية في الجنوب. وأبي ظلّ يبيع بالكشّة حتّى تجمّع لديه ماله يكفيه لفتح مطعم صغير، وصار يديره، وأمّي تطبخ له

المأكولات التي تجيدها. وكنت أساعد في المطعم، وأذهب إلى المدرسة؛ وتعلّمت المحاسبة، وانتهيت موظّفًا في شركة محترمة.

قاطعه راجي:

– هذه الحكاية قديمة، يا مستر «تيد»... ماذا جرى بعد ذلك؟ أوليس عندك أخبار؟

وهزَّ «تيد» رأسه مؤكّدًا:

– يس، يس. ظلّ «جو» يتّصل بأبي، ويزورنا في الأعياد، ويخبرنا عن أخيه وأخته. لكن، بعدما توفّي أبي، لم نعد نسمع عنهم شيئًا.

وسأله راجي:

– ومتى توفّي الوالد يا مستر تيد؟

– أوه! حصلت الوفاة بعد الحرب الأولى...

– ومن ذلك التاريخ، لم يعد أحد منهم يتّصل بكم؟

– مستر نجم، كل واحد مشغول بحاله؛ الكبار صاروا ختيارية، والأولاد لا يعرفون عنّا شيئًا... هذه حال الدنيا.

لم يكن راجي بحاجة إلى فلسفة الرجل. وشعر بأنّ هذا كل ما يستطيع أن يحصل عليه، لكنّه عاد فطرح سؤالًا أخيرًا:

– هل تحتفظ بأيّ عنوان لهم؟ أو هل تعرف من يحتفظ بعنوانهم، من أيّام زمان؟

هزّ «تيد» رأسه نافيًا:

– نو، نو، مستر نجم. هذه الحكاية كلّها. أخبرتك كلّ ما أعرف. أحببت أن أساعد، «يوسي»... والآن أريد أن أذهب، سررت بلقاك.

مدّ راجي يده إلى اليد التي امتدّت لتصافحه:

– وأنا كذلك، يا مستر «تيد»، سررت بلقائك، وشكرًا للقصّة.

فردّ بمرح:

– شكرًا للغداء... إلى اللقاء.

وقف راجي لحظة يتأمّله وهو يغادر «الكافتيريا» ثمّ حمل قبعته، وسار بين المقاعد الفارغة.

150

كانت الساعة تشير إلى الثانية.

يعني أنّه أنفق ساعتين مع الرجل، لماذا؟ هل أفادته المقابلة؟

وهل كسب معلومات جديدة يحملها إلى صهره رضوان، يشرح بها صدره؟

كان يمشي فوق الرصيف المألوف، يعالج هذه الأفكار ويتلقّى رذاذ المطر فوق وجهه ورأسه، وقد نسي القبّعة في يده.

الأفكار تتضارب، وتتراكم التساؤلات: هل يخبره أم لا؟

هل يفيد رضوان أن يعرف ماذا جرى اليوم، بينه وبين الرجل القادم من الماضي؟

وماذا تنفعه حكايات انقضى على حدوثها ما يزيد على النصف القرن؟

وحين بلغ المخزن، كان قد اتّخذ قرارًا حاسمًا. أجل، سوف يخبره.

من الضروري أن يعرف رضوان هذه الحكايات البعيدة، لينزع من رأسه الظنون التي تلازمه كظلّه، ويكفّ عن الاعتقاد بأنَّ أخوته وأولادهم في مكان ما، من نيورك وسيمضي، هو، أبعد من الحكايات التي سمعها، فيقول له: «يا رضوان، يا أخي، الحكاية تكاد تكون تكرارًا لألوف الحكايات؛ وأخوتك مثل ألوف المغتربين الذين عبروا هذه المدينة أوّل قدومهم، ثمّ توزّعوا فوق وجه القارة الأميركية، بعدما بدّلوا أسماءهم وأزياءهم، والكثير من أفكارهم... وبعدما أصيبوا بالخيبات، والنكسات. قد يكون معظمهم نجح فيما بعد، وبنى وعمّر وثمّر، لكن هذا كلّه حدث للإنسان الجديد، للمولود الذي خرج من رماد حرائقهم».

يقول له: «إذا لم يكتبوا، ليس لأنّهم فقدوا العاطفة، بل ربّما لأنّهم فقدوا الأمل. والحرب جاءت مثل غيمة، وخيّمت على العقول، وصدمت الأرواح، وسملت العيون... الحرب مزَّقت، وشتّت... وزرعت غربة جديدة، في حقول الغربة المفتوحة في النفوس».

ويقول له: «كم يستطيع الإنسان أن يحتمل؟ إلى متى يستطيع أن يظلّ ناهضًا، متصدّيًا، صلبًا وصامدًا؟».

ويقول له كلامًا كثيرًا يمسح من عينيه ذلك الحزن البعيد، العميق الغور، ويخلّصه من قلق يأكل أعصابه.

وتساءل راجي: وإذا خلّصه من قلقه، بماذا يمكنه أن يعوضه؟

ماذا يغرس مكان الحزن، في العينين؟

الأمل!

أجل! يتوجّه به إلى الشباب؛ أمله، وأمل غده... إلى الأحفاد، هبته إلى الأجيال المقبلة، وامتداد قامته عبر الأيّام الآتية من المجهول.

سوف يقول له كلامًا كثيرًا، حين يلتقيه، في المساء.

151

وحين التقيا في المساء، كان رضوان صامتًا، وكأنّه يحاول أن يهضم الوجبة الدسمة التي بدأ يتناولها منذ عشرة أيام، وهو الآن صامت هادئ، ومنهوك القوى؛ ونيورك تتململ في أحشائه، تخترقه مع الشرايين، في مجاري دمه، لتعشّش في صميم ذاته، وتبقى صورة موازية للوعي.

وإذا هو كفَّ عن طرح السؤال حول مصير أخوته، فليس لأنه نسي، بل لأنّ السؤال، هو أيضًا، صار في المجرى صدى يدقّ، ويدقّ، ولا يجد من يجيب.

152

– بلى، هناك من يجيب، يا رضوان، يا عمي. هناك من يحمل معك بعض الحمل، ويحاول أن يخفّف عنك... يحاول.

ويتساءل راجي: «هل حقًّا لأخفّف عنه؟»

ثمّ يعود إلى نفسه: «إنَّها مغامرة، وأنت لا تخشى المغامرت؛ حرام أن يبقى الرجل معلّقًا بحبال الهواء، ويذهب من زيارت، من دون أن يسمع كلمة يتزوّد بها لرحلته المقبلة.»

ثمّ يبدأ من الأوّل:

– يا رضوان...

– نعم، يا بو ريمون، نعم، يا عمي.

رضوان كلّه سمع وانفتاح. لو لم يكن عند راجي شيء مهمّ، لما توجّه إليه بهذه الجدية:

– يا رضوان، يا عمي، بحثنا عن أخوتك! في الواقع أنّي بدأت البحث من يوم عدت من كندا، وكانت الأجوبة تردني سلبية، حتّى كان اليوم.

سأله بلهفة:

– شو صار اليوم، يا بو ريمون؟ إن شاء الله خير!

صمت راجي لحظة، ثم تابع:

– اليوم اتّصل بي شخص، قال إن عنده معلومات... ودعوته لزيارتي، وجلسنا نتحدّث ساعتين... معلومات عنده، ولكن منذ ما يزيد على نصف قرن. أخبرني حكاية السنوات الأولى، بالتفصيل، ثمّ لمّا بدأ الأخوة يتوزّعون، ويغيّرون أماكن إقامتهم وأعمالهم، أضاعهم، ولم يعد هناك من يخبر عنهم. حسب قوله، وللمناسبة اسمه «ثيودور نون». هل يعني الاسم عندك شيئًا؟

هزَّ رضوان رأسه نافيًا وتابع راجي:

– حسب قوله، إنّ أخوتك توزّعوا بين الشرق والغرب، والجنوب... يعني على امتداد الولايات الأميركية، ولم يبقَ منهم أحد في نيورك؛ عدلا، صار اسمها «أديل»، ويوسف اسمه «جو»، وسعد صار «سيد»... وكان أخوتك أصدقاء لأبيه، «سام نون». وحين توفّي الأب، بعد الحرب الأولى، ما عادوا سمعوا أيّ خبر عنهم. يا بو نبيل، الحكاية مؤلمة، ولا شكّ كنت أتمنّى لو قدرت أن أساعدك لنعثر على أثر منهم، لكن كلّ جهد ذهب سدًى، وعلينا أن نكون واقعيين، ونتقبّل الحقائق... الله يحفظ الشباب والأحفاد.

هزَّ رضوان رأسه موافقًا:

– الحمد لله، يا بو ريمون، العين مليانة؛ لكن ما حدا يأخد مطرح حدا. الابن له معزّة، والأخ له معزّة. ونحن نلبس الثوب الذي تفصّله أنت.

– أنا أقول: عندك أيّام حلوة تقضيها مع أولادك وأحفادك، وتفرح بهم، وبرحلة العمر. اتّكل على الله، إنه مدبّر الجميع.

وافقه رضوان:

– صحيح. الله دبّرهم حين كانت بيننا البحار السبعة... وهو وحده يكمل تدبير أمورهم. الله يسعدهم مطرح ما كانوا.

تهجّأ رضوان عبارته الأخيرة، ونهض عن الكرسي، ولم يستطع أن يرفع ظهره ويسير منتصبًا كعادته. أصابه الخبر في إحدى فقرات ظهره، وتشظّى في عينيه، فاغرورقتا بالدمع. حملها وهرب إلى الشرفة.

كانت عاصفة خريفية ناعمة تجسّ نبض الشجر، وتطوف في الحديقة، ثمّ ترتفع تهزّ أسلاك الكهرباء، وتتطاول على الأشجار في الحدائق المجاورة. وبدت الشوارع المضاءة مهجورة، لا مشاة، ولا سيّارات.

وأحسّ رضوان أنّه معزول فوق هذه الشرفة البعيدة، البعيدة عن مصطبته؛ وشعر بشوق مفاجئ، لا إلى أولاده وأحفاده، أو أخوته... بل إلى تلك الأرض التي تمدّ ذراعيها تتلقّفه، كلّما لطمته الحياة لطمة لا يعرف كيف يُداريها.

سحب منديله، وجفّف عينيه على مهل، ثمّ عاد إلى الداخل ليشترك مع الجماعة في الشراب والطعام والسهر والكلام.

153

إنها ليلة الوداع.

مع الفجر تقلع الطائرة لتعود بهم إلى كندا.

وماغي تستغلّ الفرصة لتخرج رضوان من صدفة عزلته:

– غناء لم تسمعنا، يا بو نبيل، لكن ما نسينا وعدك بالرقص.

كان يمكن لماغي أن تطلب منه أيّ شيء، سوى هذ الطلب. أيّ رقص يستطيع أن يرقصه، بعد كل الذي سمعه من راجي؟

ظهره يؤلمه، ويحسّ بالألم يتمشّى في نخاريب عظامه.

وتعود ماغي تلحّ عليه:

– رقصة واحدة، مختصرة، لنتعلّم منك خطوات جديدة...

ثمّ تضيف، حين تلاحظ تردّده:

– أعرف أنّك تعبان، أبو نبيل، كلّنا مرهقون، لكنّها ليلة الوداع.

تأمّل وجهها الطيِّب، وعينيها المبتهلتين كعيني طفل تضرعان للعيد، وتذكّر كل ما فعلته من أجله ومن أجل زوجته خلال زيارتهما، وكيف طافت بهما المدينة والضواحي، تارة في السيّارة، وطورًا على القدمين، وفي كل الحالات بقيت بسمتها نورًا يهدي، ويفتح الأبواب المغلقة.

وها هي تبتسم تلك البسمة الطيّبة التي لا تطلب شيئًا لذاتها، بقدر ما تريده للجماعة.

وشعر بأنّ قلبه يخفق خفقات جديدة: بعد ساعات يسافر. يغيب عن وجهها وعن راجي وألماس إلى أجل غير معروف؛ وربّما إلى الأبد... وهم يريدون أن

يرقص، ويعتذر بسبب التعب؟ لا، بسبب هذه الحالة التي حلّت به. ولكن الرقص يعبّر عن كلّ الحالات، وليس بالضرورة أن يكون رقص الفرح؛ هناك رقصات للحزن، للموت، للتعبير عن الانهزام، والألم.

ويشبّ من مكانه، يسحب شالًا يعقده عند أسفل الخصر، ويرقص، على إيقاع التصفيق، وعلى أنغام تبثّها أسطوانة عربية قديمة.

يرقص لهم. يخرج من جسده وألمه، ويقذف ذاته بين الجماعة، لتمتزج بهم، ولا يشعر في عروقه تململ الحماسة القديمة التي تلهبه كلما اندفع إلى حلبة الرقص.

حاول أن يبتسم، ويعبّر في رقصته عن شكره وامتنانه لهؤلاء الأحباء، الذين عثر عليهم في هذه المدينة الحيادية، وعوّضوه من أخوته؛ إنّما ساقاه لا تلبّيان. ويشعر بأنّه حصان مهزوم، والسوط يزغرد فوق رأسه، يلاحقه ليكسب شوط السباق، وهو يقتلع رجليه اقتلاعًا من جاذب مغناطيسي يشدّهما إلى الأرض.

دار بعض دورات حول نفسه، وحول الجماعة، ثمّ اعتذر وعاد يرتاح فوق المقعد، ويستمع إلى التصفيق، وعبارات الإطراء والإعجاب.

حتّى هذه الحركات الباردة التي عبّر فيها عن السأم والألم، وجدت عندهم معنى لها... أم أنّهم شعروا بانهزامه، وهم يصفّقون ليس إعجابًا بل لياقة وتشجيعًا؟ ولنفرض صحّ التقدير الأخير، فأيّ فرق هناك؟ ماذا يهمّه الآن لو رقص رقصة عنترية، أو دبّ دبيب نملة؟

لا شيء يهمّ، بعد الآن، لا شيء يهمّ.

زال القلق، وبقي الحزن، تلاشى التساؤل، وظلّ له مدى الفراغ، وضع نهاية للشوق الملتهب بين أضلعه، ذلك الشوق الذي جعله يتنقل في المدينة الغريبة بهمّة الشباب، يسير ولا يتعب، يهبط إلى جوف الأرض، أو يحلّق في موازاة السحب، ولا يحسّ بالوهن أو الجوع، ولا تنبري له شهوة من شهوات الجسد، سوى تلك اللاهبة في موقد العاطفة، كانت وراء كلّ ما بنى من قصور في أحلام اليقظة والمنام.

لقد فعل كلّ ما يستطيع.

وراجي أتمّ المهمة على أكمل وجه، وكانت الخيبة من نصيبه. وهو يرقص بتثاقل وسأم، وكأنّه يقذف من أحشائه حشود الانهزام ومرارة الخيبة.

غدًا، تغادروننا، يا «هَني»، وتتركون فراغًا كبيرًا في حياتنا... عرفتمونا بحالكم، والآن ترجعون.. أنا لا أصدّق، لا أريد أن أصدّق.

ألماس تخاطبهم، وكأنّها تحادث نفسها، ثمّ تتابع:

– الإنسان يعيش خمسين سنة بعيدًا عن الأخت والأخ، يا هني.. ولكن بعد اللقاء، يصبح الفراق مرًّا.

وردَّت أمّ نبيل:

– وأنا، يا أختي، يصعب عليّ فراقكم. يا ليتني أبقى معكم عمري كلّه.

وقال راجي:

– البقاء أهون من الرحيل؛ أهلًا وسهلًا وألف مرحبًا... هذا جلّ ما نتمنّاه، يا أختي، أن تبقي مع أبو نبيل عندنا! تجرّبان العيش في هذه البلاد، خصوصًا أنّ حالة الوطن لا تشجّع على العودة. كلّ يوم يرتفع عدد الضحايا في بيروت والجبل، وتتّسع رقعة القتال. لبنان يعيش على فوهة بركان، وأخبار الحرب فيه تتصدّر نشرات الأخبار، عندنا وفي كلّ مكان.

هذا الاهتمام الإعلاميّ مريب.

وقاطعه رضوان:

– لاحظنا التغيير قبل سفرنا. كانت المتاريس والحواجز في شوارع بيروت، لكن ما فكّرنا في أنّ المسألة تصل إلى هذا الحدّ.

فردّ راجي:

– نعم، يا عمّي، يا بو نبيل. الوضع خطير، ولا أحد يمكنه أن يقدّر إلى أين تصل هذه الحرب بوطننا الصغير.

وتمتمت أم نبيل:

– الله يلطف ويرحم.

وتدخّلت ألماس:

– يا هني، الحالة تعبانة، والأفضل للجميع أن تبقوا عندنا، أو في كندا، حتّى تهدأ الأوضاع.

كان الحوار ينفذ إلى سمع رضوان، فيزيده ضيقًا وألمًا، لكنّه قرّر ألّا يناقش. إنَّها ساعات معدودة، ويرجع إلى كندا، وهناك يقرّر مع أولاده ما الذي سيفعله.

وهو يعرف جيّدًا ماذا يفعل، برغم كلّ المغريات التي يقدّمونها إليه. لن يعلن رأيه الآن؛ لن يتفوّه بكلمة، ويترك لهم أن يفصّلوا الثوب على مزاجهم؛ وهو مصمّم على فكرة واحدة، ويبصر طريقًا واحدًا سوف يسلكه مهما كلّفه ذلك من عناء.

على هذه الأفكار غفا، وعلى هذه الأفكار استيقظ، وهبّ يحزم الحقائب ويرتدي ثيابه استعدادًا للرحيل.

155

لكلّ نقلة قدم طعمٌ يختلف عن طعم النقلات السابقة، وهو لو حاول أن يسجّل إنفعالاته، منذ بدأ السفر، لامتلأ صندوق الصدر، وفاض؛ وهو الآن يستعدّ لمغادرة المدينة المدهشة، والأهل الذين عوّضوه من أهله، ويحسّ بالغصّة تقبض على أسفل «زَلعومه»، تكاد تخنقه؛ ويكافح دمعاته، حتّى لا تفضحه، ولا تظهره بمظهر الضعف أمام أنظارهم. أمّ نبيل تبكي بصمت وحرقة. تبكي، وتجري دموعها سخيّة فوق الخدين؛ وتتصاعد لهبة العواطف من بين رموشها المبلّلة، تمسح جبين الأخ المنحني فوق كتفها. والرجل العصاميّ الجبار – أخوها – يبكي، ويغمرها ويشدّ، ويحاول أن يسكب بين ثدييها كلّ ضراعته لأرض هجرها بالرغم عنه، لأمّ ماتت في حرقة فراقه، ولتلك الأيّام البعيدة المغروسة مع جذور السنديان، في قريته النائية.

وتفلت أمّ نبيل من بين ذراعيه لتعانق أختها، وألماس تمسح دمعاتها، وتتمتم:

– يا أختي، يا حبيبتي، ما شبعت منك! كيف مضت الأيّام، كيف؟

وماغي تتأمّل، وتمسح دمعاتها. بعد قليل، ينتهي المشهد الدرامي، ويبقى لها المنزل الصامت، والأيّام الرتيبة. بعد قليل، تهدأ الحركة الدخيلة، وتعود الأمور إلى مجاريها الأليفة، وتحمل الطائرة الضيفين في طريق العودة، مثلما حملتهما إليها قبل أيّام قليلة، وخضّت بحضورهما الجمود ورتابة الأيّام. وكانت في الوقت ذاته تداري عضّة غيرة تمسّكت بصدرها، حين أبصرت ساعدي زوجها يطوّقان عنق أخته، ويستريحان حول الكتفين؛ ثمّ لكي تنفض الأفكار المقلقة، أدارت وجهها إلى حيث يقف رضوان، فلمحت في عينيه انفعالًا شبيهًا بما تحسّه. اقتربت منه وأمسكت بساعده وتمتمت: – كانت أيّامًا حلوة يا بو نبيل. سوف يبقى طعمها في حياتنا وقتًا طويلًا.

وكانت كلمات ماغي السهم الأخير الذي اخترق صدره، وفتح الجرح، وراحت القطرات تنزف. كرجت دمعاته غضبًا عنه. حاول أن يقول كلمة، فأحسّ بشفتيه ترتعشان، واكتفى بتلقّي غمرة من الساعدين اللطيفين؛ ثم ودّع ألماس وراجي بسرعة وانطلق مع أمّ نبيل ولمياء باتّجاه الطائرة.

156

ومن جديد، استقبلتهم «شارلوت تاون». وبدت لعيني رضوان، دنيا أنيسة أليفة. بل شعر بأنّه يهبط أرضًا حميمة، غرس فيها بعضًا من ذاته.

كم هو كبير، الفرق الذي يقف بين المدينة اللامحدودة التي غادرها، وهذه الصغيرة الحجم التي تستقبله! وقد بات يعرف الكثير عنها، وبعد أيّام، يحفظ غيبًا اتّجاه الطرق، ومطلّات البيوت. وبعد أيام...

وهو، من الآن فصاعدًا، سيبدأ عدّ الزمن بالأيّام، بل الساعات والدقائق؛ الزيارة بلغت مداها، والعودة إليها انتكاسة. العودة لا تحمل نكهة الحماسة الأولى.

يهبط سلّم الطائرة على بثّ أفكاره، وتتلقّفه الأذرع الحبيبة. ومن جديد، تحتويه وتعيده إلى حيث ينسى الضيق، والألم، وخيبة الآمال؛ وينسى تلك الغربة الباردة التي ترفّ حوله بجناحيها الرماديين، ثمّ تتوارى خلف العيون الضاحكة، والوجوه المنفتحة له، تنثر في دربه ودرب رفيقة العمر الراحة والطمأنينة: – الحمد لله على السلامة. فقدنا لغيابكم.

– كانت الغيبة في نيورك أطول من كلّ السنين الماضية.

– ما صدقنا أنّكم تعودون إلينا.

– كيف عشنا كل هالسنين بعيدًا عنكم؟!

أولاده يرحّبون، يقولون بالصوت العالي ما يجول في باله، ويخبّ في ثنايا العاطفة، ويقرع جدران الصدر... يقرع، ويدقّ على جدار القلب.

هذا الشعور المتبادل وهو يعود إليهم، غير ما كان حين فارقهم. لاحظ ذلك حسّان، وهمس في أذن نبيل:

– أبي صامت، على غير عادته!

وردّ نبيل:

– يمكن تعبان من الطريق.

فقال حسّان:

– لا أظنّ... الآن نعرف القصّة من لمياء.

ولمياء كانت قد سمعت الحكاية من خالها. وأوصاها الخال بأن تهتمّ بأبيهم، لأنّ خيبته كانت أكبر ممّا توقع.

وقال لها الخال:

– أنا لا ألومه يا لمياء. من الصعب جدًّا على المرء أن يتخلّى عن أخوته، ويقتنع بأنّه لن يلتقيهم أبدًا.

وسألته لمياء:

وتعتقد أن أبي اقتنع بالفكرة؟

فأجاب الخال بهدوء:

– بدا لي مقتنعًا. أمّا الذي يضمره، فهذا علمه عند الله.

ولمياء تعرف أباها جيّدًا، وتدرك كم يصعب على الآخرين أو يؤثروا عليه ليبدّل فكرة راسخة في ذهنه، أو يتّخذ موقفًا مغايرًا لموقف سابق له. وشعرت، بالسليقة، بأنّ أباها أبدى لخالها القناعة والتهذيب، وأبقى لذاته الأفكار المقلقة.

– ولكن...

عادت لمياء تسأل نفسها:

– ولكن، أين يمكنه أن يبحث عن أخوته بعد الآن؟

157

وجّهت السؤال إلى أخويها، في ما بعد، حين انتحيا بها ركنًا من المنزل، ليعرفا منها ما الذي جرى لأبيهما.

فردّ نبيل:

– سوف يبقى الموضوع يقلقه لبعض الوقت، ثمّ لن يلبث أن يغرقه في زحمة الحياة هنا!

وقال حسّان:

– أنا أرى الموضوع مؤاتيًا لنطرق معه قضيّة البقاء هنا... من يدري، فقد نتوصّل إلى العثور على أثر منهم، في يوم.

وأبدت لمياء تحفّظها:

– تريد رأيي: أبي مستعدّ لأن يرجع إلى البلاد... الآن.

وانتفض حسّان:

– لكن الدنيا حرب. الحالة في البلاد ملعونة. ألا تسمعين الأخبار؟ كلّ يوم عشرات القتلى والجرحى، والخطف على الهوية، وأخبار تشيّب الرأس.

وافقه نبيل بإصرار:

– لن نسمح لهما بالعودة مهما كلّف الأمر. لن نرمي بوالدينا في أشداق الجحيم.

قالت لمياء بهدوء:

– هذا رأيك، يا نبيل، وليس رأي الوالد. لماذا لا تبحث الموضوع معه؟

وهزّ نبيل رأسه:

– الوالد لا يقدّر حجم الكارثة، وهو يحكم بعاطفته، وعاطفته مرتبطة بتلك البقعة الصغيرة من الكون.

وردّ حسّان:

– هل تلومه يا نبيل؟ ألست مثله، أنت، وأنا، ولمياء والأخوة؟ كلّنا مرتبطون بالرحم الذي حملنا. ومهما تملّكنا هنا من أرض ومخازن، لن نشعر يومًا بأنّ التربة تربتنا.

وافقه نبيل:

– هذا صحيح، يا حسّان، إنّما علينا في الوقت الحاضر أن نسير عكس العاطفة، وعكس المجرى الطبيعيّ لأفكارنا... همّنا أن ننقذ حياة والدينا، ما دمنا قادرين على ذلك. الموضوع مطروح بهذه البساطة، والقضية لا تقبل المساومة: إنّها قضية حياة أو موت...

158

– تحبّني، تكرهني... تحبّني، تكرهني... تحبّـ...

– أجل، تحبّك، يا روح جدّو...

فاجأه جدّه في منتصف اللعبة، وتجمّدت الكلمات فوق شفتي «مايكل» الصغير، وسقطت من يده زهرة الأقحوان الورقية.

كان وحده، في الغرفة، يدندن أغنيات طفولية، ويقلّد أخوته في نثر البتلات البيضاء من الزهرة الإصطناعية؛ واحدة للحبّ، وأخرى للكراهية، وفجأة دخل

الجدّ الغرفة، وتوقّف الطفل عن اللعب.

اقترب منه رضوان يرجوه:

– تابع، يا جدّو، تابع لعبتك، وعلِّمني ما تقول...

ابتسم الطفل بسمة خجل، ثمّ انحنى يلمّ الزهرة وتابع نثر بتلاتها:

– تحبّني... تكرهني...

أمسك رضوان زهرة مماثلة، وراح يقلّد حفيده:

– حرب، سلام... حرب، سلام... نعود، لا نعود... نعود، لا... نعود...

159

لا بدّ من العودة، وبأسرع وقت؛ إنّها حلمه، وشغله الشاغل، منذ رجع من نيويورك؛ بل إنّ الوطن بات النداء الذي لا يفارق روحه في هذه الأيّام. والأيّام صعبة وقاسية، والنيران التي تلتهم أسواق بيروت ومصانع الضواحي، تلفح بحرارتها عيون المغتربين، فتسيل الدموع غصبًا عن مآقيها.

تبعته الحرب، رغم هذه المساحات الشاسعة، وتشبّثت بتلابيبه. وهو لا يجد مكانًا يهرب إليه. باتت الحرب حديث الناس أنّى التقوا؛ أخبار الإذاعات، وصور الصحف؛ وأكثر من هذا وذاك التلفزيون، ينقل إليهم المعارك بأدقّ تفاصيلها: هكذا يتمّ القنص على المحاور وخطوط النار... هكذا يسقط الأبرياء في الشوارع... المواطنون الذين يخرجون لقضاء الحاجات اليومية، هذا يخرّ وفي يده رغيف، وآخر يهوي من فوق سلّم تسلّقه ليصلح عطلًا في الكهرباء؛ وجماعات تنزح، ملهوفة، هلعة... الدماء تنزف، والجراح مفتوحة، والرعب يقفز من العيون.

إنّها حرب الفقراء والبؤساء... وردّد رضوان في سرّه:

– الذين لهم ملكوت السموات.

ثمّ تساءل مشكّكًا:

– هكذا يكون الملكوت السماوي؟

وتابع تسلسل الأحداث:

الناس يهربون حفاة، نصف عراة. يهربون من نيران القذائف والحريق، من ملجأ إلى ملجأ يتنقّلون، وقد حملوا فوق رؤوسهم وأكتافهم ما تيسّر من الأمتعة.

هذه قنبلة تنفجر بين المساكن، وتتطاير الشظايا البشرية، وتلتقطها عدسات المصوّرين بدقّة مذهلة، وبكثير من الاهتمام، تنقلها إليهم، مفصّلة. تأتيهم من محطّات كندا مثلما تأتي من محطّات جارتها الولايات المتحدة؛ وإذا الوطن الصغير أجزاء موزّعة بفوضى على الشاشات الصغيرة.

والمذيع يعلّق بحماسة.

ماذا يقول؟

لا يهمّ رضوان أن يعرف. الصور أبلغ من أيّ كلام. ويرتفع الصوت أكثر وكأنه يناشد الكون بأسره، ليشهد معه على هول ما يجري. وتمرّ العدسة على هياكل المباني التي بدت وكأنّها جماجم، وهياكل لأجسام تلاشت منذ ألوف السنين.

أهذه بيروت، أم بعض الآثار التاريخية؟!

نبيل يشرح له:

– إنّها بيروت، يا أبي، من يصدّق الذي يجري هناك؟

صوت المذيع يتحوّل إلى عواء؛ وتكرّ المشاهد الدامية، جثث أطفال محروقة، أكوام من الهياكل البشرية فوق أكواخ خشبية، في حفر مفتوحة كالأفواه الجائعة... بيوت تتهدّم وتنهار، ويقفز منها الأحياء، طلبًا للنجاة، فتصطادهم الرشيشات المتربصة في الزوايا، والجرّافات تجرف التراب والجثث... وعواء المذيع يرافق الأحداث!

160

أزاح بصره عن الشاشة، وراح يمسح دموع القهر: ما الذي يجري في وطنه؟

نبيل يحاول أن يوضح:

– يومًا بعد يوم تزداد شراسة القتال؛ ولا ندري إلى أين توصل هذه الحالة.

يسأل أبوه، وهو يتمنّى ألّا يعرف:

– مَنْ يقاتل من، يا ابني؟

ويردّ نبيل:

– الأطراف المتنازعة، هكذا تقول الأخبار.

– ومن تكون تلك الأطراف؟ من أين جمعوا هذه النقمة والكراهية التي تدكّ البيوت فوق رؤوسهم؟ على ماذا يتقاتلون، يا ابني؟

ويردّ نبيل:

– على خلاص الوطن.

ويتمتم رضوان في رأسه:

– أيّ وطن؟ أيّ خلاص؟

ويتمنّى في قرارة نفسه، لو كان هناك لَفَهمَ الحكايةَ أكثر، وأدرك على ماذا وقع الخلاف.

ويفاجئه شعور ما عرفه في حياته؛ وهو مزيج من الخوف الشديد، والوحدة، والعجز، والشلل.

لو كان له أن يمحو هذه المسافة الشاسعة التي تفصله عن وطنه! لو كان له جناحان، لطار في هذه اللحظة، وفي غفلة من أبنائه وزوجته، لطار مثل عصفور وحطّ فوق غصن، وراح يرشّ الماء فوق الحرائق، يطفئها، أو يرسل النداء تلو النداء، ويصالح بين المقاتلين، تمامًا مثلما كان يفعل كلّما «علقت» في «الجورة».

كم مرّة اندلع القتال في قريته! وكان يخرج بشجاعة، يواجه ما يحدث ويصالح بين المقاتلين، أو يفتح داره لهارب من نيران الحقد، من سيل الحجارة المتساقطة من كلّ صوب.

وأيّ سلاح كان سلاحهم؟ الحجارة، والعصي، والهراوات... وكلّ ما تحمله الأيدي من وسائل العدوان. والمتقاتلون فريقان، ويبقى الفريق الثالث على الحياد، ليتدخّل في الوقت المناسب، ويصلح الأمور. وإذا لم تتمّ المصالحة في فورة الحماسة، وارتفاع حرارة الدم، كانوا ينتظرون بضعة أيّام ثمّ يتدخّلون. وتُرفع القضيّة أمام وجوه البلدة، ويشهد الشهود، ويعترف المخطئ بخطإه، وينال الصفح أو العقاب وتصفو القلوب، وتتلاشى الأحقاد، وتذوب مثل رغوة الصابون... وتعيش «الجورة» فترة من السلام قبل أن تخضّ الأجواء مشكلة طارئة، أو عدوان جديد.

لكن الذي يطالعه الآن على شاشة التلفزيون، لا يجد له اسمًا ولا تشبيهًا. ويلتفت حوله، يبحث عن أذن تضغي إليه، وتسمع ما يجول في خاطره؛ فيبصر نبيل جالسًا مقابله، رأسه بين يديه، وعيناه في الأرض.

لم ينطق بحرف. خشي أن يُزعج ابنه إن هو رفع صوته، وخشي أكثر أن يخرج الصوت بكاءً، فغادر مقعده، واتّجه إلى الغرفة المجاورة.

العائلة مجتمعة في غرفة الاستقبال، بناءً على دعوة من نبيل. ولم تقتصر الدعوة على الأخوة وأزواجهم، بل شملت جميع المغتربين في الجزيرة، والغاية منها التداول في موضوع الحرب، والدعوة إلى جمع التبرّعات لمساعدة المتضرّرين، وضحايا الحرب الشرسة. لم يتخلّف واحد عن تلبية الدعوة. حضر الجميع، وفي الوقت المحدّد. تدفّقوا بحماسة حتّى ضاق بهم المكان، فاقترح «معين» أن ينتقلوا إلى النادي، حيث المكان أرحب والقاعة معدّة للاجتماعات. لكنّ نبيل اعترض على اقتراح صهره: – يا معين، الليلة تداعَيْنا، لا لنعقد اجتماعًا إنّما لنأخذ علمًا. دعونا نتابع حوارنا هنا اليوم، ثمّ نعقد الاجتماعات المقبلة في النادي.

ونالت الفكرة استحسان الحاضرين؛ وكان شحادة أوّل من شاء معرفة ما يحدث:

– إذا أمكن يا أخوان، وضّحوا لنا غاية اللقاء.

ردّ نبيل متوجّهًا للجميع:

– لقد قرّ رأي الشباب على أن يشاركوا في التخفيف من آلام المواطنين، خصوصًا الذين أصيبوا مباشرة في الحرب. وسوف نقوم بجمع التبرّعات، لنساعد المتضرّرين في الحرب.

فقاطعه جبران:

– الفكرة عظيمة، يا نبيل... وهذا يخلق حركة جديدة في النادي.

وافقته نوال:

– ونشاط غير تقليدي. تعوّدنا حفلات السمر والأنس، كان ذلك ممتازًا في أيّام السلم، أمّا الآن، فهناك ما هو أهمّ. هناك شعب، هو شعبنا، لحمنا ودمنا يتعرّض للموت في كلّ لحظة، فهل نبقى متفرّجين؟

وردَّ الحضور بصوت واحد:

– طبعًا لا... نحن مستعدّون لكلّ ما يُطلب منّا.

وسأل معين، وهو رئيس النادي:

– هل نعدّ شيئًا خاصًّا للاجتماعات؟ ومتى يكون الموعد؟

فردّ نبيل:

– أنا أرى أن نبقي الاجتماع مفتوحًا طوال فترة المساء، حتّى لا تضيع فرصة العمل على أحد. وكلّما انتهى واحدنا من عمله، يمرّ بالنادي، ويقدّم ما عنده من مساعدة... أو اقتراحات.

ثمّ استطرد:

– أرجو أن يفهم الجميع أنّنا نقوم بهذا العمل، تلقائيًّا، وليس بدعوة من أحد الفرقاء. غايتنا إنسانية، بغضّ النظر عن النزعات والفوارق الشخصيّة والسياسيّة.

وصفّق شحادة:

– هذا كلام جوهريّ، نحن كلّنا إخوة، وكإخوة سنعمل.

فشكره نبيل:

– أدامك الله، يا عم شحادة، ما بيطلع منّك إلّا كلّ خير.

وما كاد ينهي عبارته، حتّى انتصب له «سامي غدّار». وقف على امتداد قامته وقفةً خطابية مهّدت لما سيقوله.

صمت الجميع، وانتظروا. كلّهم يعرفون سامي، ومواقفه المشهورة بالمعارضة. وهذه فرصة ذهبيّة يؤكد فيها من جديد سلبيّته في مواجهة أيّ حدث: – هل تسمح، يا سيد نبيل، أن توضح لنا بعض النقاط؟

اللهجة تحمل التحدّي والاستفزاز؛ ونبيل يرفض أن يتحدّاه الرجل أو يستفزّه ويشكّك في موقفه، ولا سيّما حين تكون الغاية نبيلة، مثل التي يدعو إليها... فأصغى إلى سامي جيّدًا، قبل أن يسأله: – وما هي الأمور الغامضة يا أخ سامي؟

فردّ سامي دون أن يغيّر لهجته:

– هناك عدّة أمور غامضة. مثلًا أنّ أحدًا من الفرقاء لم يتّصل بكم، وهذا يعني أنّ المساعدة تظلّ غير محدّدة، أي بلا هوية!

حاول نبيل أن يردّ فسبقه معين:

– نبيل حدّد هوّية العمل، إنّه عمل إنسانيّ في الدرجة الأولى.

ابتسم سامي ابتسامة صفراء:

– هذا جواب ساذج، يا أخ معين. في الوضع الراهن، لم يبقَ هناك عمل إنساني مطلق. عليك أن تحدّد موقفك من القتال، وإلى جانب من تقف، ومع

أيّ فريق؟

وزعق معين مغتاظًا:

– هو هو!... لسنا على ساحة القتال لنساند فريقًا ضدّ آخر. نحن نعيش مأساة الوطن بكلّ أطرافه، وفرقائه، ولن نسمح لأحد بأن يفرّق بيننا.

ثمّ توجّه معين إلى الجماعة:

– هل بينكم من يعترض على كلامي؟

ولمّا لم يردّ عليه أحد تابع:

– تبقى وحدك، يا أخ سامي... أنت المعترض الوحيد على عمل إنسانيّ، نحاول أن نلتقي فيه لا أن نفترق.

لم تختلج شعرة في رأس سامي غدّار. خطا إلى الأمام خطوة متحدّية وهو يردّد:

– ما في داعي لبقائي معكم... أهدافنا لا تلتقي.

أجابه نبيل:

– والله، أنت حرّ. أنت، وكلّ من يسمعني. لا نُلزم أحدًا من الناس بشيء. كلّ واحد يعتبر نفسه الداعي والمدعوّ إلى هذا النشاط. ولكلّ منكم الحرّية في أن يبقى معنا، أو لا يبقى.

قال سامي، وهو يتّجه صوب الباب:

– أنا حدّدت موقفي وأكرّر: لن أساعد ما لم تتّضح هوية المستفيدين من مساعدتي... تصبحون بخير.

صوت نبيل وحده رافقه إلى الباب، وبقيت الجماعة صامتة، وكأنّها تستعيد ما تبعثر من أفكار كانت متآلفة، قبل أن يطرح سامي حصاته في البركة الهادئة.

وكان جبران أبو حمد أوّل من كسر جدار الصمت بقوله:

– سامي، في كلّ عرس له قرص. لازم دائمًا يحمل السلّم بالعرض.

فردّ نبيل بهدوء:

– سامي حرّ في تفكيره وتصرّفه.

وتابع جبران بسخرية:

– طبعًا حرّ. ولكن حرّية عن حرّية تفرق. الإنسان قادر أن يستخدم حرّيته للهدم أو للبناء.

وطمأنه نبيل:

– حماسة سامي تظلّ مثل العاصفة في فنجان. المهمّ نحن وعملنا.

ردّ جبران معبّرا عن الجماعة:

– نحن، كلّنا مستعدّون للخدمة. يا أخ نبيل، قلت الاجتماعات تُعقد في النادي، مساء كلّ يوم، ونحن لها... والآن، هيَّا يا شباب، إلى النوم.

162

خرج جبران، وبدأ عقد الحلقة ينفرط، وكان رضوان صامتًا يتأمّل ما يجري من ركنه القصي.

كلّ خطوة يخطونها تزيده قلقًا وجزعًا. إنّه يتألّم لما يحدث لوطنه، وبات يخشى أن تتسبّب الأحداث في عرقلة رجوعه، خصوصًا بعدما سمع أنّ القصف لا يوفّر المطار، وهذا من شأنه أن يوقف حركة الطيران، أي يقفل باب الأمل المشرّع أمامه.

وحين أوى إلى فراشه، تلك الليلة، كانت ترافقه هموم الكون، تثقل على صدره وتضيّق أنفاسه؛ راح يتقلّب على الفراش الوثير، فيحسّه كومة من أشواك القندول.

وشعرت أمّ نبيل بتقلّبه فسألته:

– شو القصّة، يا رجّال؟

لم يردّ عليها، فكرّرت سؤالها:

– هل تحسّ بوجع؟ مالك؟

فردّ تمتمة:

– إنّي قلق، لا يغمض لي جفن.

حاولت زوجته أن تخفّف عنه بالكلام اللطيف:

– يمكن بسبب مشاهد التلفزيون. الأفضل لا نشوف ولا نسمع.

وانتصب رضوان جالسًا في سريره:

– بيقدر الإنسان، يا مَرَا؟ كيف يطاوعنا القلب والضمير؟

أجابت:

– لكن القلق لا ينفع. أفضل شيء اقتراح نبيل.
– نبيل! الله يرضى عليه، دائمًا أفكاره للخير، لكن هذا لا ينفعنا.
وسألته:
– شو قصدك يا رجال؟
– قصدي، يا مَرَا، لازم نرجع، وبأسرع ما يمكن، قبل ما يسكّروا الحدود والمطار.
احتجّت أم نبيل:
– لكن الأولاد لن يقبلوا. وعدناهم نعيِّد معهم. ما بيصير نخيبهم.
أجاب بلهجة ساخرة:
– هْنيا لك يا مَرَا! أنت وَيْن، والدنيا وين! نحن نفكّر بالمصير والمستقبل، وإذا كنّا رح نرجع أم لا، وأنت بالك بالعيد.
– أنا بالي بأولادي وأحفادي. أبقى معهم حتّى تمرّ الأعياد... مش كلّ يوم نزور كندا.
صمتت أمّ نبيل، وقد أحسّت أنّ زوجها بلغ أقصى حالات اليأس والقلق؛ وهي تشاطره مشاعره، لكنّها لا ترى مبرّرًا للعودة السريعة، ولا تحسّ بهذا الخوف المفاجئ الذي هاجمه وامتلكه، فصار متحكّمًا بأفكاره.
حتّى لو أقفل المطار في بيروت، تظلّ هناك طرق أخرى للعودة. هذا شعورها. لكنّها أبقت هذه الأحاسيس لنفسها، ولم تجهر بها خشية أن تصبّ زيتًا على نار حرائقه، وبدل أن تتحدّاه، قالت بلهجة هادئة: – خلّينا ننام ليلتنا، وما صبح إلّا فتح... اتّكل على الله، يا رجّال.
وهو متّكل على الله، لكنّ الزمام يفلت من يده في بعض الأحيان، ويشرد هذا الشرود الذي يوصله إلى شفير الخطر، ويضعه عند فوهة هاوية لا قرارة لها.
أطفأ المصباح، واقتدى بزوجته؛ حاول أن يطوي جناحيه ويعصر القلق الذي يرفّ بين أضلعه... وينام.

163

الجفن لا ينطبق على الجفن. القلق ينتشر بين الطبقة العليا والطبقة السفلى، مثل حبّات الرمل، وكشظايا زجاج محطّم.

يخترقه الألم من عينيه، لينتشر حتّى أقصى أطرافه، ويلمح خلف كثافة الظلام طيفًا لطفل بهيّ الطلعة، عذب المبسم، يمسك بين أصابعه الطريئة زهرة أقحوان، ينثر أوراقها وهو يتمتم: – تحبّني، تكرهني، تحبّني...

يدعو الطفل ليقترب منه:

– اعلّمك قولة جديدة، هل تسمعني؟

يزمّ الصغير شفتيه، ويتراجع. ويتبعه رضوان بنظره فيبصره يتحوّل إلى حصان «يُرَهْون» بين المساحات الشاسعة، ويقفز بين غابات الشمال الكندي. وقبل أن يصل إلى الأفق، يرتفع عن الأرض قامة، ثمّ يمضي في الارتفاع، أكثر فأكثر، وإذا به يصبح نسرًا يحلّق في الفضاء، ويبتعد... ويتمادى في ارتفاعه حتّى يبدو نقطة صغيرة لا تلبث أن تتلاشى مع ذرّات النور.

164

لم تكن صيحات نسر تلك التي سمعها رضوان، مع طلوع صباح اليوم التالي.

أصاخ سمعه جيدًا، وراح يعدّ: «قاق... قاق... قاق».

إنّه طائر «القاق»، الغراب الأسود، أو «غراب البين»، كما يسمّونه في «الجورة». والغراب جاء ينعق في هذه الساعة المبكرة من صباح يوم جديد.

تمتم مع صلاة الصباح:

– كفانا الله شرّ هالنهار.

وحاول أن يمحو الفكرة من رأسه، وهو يتذكّر مكانه:

«لا، لستَ في الجورة، يا رجل. أنت في شارلتون، والطيور هنا غيرها هناك... وربّما لم يكن ما سمعته صوت «القاق». قد يكون طائرًا آخر جاء يوقظ النيام... ثمّ إذا كان صوت الغراب ينذر بالشؤم في بلادك، فأمره هنا يختلف مثل كثير من الأمور التي تكشّفت لك... لاحظت كيف تضع «ماغي» تمثالًا للبومة في صدر صالة الاستقبال. قالت لك: «إنّ البومة تجلب الخير». والمخازن تبيع تماثيل للبومة من كلّ الأشكال والأحجام؛ إنّها من الزجاج الملوّن، والشموع، شموع العيد، ورسمها فوق بطاقات المعايدة... البومة عندهم تجلب السعادة والخير. وفي الجورة تجلب النحس والفناء. والآن، مع من يكون الحقّ؟ وأين تقف أنت؟ والغراب، لما يختلف عن البومة؟ إنّه مثلها، رمز لكلّ شؤم. وقد يختلف أمره هنا؛ اسألهم الآن، حين تنهض... اسأل الشباب، يخبروك... يقولون

لك: تفاءل يا رجل. أنت في بلاد خلعت عن جسدها الخرافات وهي تعيش في الواقع الملموس، ولا دخل للتقاليد الموروثة، والمعتقدات القديمة، وحكايات الماضي، في مسيرتها.

أنت، يا رجل، في بلاد الحاضر».

165

على تأمّلاته المتردّدة، المرتجفة، غادر رضوان سريره، واتّجه إلى النافذة، ورفع الستارة، فأبصره يتنقّل فوق أشجار الحديقة، ثمّ يستقرّ على الأغصان العارية لشجرة تفّاح تحاذي المنزل، ومن هناك يطلق صيحاته: قاق... قاق...

إنّه الغراب، بكلّ مواصفاته، وشكله هنا مثله في الجورة. كذلك لونه، وصوته، وهذه القحّة في مسلكه! يكاد يطرق الباب أو يخترق الجدار. وغربان بلاده تكتفي بالتحليق، على مسافة مرتفعة من المنزل، حتّى ليكاد حضورها كلّه يُختصر في ذلك النعيق.

غادر الغرفة متّهجًا إلى المطبخ، حيث يلتئم عادة شمل العائلة حول مائدة الفطور.

أبصر المقاعد خالية، وسلمى وحدها في المطبخ تعدّ القهوة والحليب، وقد أدارت ظهرها إلى الباب فلم تشعر بدخوله.

– صباح الخير، يا عمّي، يا أم رضوان...

فاجأها الصوت، فاستدارت صوبه:

– عمّي؟ صباح الخير، كيف كانت ليلتك؟

هزّ رأسه مردّدًا:

– ليلة قلق وكوابيس. أخبار البلاد هزّت أعصابي، يا عمّي. وكان ينقصنا هالقاق. جاء «يقعي» من قبل الضوء... الله يكفينا شرّ هالنهار.

بدا على سلمى أنّها لم تفهم قصده، فتابع:

– سمعت نعيقه يا عمّي؟ اسمعي...

ابتسمتْ سلمى، محاولة أن تكشح ضباب قلقه:

– تعني الغراب؟ هنا الغربان تملأ الجزيرة، تجد أسرابها في كلّ مكان، لكنّها لا تؤذي.

فردّ مفسّرًا:

– لا تؤذي، فهمنا. لكن صيحاتها، يا عمي، لا تطاق.

وافقته كنّته:

– الحقّ معك، ليس لها أنغام الحساسين، لكن هذا من عطاء الطبيعة.

– ما هذا الذي قصدته يا عمي. عندكم، في كندا، هل يُعتبر نعيق الغراب نذير شؤم؟

هزّت سلمى رأسها نافية:

– أبدًا. الناس هنا لا يتوقّفون عند هذه الأمور.

ردّ مستسلمًا:

– الناس هنا، عقلهم كبير. ما بتهمّهم الأمور الصغيرة... وكأنّه تنبّه فجأة إلى الفراغ في المنزل، فسألها:

– الشباب وين، يا عمّي؟ مبكّرين بالطلعة اليوم.

لم تجبه سلمى فورًا، فكرّر تساؤله:

– بيظهر نبيل مشغول كثير بهالأيام!

وصمت لحظات بانتظار الجواب.

اقتربت منه سلمى، واحتضنت خصره بإحدى ساعديها:

– نبيل والشباب عند معين. العم سليم أعطاك عمره.

– العم سليم؟ مش معقول!

نفر منها، وظلّ يتمتم:

– المختار مات، يا حيف على الأوادم!

ثمّ وجه كلامه إلى كنّته:

– ليش ما قالوا، يا عمّي؟ كان لازم يخبروني.

ردّت سلمى وهي تمسح دموعها:

– بقيت أنا، منتظرة. بعد الفطور نذهب سويًّا إلى بيت لمياء.

166

أيّ فطور! وأيّ طعام!

جلس رضوان يشرب قهوته ويدخّن. وامتلأ جوّ المطبخ بالدخان. ولم تكن له الشجاعة ليوقظ أمّ نبيل، فانتظرها حتّى تستفيق.

حاول مرّتين أن يذكّر سلمى بالحوار الذي فتحه معها قبل لحظات؛ شاء أن يقول لها: إنّ حدسه أنبأه بأنّ مكروهًا سيقع، وأنّ نعيق الغربان كان الإنذار. وإذن، فإنّ غربان كندا لا تختلف بغريزتها عن غربان الجورة.

كان ينوي أن يقول لها هذا وأكثر، لكنّ لسانه لم يطعه؛ فظلَّ يجترّ أفكاره، وينتظر أمّ نبيل.

167

وهي اعتادت انسحابه المبكر من السرير. فما كادت تفتح عينيها، حتّى بدأت تبحث عنه، وهبطت السلّم، متأفّفة من لسعات برد خفيفة استقبلتها من الأبواب الداخلية المشرّعة.

تأمّلها وهي تتقدّم صوبه، حاملة فوق ساقيها العاجزتين ثقل الجسم المترهّل؛ مقبلة نحوه بعينين تطفحان بالبشر حتّى في أحلك ساعات الظلمة:

– يا صباح الخير...

ردّ عليها تمتمة. أمّا سلمى فبادرتها بغمرة قبل أن تدعوها إلى الجلوس، وتناولها القهوة مع الحليب.

لم يفت أمّ نبيل تجهّم وجه زوجها، وظنَّت أنّ ما تراه من بقايا ليلة الأرق الماضية، فسألته وكأنّها تحادث نفسها:

– كانت ليلة قلق، يا رجّال؟

تأمّلها بصمت وتردّد قبل أن يجيب:

– يا ما أحلى الليل، عند أخبار النهار!

قفز الرعب إلى عينيها:

– خير انشالله! أخبار عاطلة من البلاد؟

أجاب بهدوء:

– الأخبار عاطلة من البلاد، ومن الجزيرة؛ العم سليم أعطاكِ عمره!

أخرسها النبأ. وارتسمت الفاجعة بخطوط وخيالات فوق تقاطيع وجهها، في عروق يديها، وفي رعدة انتشرت في كلّ مغرز إبرة من جسمها.

انهمرت دموعها، وخرج الصوت نواحًا:

– يا حيف! موت الأوادم غبينه! يا حيف، يا عمّ سليم.

وتابعتْ وهي تكفكف الدموع:

– لازم نروح حالًا، حتّى نكون مع لمياء ومعين.
اقتربتْ سلمى تربّت كتفها:
– استعدّي على مهل، أنت وعمّي، وأنا بالانتظار.

168

الموت صمت ووحشة. طائر أسطوري يفرد جناحيه فوق رؤوس الجماعة، ويغرقها حتّى أعماق الهاوية، حيث تقف وجهًا لوجه مع الحقيقة التي كانت، ولا تزال تهزّ جذور الإنسان.

والجماعات تملأ قاعة الاستقبال في بيت الموتى. ومعين يجلس صامتًا، وإلى جانبه لمياء، تكفكف دموعها، وحولهما الأخوة والأخوات، والأقارب والأصدقاء.

لجمت أمّ نبيل لسانها، ولم تفلته كما تقتضي العادة، في الجورة، لتعدّد مزايا الفقيد وأفعاله وخصاله الحميدة.

اقتربت من صهرها، وعانقته وهي تردّد:

– عزّ علينا، يا عمي... موت الأوادم غبينه...

ثمّ انتقلت إلى الأخوة، وكرّرت العبارات التقليدية؛ وأبو نبيل، غمر صهره وبكى بكاءً مرًّا... بكاء القهر الذي يأكل أحشاءه:

– يا حيْف، يا عم سليم، يا حَيْف!

ثمّ نقل عينيه بين الموجودين، قبل أن يقف أمامهم الوقفة التقليديّة المعتادة في الجورة: الكفّ الأيمن مسنود إلى الصدر، والرأس ينحني قليلًا، والشفتان تردّدان: – العوض بسلامتكم!

أنهى المهمّة، وجلس في الزاوية، والتساؤل يدقّ على جدار القلب:

– لماذا وضعوا المختار في هذا المكان الغريب، وهو صاحب الدار الواسعة، وابنه يملك دارًا تليق باستقبال الملوك؟ لماذا؟

ولم يجرؤ على أنّه يوجّه السؤال حتّى إلى أقربهم إليه، ولده نبيل. انتظر حتّى يفهم العادات خطوة خطوة... وقضى بقيّة ساعات يومه، في محاولة للوصول إلى ذلك الفهم.

كان سليم واكد يستعدّ للنوم في ساعة متأخّرة من الليلة البارحة، حين أحسّ بألم وضيق في الصدر. أدرك للتوّ، إنّها نوبة أخرى من نوبات القلب؛ فهرع إلى التليفون، يطلب ولده معين... ومعين لم يتأخّر. حضر بسرعة البرق، يرافقه الطبيب. غير أنّ الطبّ عجز عن إنقاذه هذه المرّة. وهكذا قضى «المختار» وانطوت بموته مرحلة زمنيّة كانوا يؤرِّخون بها.

ورضوان جالس بهدوء، وفي صدره تغلي التساؤلات كالمراجل:

ما هي طقوس الموت، في هذه البلاد؟

لماذا يحلّ الصمت، مكان الصراخ، والبكاء؟

والندب؟ أين قادة الندب يدورون حول الفقيد، وتهدر أصواتهم، فتكاد تعيد إلى الميت الحياة؟ أين وأين...

التفت إلى يمينه، فأبصر «سعد الله الحاج» صديق المختار، غارقًا في صمته، بل تائهًا في عالم بعيد عن القاعة. وفكّر في أن يحطّم جدار الصمت بينهما بالسؤال: – عم سعد الله، شو هي عادات البلاد؟

عاد سعد الله من شروده. وأخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يردّ:

– الجثمان يظلّ مسجى يومين أو أكثر، حتّى يحين موعد الدفن. وهكذا يتسنّى للجميع أن يودّعوا الفقيد الوداع الأخير. وإدارة بيت الموتى تتولّى الأمور المتعلّقة بالجنازة والدفن... وهي تسأل الأهل عن المستوى الذي يريدونه لمراسم الدفن. هناك مراتب ومستويات في الموت، كما في الحياة، يا بو نبيل.

ولم يكن عند رضوان ما يقوله سوى عبارة واحدة:

– يا حيف يا مختار! الله يرحم عظامه...

وكان بينه وبين نفسه يعالج فكرة أخرى، ويقارن بين الذي يبصره هنا وبين ما يمكن أن يحدث هناك، وفي جورة السنديان:

هنا يتجمّع الناس ليقولوا كلمة تعزية للأقارب، وتخرج من بين الشفاه همسًا، وتخرج خجلى، ولا يرتفع صوت امرأة بالعويل والنواح على الفقيد، ومن فُقِدَ من قبل. ولا يندب النادبون في ساحة الدار، ليرفعوا تموّجات الحزن إلى أقصى مداها... ولا يتبادل «القول» على الفقيد قوّالو الزجل، الذين يفدون من

قرى الجوار، ويطلقون للكلمات العنان، فتعول وتئنّ... وتلطم الخدود، تقرّح الأجفان، أو تضغط الأبخرة المحصورة داخل قفص الصدر، وتعصرها، حتّى تكاد تفجّر الضلوع.

وهنا يفدون للتعزية في اللباس العادي... ولا ترتدي الأشجار شارات الحداد...

وهنا، رضوان جالس في منطقة غريبة عنه، برغم أنّها مبقّعة بوجوه الأحبّاء. أولاده وأقاربه، وأبناء بلدته...

أبناء بلدته؟ هل هم حقًّا؟ أين خلعوا تقاليد الحزن العتيق؟

التفت بالسؤال إلى جاره سعد الله:

– يا عمي، ما بيصير ندب على الفقيد؟

– لا، يا بو نبيل، هذه عادات تخلّينا عنها من زمان. مثلما أنت شايف، إذا شعر الواحد بحاجة إلى البكاء، يبكي، وحده. والمشاركة في الحزن محدودة، مثلها في الأفراح... عادات كثيرة تخلّينا عنها، يا بو نبيل. دخلك خبّرني، الندب رجّع الميّت شي مرّة من المرّات؟

كلام سعد الله يجلو الضباب عن عيني رضوان. الرجل يقول كلامًا حقيقيًّا: الندب لا يعيد الموتى، ولا نوح النائحات أو ارتداء المسوح والسواد... هذه كلّها تقاليد... تقاليد.

ويجيب جاره من دون أن يرفع صوته:

«صحيح، عم سعد الله... إنّها تقاليد. لكن الواحد منّا، حين يحسّ بتلك الغصّة المؤلمة في أعماقه، يشعر بحاجة شديدة إلى أن يستند إلى ذراع، يرتمي فوق صدر، أو يتغلغل ويضيع في دنيا ماضيه... يأنس بالمألوف القريب، والمفهوم من ذلك الماضي. ولا تعود الغصّة تؤلم، ويلتئم الجرح، ويهدأ القلق، ويفارقه الصقيع، ليحلّ محلّه دفء أنيس يتغلغل في ثنايا ذاته، ويربطه بالكيانات المنتشرة حوله.

أقول لك، يا عم سعد الله، الواحد منّا يموت وحيدًا، مثلما ولد وحيدًا، لكن الموت يفقد رهبته وهوله إذا التفت الواحد وأبصر حوله الوجوه الأنيسة الأليفة... أو إذا أصاخ السمع، وتسرَّبت إلى أذنيه أصوات رقيقة، مُحبّة، تهدهده ليغفو في حضن الأرض، مثلما يغفو الطفل في حضن الأمّ.

أقول لك، يا عم سعد الله، هذه أمور ليست مادّية. يمكن يصعب تفسيرها وفهمها عليّ، وعليك... ولكنّها تبقى هامّة بالنسبة إلى أصحابها»...

ثمّ رفع صوته وردّ على السؤال المعلّق بينهما:

– لا... طبعًا، يا عم سعد الله، الندب ولا مرّة أقام الموتى.

170

هنا، يموت الإنسان مرّتين: مرّة حين تهدأ أنفاسه، ويستريح القلب، ويتوقف البثّ السرّي من الخلايا الرمادية.

ومرّة أخرى عندما يرافقونه إلى مثواه الأخير.

مثواه الأخير!

– أو يكون هنا، المثوى الأخير يا مختار؟

رضوان يسأل. والمختار لا يردّ. ولا تتحرك حماسته ليشرح الأمور، ويوضح الغموض... وبدلًا منه، يطلّ الكاهن، بردائه الأبيض، يتمتم صلاة بلغة أهل كندا.

والمختار أصبح داخل الصندوق الرصاصيّ المحكم الإقفال.

والكاهن يختم الصلاة، ويدعو الناس ليخرجوا!

أدرك رضوان ذلك من تحرّك المشيّعين.

المقربون يخرجون أوّلًا، وينتظرون في قاعة مجاورة، ويتبعهم الحضور ليهزّوا أيديهم معزّين.

والنعش تولّاه موظّفون مختصّون من إدارة «بيت الموتى».

171

حين سار الموكب ليواري المختار في مثواه الأخير، كانت ترافقه حفنة من الناس، هم أبناؤه والكبار من أحفاده وبعض الأقارب. وأصرّ رضوان على مرافقتهم، فاعترض معين على الفكرة: – الأفضل أن ترجع مع امرأة العم إلى البيت، لا أريد أن ترهق نفسك.

ورفض الاعتراض بحزم:

– هذا أجر، يا عمي! الله يعطي القوّة. الدنيا مؤاجرة يا معين.

وفي الرحلة القصيرة من باحة الكنيسة إلى مقبرة المغتربين، كان رضوان غارقًا في تأمّلاته؛ يفكّر في مصير الإنسان، من حين يفتح عينيه على الوجود

إلى حين يغمضهما ويرحل... ثمّ انتقل إلى التفكير في المختار، وتساءل: لو لم يولد المختار في هذه البلاد، أتراه كان قبل أن يُدفن في تربتها؟

ثمّ عارض نفسه المعترضة:

– يا رجل، أنت حامل السلّم بالعرض. حين يموت الإنسان، لا يعود يحسّ بشيء، سواء دُفن في تراب الغربة أم تحت ثلوج القطب الشمالي. أَحَرَقه أو أغرقه في البحر، فلن يشعر بالفرق. انتهى. الروح فارقت. والتراب يرجع إلى التراب. ويعود الجسم يتداخل في عناصر غذّته طوال فترة وجوده فوق الأرض.

172

والأرض تفتح ذراعيها عبر باب عريض، تستقبل النعش، ويُقفل الباب بإحكام، ويعود المشيّعون، تحت وابل المطر المطعّم بالثلج، والرياح الشرسة.

173

كم هو بارد «المثوى الأخير» في هذه البلاد!

كم هو موحش وبارد، موت الغرباء!

غادروه بصمت وخشوع. وعاد موكبهم إلى مدينة الأحياء، ثمّ تفرّق الشمل، وانصرف كلّ واحد إلى عمله.

هذا هو حظّ الميت من الأحياء: ساعات قليلة، تمرّ بطيئة، ثقيلة، وكأنّها أوراق فولاذية تساقطت من مسيرة الدهور، لتستقرّ بين الجفون ثمّ تأبى أن تفارق.

ويشعر رضوان بأنّ الأرض تنتفض تحت قدميه، تتثنّى مثل بساط خفيف، وتنفضه عنها! فيقفز في الهواء لحظات خارج المكان والزمان، ثمّ يعود إلى موضعه فوق مقعد مريح، في دار صهره معين، يتأمّل كلّ حركة وإشارة؛ ولا يقوى على لجم عقله الباطنيّ، وردعه عن إخراج الصور المرصوفة في ثنايا الذاكرة، ليتابع المقارنة ويخرج بالنتيجة التي تستقرّ بين أصابعه بعد كلّ عملية غربلة: الرفض.

إنّه يرفض قبول عادات لم ينشأ عليها. ويشعر بأنّ العقل لا يطاوعه، ولا ترضخ له العاطفة... والموضوع ليس فنجان قهوة يجبر ذوقه على قبوله. إنّها علاقة الإنسان بكلّ ما يحيط به، ثمّ علاقته بالأحياء وبالأموات.

وفي تلك الجلسة الهادئة، وبعد نهار سلبه راحته، بدأ النعاس يتسلّل إلى جفنيه، فيطبقهما، ثمّ يرفعه جسدًا خفيفًا، شفّافًا، ويبعده عن الجماعة... ويحمله على متن غمامة بلون الفجر.

ويتساءل في سرّه:

«إلى أين توصله الغمامة؟ وهل تتبع خطًّا محدّدًا مثل طائرة «الجمبو» التي حمتله إلى هذه البلاد؟

وهل هو مقبل على رحلة طويلة طويلة؟ وإلى أين يصل؟ إلى أين؟...»

ويسمع صوتًا يرتفع في هدأة الفجر، والرحيل، ويناديه ليقترب.

يتلفّت باحثًا عن صاحب الصوت، فلا يبصره؛ ويدرك، بالحدس، أنّ «المختار» يناديه؛ وماذا يُريد منه المختار؟

يقول له:

– إقترب، يا عمي، يا بو نبيل، لأهمس في أذنك بهذا السرّ الصغير... أقول لك، الرحلة لا تخيف. والنهاية كانت سهلة، لا عذاب ولا مرض. «هُبْ، طُفْ...» فهمتني، بو نبيل؟ «هب، طف...» مثلما تنفخ على شمعة. وها أنا مرتاح... مرتاح!

ولا يتمالك إلّا أن يردّ عليه:

– ولكنّك لم تودّع أحدًا. فاجأتنا. تركت في نفوسنا حرقتين.

– ماذا تقصد، بو نبيل؟ ما قصدك؟

– حيف أن نفقدك يا عم. الحياة بعدها لائقة بك. وأنت، رحت بسرعة، والحسرة كبيرة و...

لم يدعه المختار يتابع. قاطعه قبل أن يكمل عبارته:

– أعرف ما يجول في خاطرك... الحمد لله، عشت عمري، وأولادي كبروا. وأنا قمت بواجبي نحوهم ونحو المجتمع، وصرت حاضرًا للرحيل.

– لكن هذا لا يلغي الحسرة الكبرى، الفراق صعب، يا مختار! ثمّ لو كانت الوفاة في البلاد، كان كلّ شيء يختلف، فهمت قصدي، يا مختار؟ كلّ شيء كان يختلف.

ويردّ المختار بصوت أقرب إلى الابتسامة:

– هذه أمور ثانوية، بو نبيل، المهمّ الجوهر. الحزن يبقى مطرحه، لا تأخذ على خاطرك، حاول أن تفهم الناس في المهجر.

175

انتفض رضوان كالملسوع. رفع يده يفرك عينيه، ويعود تدريجيًّا إلى جوّه.

لم يغب سوى ومضة عين، فكيف جرى هذا الحديث الطويل؟ ومع المختار!

هو يعرف، من الحكايات الشعبية، أنّ الروح قبل أن تفارق الأرض نهائيًّا تبقى فترة تطوف حائرة، وحيرتها تزداد إذا كانت النهاية مفاجئة، كما في حالات القتل أو النوبات الصاعقة. فهل مرّت روح المختار تودّعه؟ ولماذا اختارته هو؟ وماذا قال صوته؟

حاول أن يتذكّر كلّ حرف، وعاد يشاهد الشريط بالمقلوب. وتوصّل إلى إقناع نفسه بأنّ المختار انتقاه ليبلغه الرسالة، وليمسح الحزن الغائص في أحشائه، والقلق المتغلغل مع مجاري دمه.

وهو، لن يبقى ليموت هنا، مهما كانت الرحلة مريحة. يريدهم أن يودّعوه بالهزج والندب الذي يخرج على النغم التقليدي، ليقترب من مناطق الفرح.

يريد أن يلتقي حوله كلّ من أحبّهم وأحبّوه في تلك الزاوية الدافئة من الوجود، أن تلتقي حوله النائحات، وترفع الندّابة صوتها، تعدّد مآثره، تستسقي الدموع، وتَذْكر، في مناسبة موته، الموتى الذين سبقوه، وتدعوهم ليرافقوه على دروب الرحلة الجديدة.

وتنبري له ذاته المعترضة:

– لماذا تفكّر في الموت، وأنت في أوج الصحّة والنشاط؟

ويرد عليها:

– نعم، الصحّة حديد؛ ولكن ابن آدم ضعيف. من نفخة يطير. والمختار خير مثل على ما أقول.

وتعود ذاته تناقشه:

– يا رجل، أنت واحد متشائم. لا ترى سوى الوجه المظلم من الوجود، وتعمى عن رؤية الأقمار والوجوه المشرقة.

ويصرخ مغتاظًا:

– هذه الحقيقة. لست أعمى. أنا أوزّع بصري بين العالمين. وأرى كلّ شيء، هنا، وهناك.

– أمرك غريب! قبل يومين، كنت تضحك من ابن عمك، شاهين. أتذكر حين أخبرك شاهين عن الحسّون؟

السؤال أعاد إليه بعض سخريته:

– شاهين؟ وهي معقولة حكاية شاهين؟ حمل الحسّون من آخر الدنيا، من بساتين حاصبيا، وهرّبه على حدود كندا، ليعيش عنده في قفص!

وتقاطعه ذاته بلطف:

– وبعدها، شو صار؟

– الذي صار، هو أنّ الحسون عاش كم شهر ومات. وشاهين حلف أن يدفن الحسّون في تراب حاصبيا. وبما أنّه لم يقدر أن يسافر للبلاد، فالحسّون لا يزال مطمورًا في الثلّاجة... هي شغلة معقولة، شغلة شاهين؟

رقصت ذاته المحاورة بتشفٍّ:

– إذن، أنت معي؛ لا فرق عند الحسّون المصبّر في الثلج، منذ عشر سنوات. لا فرق عنده لو دُفن في بستان كنديّ أو حاصبانيّ!

وشعر رضوان بأنّه ينزلق إلى الفخّ المنصوب له، فصرخ:

– هو الحسّون ابن آدم؟ أنا أحكي عن ابن آدم. عن إنسان عليه القدر، مثل المختار، هَيْكْ أجر لائق بالمختار؟ قولي الحقيقة. قولي...

ولم تقل له ذاته كلمة جواب. تركته في حيرته وطارت. وكاد يسمع اصطفاق أجنحتها. بل خُيّل إليه أنّه يسمع صدى قهقهات، لا تشبه أصوات الأنس.

استوى في جلسته، وفتح عينيه جيّدًا قبل أن يسحب من جيبه سيجارة، فيشعلها، ويرحل من جديد مع سحب الدخان.

176

الفجر لصّ يتسلّل بين طبقات الضباب، وكثافة السحب، وينهمر فوق وجه الجزيرة، ثمّ يقف ينتظر.

ولا يهرع أحد لاستقباله. الأبواب المغلقة تظلّ مغلقة، والنوافذ ترتدي طبقات من الستائر، ولا ستارة تغمز علامة الترحيب.

ورضوان في غرفة مبطّنة بكلّ الستائر ووسائل الدفء والظلمة؛ ذرّة حياة في قلب شرنقة متوحّدة.

إلى متى يبقى داخل الشرنقة؟

إلى أيّ حدّ يقوى على الاحتمال؟

طرح السؤال على نفسه حالما فتح عينيه على الصباح، وصمّم في سرّه على أن يتّخذ قراره الحاسم قبل أن تغيب شمس ذلك النهار. لن يبقى في الجزيرة يومًا واحدًا؛ سوف يحزم ثيابه ويعود. أجل، يعود، ولتهبط السماء على الأرض. لا... لن تهبط السماء على الأرض. جلّ ما في الأمر أنّ أولاده سيعارضون رأيه؛ ويظلّ هو على عناده، ويهدّدونه بأمّ نبيل... لن يدعوها ترافقه، هي حرّة. حرّة في أن تختار أولادها وأحفاده، فتبقى إلى جانبهم، بعدما كانت رفيقة دربه طوال نصف قرن.

«خمسون سنة، يا أم نبيل، انقضت على لقائنا، ولم تفترق قدمي عن قدمك في مسيرة الطريق؛ والآن تقولين إنّك تفضلين البقاء هنا؟!»

وترفع صوتها في وجهه، لأوّل مرة:

– ولكنّك مقدم على الخطر يا رجّال... من الجنون أن تسافر الآن إلى البلاد.

– جنون، أو غير جنون... هكذا قرّرت.

ويتدخّل نبيل:

– المسألة ليست مسألة تقويم كلام وتنفيذ قرارات، يا أبي. هناك خطر أكبر منّا جميعًا. الناس يهربون من لبنان، وأنت راجع... لماذا؟

وتسانده نوال:

– ما دمنا كلّنا هنا، يا أبي، وكلّنا أولادك، فلذات كبدك، أحفادك، ورفيقة العمر، حبيبتك أم نبيل... فإلى من تعود هناك؟

يرفع عينيه إلى وجه نوال ولا يردّ.

ويحرجه حسّان:

– نوال طرحت عليك سؤالًا خامًا، لماذا لا تجيب؟ من ينتظرك هناك؟

يبقى صامتًا؛

يفضّل الصمت على أن يجرحهم بالجواب، فيقول لهم:

– هناك من ينتظرني. حبيبتي تنتظر بشوق؛ تتّكئ على جبل حرمون، وتفتح لي ذراعيها بلهفة، لتضمّني إلى حضنها الدافئ... هناك، حيث غرست سبعين سنة من عمري.

وتنبري لمياء:

– تحبّك؟ أكثر ممّا نحبّك نحن؟ لا أظنّ!

ويوافقها جميل:

– لمياء تعبّر عن الجميع: كلّ الأحباب حولك، الأبناء والأحفاد... وأنت جئت لتصرف بضعة أشهر، بضعة أشهر.

يطوّقونه. يقتربون منه، ويشبكون أيديهم حوله، ويصبح أسيرهم، يبحث عن منفذ ليهرب، فلا يبصر منفذًا.

حين كان صغيرًا كان يلعب مع رفاقه هذه اللعبة؛ يشبك الرفاق أيديهم ويدورون في حلقة، ويكون واحد منهم سجينًا في الداخل. ويبحث السجين عن وسيلة للخروج؛ يحاول أن يفتح ثغرة، ويستخدم كلّ ما في جعبته من الحيل، حتى ينجح في الهرب...

والآن، لا يبصر الثغرة، وطوق السواعد حوله يشتدّ، وكأنّ الكيانات الخمسة المنبثقة من كيانه عادت تتجاذب وتلتقي في كيان واحد.

وتبحث عيناه عن أمّ نبيل، علّها تبدّل رأيها، وتعاكسهم... ولكن رفيقة العمر تبقى صامتة.

177

يتركها لصمتها وغفوة الصباح، وينسلّ إلى خارج الغرفة، هربًا من الأفكار المقلقة التي هاجمته مع طلوع النهار الجديد.

ومثلما أبصرهم في حلم اليقظة، يراهم أمامه، متحلّقين حول مائدة المطبخ يتحادثون همسًا.

أحسّ بحدسه أنّه موضوع الحديث، وانقبضتْ نفسه. خشي أن يتحوّل حوار الحلم إلى حديث اليقظة، فبادرهم بالسؤال:

– خير إن شاء الله. شو أخبار البلاد؟

التقت عيونهم في مؤتمر لحظة، قبل أن يردّ نبيل:

– الأخبار منحوسة، الحالة من سيِّئٍ إلى أسوأ.

– هذا ما يقوله الراديو؟
فردّ حسّان:
– الردايو، التلفزيون، والصحف، كلّ وسائل الإعلام لا حديث لها إلّا لبنان.
هزّ رأسه بأسًى:
– كان لازم توقع الحرب حتّى يهتموا فينا؟
ردّت نوال:
– هذا بالضبط ما هو حاصل يا أبي. لولا الحرب ما كنّا سمعنا أخبار الوطن. من المؤسف أنّ عصرنا يتغذّى بمواضيع الإثارة، ولا يشبع.
وسألها:
– شو قولك، يا نوال، هالحرب طويلة؟
فأجابت ببساطة:
– الحرب، يا أبي، نعرف متى تبدأ. لكن متى تنتهي، هذا علمه عند الله وحده.
وطرح سؤالًا يختبرهم:
– وشو العمل؟
وتجرّأ نبيل:
– على الصعيد العائلي، نحمد الله على أنّكم هنا؛ وهذا يخفّف من قلقنا وانشغال بالنا. أمّا على الصعيد الوطنيّ، فالإخوان المغتربون متحمّسون للاجتماعات، ونرجو أن تكون لقاءاتنا مثمرة.
وفاجأهم بردّه:
– من جهتي، أنا، بفضل أرجع «للجورة» قبل ما تصير الحالة أسوأ.
قاطعته لمياء:
– هذا مستحيل. لا نسمح برجوعكم للبلاد في الوقت الحاضر. الناس تهرب من لبنان بالزوارق، وفوق بواخر الشحن…
فقال:
– الناس أحرار يا بنتي. كلّ واحد يعمل ما يناسبه. وأنا شعوري يدفعني إلى أن أرجع، وبأسرع وقت.
اعترض حسّان:

– يا أبي، دعنا نتصارح: رجوعكم لا يفيد الوطن، ويمكن أن يكون أكبر خطر على حياتكم.

فردّ رضوان مؤكِّدًا:

– لا أحد يموت قبل أوانه... وقبل حلول الساعة.

أخرسهم جوابه، وحرّك الإنسان الصامت في أعماقهم، والتائق توقه هو إلى تلك العودَة.

انتصر عليهم، في هذه اللحظة، على الأقلّ.

حين يقترب من حدود الجرح المفتوح، يستطيع أن يغلبهم... فقط، حين يضع أصبعه على نقطة الضعف والانهزام: غربتهم الجائرة.

تركهم خلفه، حول المائدة، واقترب من النافذة الزجاجية المنفتحة على الطبيعة... على لوحة الثلج والجليد خارج الدار.

كانت عاصفة ثلجيّة قد بدأت تهبّ على الجزيرة قبل يومين، ومن كلّ التيّارات المفتوحة على القطب الشمالي، ولم تتوقّف. عيناه لا تبصران سوى رقعة بيضاء.

بياض فوق الأرض، فوق عري الأشجار، وبياض ينهمر ذرّات من سماء قريبة، قريبة حتّى لتكاد تلامس الأرض.

في يوم كهذا اليوم، يتوق إلى الموقد، في الجورة، يُلْقمه قرامي السنديان، وينعم بدفء يتناهى إلى أعماق الجذور. ويحنّ حنينًا عميقًا إلى أصوات الجيران، تتلاقى من فوق السطوح، وهم «يزحّفون» الثلج، وتتشابك سواعدهم في الأزقّة ومداخل البيوت، تجرف الثلج بينما الأصوات تغرس دفء الكلام والسلام، والضيافة، والسهرات الطويلة، وحكايات أيّام زمان.

الثلج يحرّك حنينه إلى الدفء، مثلما تحرّك الغربة الحالية تَوْقَه المُلِحّ إلى جذور خلّفها هناك، في أعماق الأرض.

إلى تلك الأعماق، يحنّ. وهي تشدّه من عينيه، من أنفاسه، من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه؛ ويسير في أثرها، مسحورًا، وكأنّما قوّة مغناطيسية تسيّره، وهو لا حول له ولا إرادة.

ويسمع صوتًا ينطلق من أعماقه:

«بل إنّ الذي يحدث هو من تصميم إرادتك، يا رجل. تترك الأصوات تطنّ من حولك وتهرب. وكلّ الأصوات تقول لك: جنون، إنّك مقدم على عمل مجنون. الإنسان العاقل يسمع من أولاده... وهم أدرى منك بالذي يحدث هنا وهناك، وهم يفرشون جذورهم لتحتويك وتدفِّئ صقيع أيّامك...

لا كلمة تنغّص البال، ولا نظرة تثقب جدار الصدر. كلّهم طيبة ومحبّة، هم والأزواج والأحفاد. وأنت تهرب من هذه النعمة التي تضمّك كحضن أم. وتقول لنفسك: إنّك مشتاق، وإنّ أرضك تحترق... حبيبتك تحترق، وترزح تحت سياط تجلدها، وماذا بوسعك أن تفعل؟ ورقعة الحرب تنفرش وسع الوطن، وأنت كنت، في أيّامك الماضية، تتدخّل لتصلح بين المتقاتلين في الجورة... لكن، أين أنت من تلك الأيّام؟ وأين قتال الجورة، وسلاحه الهراوات والحجارة، من حرب تزلزل أركان الوطن، وتنتشر أخبارها على مساحة الكرة الأرضية.

ها أنّك عند المقلب الآخر من البحر، في هذه القارة الواسعة الشاسعة، وأخبار القتال تلاحقك إلى سريرك. بل إنّها أهمّ ما يخبرون عنه، وما يتحدّثون به. وأنت، يمكنك أن تتصرّف كرجل عاقل، فتبقى مع الشباب، وتتابع الأخبار بالصور والألوان.

فكِّر في سوء العاقبة يا رجل؛ فكّر في الشباب، وأم الشباب... وتراجع عن أنانيّتك. تراجع قليلًا في سبيل من تحبّ...»

179

تراجع رضوان من أمام النافذة واتّجه توًّا إلى غرفة النوم. كان سرير أم نبيل خاليًا، وشعر بحركتها في الحمام المجاور.

لم يُنَادِها مثل عادته؛ بل انصرف إلى حقيبته، وراح يحشوها بالثياب والأمتعة التي تخصّه.

فاجأته زوجته قبل أن يفرغ من المهمّة:

– بشوفك محيّر، يا رجّال! خير، إن شاء الله!

نظر إليها نظرة طفل ضُبط في مخالفة:

– ما في إلّا الخير، يا مَرَا... تضحّيتِ بالنوم.

– صحيح، تضحّيتْ، الدنيا عتمة وسكون، حسبت ما طلع الضوء.

أجابها بسخرية مبطّنة:

– الضوّ طلع، والشمس صارت في قرص الفلك.

كادت تصدّقه، لو لم تلاحظ ابتسامة خبيثة تنفذ من عينيه؛ رفعت ستارة النافذة، وانعكس بياض الأرض في عينيها.

– الدنيا ثلج، ونحنا مش شاعرين!

تابع سخريته:

– كنت نايمة... نوم الهنا، يا أم نبيل.

سألته:

– وأنت، قمت بكّير!

ثمّ انتبهت إلى الحقيبة الفاغرة فاها.

– وهذا شو يا رجّال؟ خطرة وسلامة! بعدنا راجعين من السفر.

أجابها بجدّية:

– رجعنا من سفرة، وحاليًّا نستعد لسفرة ثانية. أنا راجع إلى البلاد.

فصرخت بانفعال:

– هذا الجنون بعينه! مش معقول! شو بتقول الناس عنّا؟ رح يصبوا الملامة على الشباب... إشفق على أولادك يا رجّال...

أجابها، من دون أن يبدّل لهجته:

– اتّخذت قراري، وكلّ واحد حرّ ليقرّر ما يريد.

ولمّا لم تُبْدِ زوجته حركة تابع:

– وأنتِ، يا مَرَا، حرّة تبقي مع الأولاد، شهر... شهرين... ثلاثة... أسبقك، ثمّ تلحقيني.

خرستْ أم نبيل.

تجمّدت الكلمات في بلعومها، أحسّت أنّها أمام رجل جديد، وغريب على فهمها.

غريب، إلى أقصى حدود الغربة والغرابة. وتساءلت بينها وبين نفسها ما إذا كانت الرحلة أثّرت عليه وجعلته يتفرّد باتّخاذ القرارات الحاسمة، ويضرب عرض الحائط بتوسّلات المحبّين.

ثمّ عادت إلى نفسها، تهدّئ طائر الحيرة الذي راح يرفّ في قفص صدرها: أترافقه، أم تبقى مع أولادها؟

لماذا وضعها أمام هذا الخيار الصعب؟ وهي لم تشبع منهم، وموعودة بمواسم الأعياد، والتغلغل إلى عمق حياة كلّ منهم، حتّى إذا جاء يوم تفارقهم فيه، تمضي حاملة زادًا من الطمأنينة وراحة البال.

والآن، ها هو يضعها أمام الخيار الصعب، فَلا تدري بماذا تجيبه، فتحيله على الشباب:

– من جهتي، نبيل يقرّر عني. أنا في ضيافة أولادي، وأترك لهم القرار.

لم يردّ عليها، تابع توضيب حاجاته، حتّى إذا ما امتلأت الحقيبة بكلّ ما يخصّه، أقفلها، ووضع المفتاح في جيبه.

180

وأمّ نبيل تركته وهبطت السلّم، أحسّتْ فجأة أنّ الحمل أكبر منها، وأنّها بحاجة إلى مشاركة الشباب.

استقبلوها بتحيّاتٍ مرحة، ثمّ تراجع المرح إلى ثنايا النفوس حين لاحظوا القلق في عينيها:

– أبوكم ضبّ ثيابه.

اختصرتِ الوضع بعبارة متكومة الأنفاس.

وقفز حسّان من مقعده:

– من جهتي، ما عاد أحكي معه، خلصنا... شركة وقسمناها.

وضع نبيل يده على كتف أخيه يهدّئه:

– مهلًا، يا حسّان، حاولنا إقناعه وفشلنا. الآن علينا أن نساعده حتّى يذهب مجبور الخاطر.

فنظر إليه حسّان نظرة تقدح شررًا.

– أحيانًا، لا أفهمك، يا نبيل! أتحمل أنت مسؤولية سلامته؟

ابتسم نبيل بسمة حزينة:

– سمعته يا حسّان، مثلما سمعناه جميعًا؛ إنّه مستسلم لقدره الاستسلام النهائي. هو معنا، بالجسد، أمّا روحه فقد سبقته إلى الجورة.

هذا الكلام لم يعجب حسّان، ولم يخفّف من غضبه؛ خرج وصفق الباب خلفه، وترك أخوته مع والدتهم في ذهول.

أمسك نبيل يد أمّه، واحتضنها بين يديه:

– لا تقلقي يا أمّي، أبي يعمل ما يريحه نفسيًّا. نتركه يسافر، لكنّنا لن نسمح لكِ بالذهاب. هو أقوى منكِ، يتحرّك بسهولة، أمّا أنت فتبقين معنا.

غمغمتْ بين انهمار الدموع:

– كلّ هالعمر، ما افترقنا. قدمي وقدمه سوا، على كلّ الدروب... شو صار حتّى تغيّرت أحوالنا؟!

اقتربتْ منها لمياء ونوال وطوّقتاها بساعديهما، بينما انحنى جميل يقبّل جبينها:

– تبقين معنا، حتّى يزول الخطر. والدنا يقدر أن يدبّر أموره.

رفعت إلى أولادها عينين مبتهلتين:

– وإذا طالت الحرب؟

فطمأنها نبيل:

– ما رح نربطكِ بحبال. ساعة ما ترغبين بالسفر، نؤمّن لك كلّ شيء، حتّى الرفقة.

وكانت تفكر أبعد من ذلك. تفكّر في رفيق العمر:

إذا حصل له مكروه هل تغفر لنفسها تخلّفها لدى أولادها وانفصالها عنه؟

وتوجّهت بفكرها إلى نبيل:

– إيه، يا ابني! أفرض حدث له مكروه، لا سمح الله، شو بيصير فينا؟

شدّ نبيل ساعده حول خصرها:

– لا أنت، ولا نحن، نكون قادرين على ردّ المكروه، علينا أن نستسلم لمشيئة الله.

181

وكانت تلك المشيئة العليا تقودهم جميعًا باتّجاه المطار، حالما انحسرت العاصفة الثلجية، واستطاعت أوّل طائرة أن تقلع من مطار «شارلوت تاون».

كانت السماء تسكب مزاج القطب المتجمّد فوق أرض المطار، ورؤوس الناس والأشجار... وهم يتكوّمون في ركن دافئ من قاعة المسافرين، ينتظرون انفتاح البوّابة التي سيعبرها المسافر، إلى الطائرة.

وكانوا ساكنين، لا كلمة، ولا إشارة.

أولاده وحدهم حضروا لوداعه، ولم يخبروا الأقارب والأصدقاء. بلى... أحضروا الأحفاد لوداع «جدّو».

وجدّهم يمرّ في أعمق تجارب عمره. قبّلهم جميعًا، قبّل الأحفاد مرارًا، وبكى بكاءً محرقًا، مرًّا. احمرّتْ عيناه، وارتعشتْ شفتاه، وأحسّ صقيع كندا يربض بين كتفيه. وأولاده كانوا يتأمّلونه في تجربته الفريدة، ولا يدركون كنه ما يجري. شعروا بأنّ يدًا خفيّة ارتفعت أمام أنوفهم، ونثرت ذرّات غامضة، خدّرتهم، وسيّرتهم على متن اللحظات، وأوقفتهم حيث يقفون الآن، تماثيل حضرت للشهادة ولتسجيل إيقاع الزمن.

ويمدّ زمانهم يدًا خفيّة تخطف من بينهم الرجل الذي زارهم مثلما يزور الطيف في الأحلام.

182

من خلف نافذة الطائرة، اليد تُلَوّح بمنديل أبيض، متهدّل، بلّلته الدموع.

من خلف نافذة الطائرة...

ظلّت عيونهم مسمّرة فوق تلك النقطة، حتّى بعدما انعطفت الطائرة، وغيّرت موقعها، ثمّ ارتفعت وصارت نقطة زائغة في قلب الفضاء.

1

ملحق إخباري

عثروا عليه، عند مفترق طرق توصل إلى جميع القرى الجنوبية.

جسده ممدّد على شكل صليب.

نقلته سيّارة الإسعاف التابعة لبلدية حاصبيا إلى المستشفى الحكومي في بلدة مرجعيون.

وقد جاء تقرير الطبيب الذي عاينه:

«إنّ المدعوّ رضوان أبو يوسف، (70 سنة) من قرية «جورة السنديان» التابعة لقضاء حاصبيا، نُقل إلى المستشفى جثّة هامدة. قد تبيّن لنا، إثر معاينته، أنّه مصاب برضوض وكدمات وكسور في جميع أنحاء جسمه، خصوصًا في منطقة الصدر، حيث أظهر فحص الأشعّة أنّ ضلوعه جميعها مصابة بكسور مختلفة، إلى جانب كسور في الجمجمة، وفي العمود الفقري، تسبّبت بوفاته قبل عشر ساعات من موعد المعاينة.

حرّر بتاريخ 20 كانون الثاني سنة 1976»

2

وجاء في تقرير كتبه مختار «جورة السنديان»: «إنّ المواطن رضوان أبو يوسف (70 سنة) خُطف من منزله، الساعة التاسعة من ليل 18 – 19 كانون الثاني سنة 1976. وقد فشلت جميع المساعي التي بُذلت للعثور عليه، أو لمعرفة الفاعلين.

كان المغدور في منزله، تلك الليلة، ومعه جماعة من الجيران والأصدقاء، يتسامرون ويشربون القهوة، حين طرق الباب ثلاثة مسلّحين مقنّعين، دعوه ليخرج معهم ويتعرّف إلى رجل مشتبه به، ادّعوا أنّهم عثروا عليه بجوار البلدة. واندفع رضوان بحماسة ليقدّم المساعدة. وما كاد يخطو خارج العتبة حتّى شهر الثلاثة أسلحتهم عليه، وعلى كلّ من تسوّل له النفس بأن يرفع الصوت. وهكذا نقلوه في سيّارة «لاندروفر» خاصة بهم، إلى مكان مجهول.

وحوالى الساعة السادسة من صباح 20 كانون الثاني سنة 1976، وبعد انقضاء ثلاث وثلاثين ساعة على عمليّة الخطف، عثر أحد السائقين على جثّة المغدور به، ملقاة على قارعة الطريقة؛ فسارع إلى مخفر حاصبيا، وأبلغ المسؤولين؛ كما قامت سيّارة الإسعاف التابعة لبلدية حاصبيا بنقل الجثّة إلى المستشفى الحكومي في مرجعيون، حيث أشرف على معاينتها طبيب المنطقة الدكتور ف. ن.

ملاحظة: الحادثة الثالثة التي تحصل في المنطقة، خلال شهر واحد، وكان الضحايا جميعهم مواطنين شرفاء وأبرياء.

التوقيع: س. ف.
مختار جورة السنديان»

3

عن «جورة السنديان»

بتاريخ 25 كانون الثاني سنة 1976

اليوم تمّ تشييع المواطن رضوان أبو يوسف إلى مثواه الأخير. لم تعرف البلدة، في تاريخها القديم والحديث، يومًا مشهودًا كهذا اليوم.

منذ بزغ الفجر، بدأ أهالي القرى المجاورة يفدون جماعات. جاؤوا من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب، ومن كلّ المذاهب والأحزاب المتعايشة في المنطقة.

بكى الرجال والنساء. بكى الشيوخ والأطفال.

وذرفت السماء دموعًا غزيرة، وكان جرس الكنيسة يدقّ دقّات حزينة، تتناغم مع أصوات النائحات، النساء المرتديات الثياب السوداء والملاءات البيضاء. والنساء المتّشحات بالسواد من قمّة الرأس حتّى أخمص القدمين.

وكانت دقّات الجرس تضبط إيقاع ندب الرجال؛ وقد ألّفوا فرقًا فرقًا، وراحوا يتبارون بأجود القول.

كان في مقدّمة المشيّعين المشايخ والكهنة، ووجوه القرى والضياع المجاورة، وزوجة الفقيد واثنان من أبنائه: نبيل وحسّان، وقد حضروا من كندا فور تبلّغهم النبأ المفجع.

4

ظاهرة غريبة

عشيّة دفن رضوان أبو يوسف، تحدّثت جورة السنديان عن ظاهرة غريبة، تناقلتها الألسن عن «الداية» «أمّ نعمان»، وهي أقدر نساء الجورة، وأخبرهنّ في شؤون الولادة والموت.

قالت أمّ نعمان: إنّ جبين رضوان كان يتفصّد بالعرق طوال الفترة التي كانت خلالها مسجّى في باحة الكنيسة؛ وإنّه خيّل إليها، في بعض اللحظات، أنّ الوجه كان ينفرج، ويبدو حول الفم والعينين طيف ابتسامة. وحين نقلت الخبر إلى ولدَي الفقيد، لم يعلّقا بكلمة.

5

حوار في آخر الليل

نبيل: شو رأيك بكلام أمّ نعمان، يا حسّان؟

حسّان: أنا شهدت ما شهدته أمّ نعمان، ولم أجرؤ على الكلام خوفًا من أقاويل الناس.

نبيل: تقصد العرق، أم الابتسامة؟

حسّان: أقصد الاثنين معًا. قد يجد الأطبّاء تفسيرًا مقبولًا للعرق، أمّا الابتسامة فكيف نفسّرها؟

نبيل: ولو يا حسّان! أوَلَيس عندك تفسير؟

حسّان: يمكن عندي، لكنّي لا أبوح به.

نبيل: أنا أبوح عنك، وأقول لك: إنّ طيف الابتسامة هو رسالة الوالد السرّية إلينا، وإلى مواطنيه.

شاء أن يشكرهم؛ أن يقول لهم إنّهم لم يخيّبوه؛ وإنّهم التفّوا حوله، بكلّ الحرارة والحميّة، مثلما كان يتوقّع.

جاؤوا، من كلّ الجهات والمذاهب والأعمار، ليشيّعوه. ربّما ظروف الحرب لم تسمح بإقامة استقبال لائق بالعائد من الرحلة الأميركية، فحضروا اليوم ليقولوا له إنّه لا يزال بينهم، وإنّ اختراقه القارّات والبحار، وإقلاعه عكس زمنه وأيّامه، لم يذهب سدًى.

إنّه مقدر عندهم؛ واسمه مسجّل على لوحات القلوب، وفي محاجر العيون. واليوم، كتبوا إليه رسالة المحبّة بدموع أعينهم. الخاطفون المجهولون عذّبوا جسده، لكنّ روحه تأبى الرضوخ لما جرى. وهي ترتفع على الثأر والحقد، وتشمخ بالتسامح والمحبّة.

لو قُدِّر لوالدنا أن ينطق، يا حسّان، لردّد ما قاله السيّد قبل ألفين من السنين: – أبتاه! اغفر لهم، لأنّهم لا يعرفون ما يعملون.

1980